أنور الجندي

الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية

خمس مؤامرات كبرى على الإسلام
من فجر الإسلام إلى اليوم

الإسلام

دار القلم
دمشق

أنور الجندي

الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية

خمس مؤامرات كبرى على الإسلام
من فجر الإسلام إلى اليوم

«إن الله قد ابتعثنا لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

(ربعي بن عامر)

وقد سأله رستم قائد الفرس: ما الذي جاء بكم؟

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


الضربات التي وجهت
للانقضاض على الأمة الإسلامية

الطّبْعة الأولىٰ
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتُبنا مِن :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الأحداث الكبرى

هجرية ميلادية

٤٩١ ـ ١٠٩٩ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس.

٦٥٦ ـ ١٢٥٨ سقوط بغداد في أيدي التتار.

٦٥٧ ـ ١٢٨٨ قيام الدولة العثمانية.

٨٩٧ ـ ١٤٩٢ سقوط الأندلس (غرناطة) آخر معاقل المسلمين.

٨٩٧ ـ ١٤٩٢ الالتفاف حول عالم الإسلام (حروب إسبانيا والبرتغال).

١٣٤٣ ـ ١٩٢٤ سقوط الخلافة الإسلامية.

١٣٦٦ ـ ١٩٤٧ احتلال فلسطين من الصهيونية.

١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ احتلال القدس.

المواقع العامة

٢١٥ ـ ٨٣٠ هزيمة البيزنطيين أمام المسلمين.

٤٧٩ ـ ١٠٨٦ هزيمة المسلمين في الزلاّقة.

٥٨٣ ـ ١١٨٧ معركة حطين، وانتصار صلاح الدين على الصليبيين.

٦١٥ ـ معركة دمياط.

٦٤٨ ـ ١٢٤٨ تحالف عسكري بين الصليبيين والمغول.

٦٤٧ ـ معركة المنصورة.

٦٥٨ ـ ١٢٦٠ عين جالوت.

٦٩٠ ـ ١٢٩١ تحرير عكا من بقايا الصليبيين.

٨٥٧ ـ ١٤٥٣ فتح القسطنطينية.

٩٥٨ ـ ١٥٧١ معركة ليمانت.



آفاق البحث

مدخل إلى البحث.

البـاب الأول : من جبهة بيزنطة إلى نهاية الحروب الصليبيّة.

البـاب الثاني : الزحف المغولي التتري على أرض الإسلام.

البـاب الثالث : جهاد المماليك في مواجهة خطر الصليبيين والتتار.

البـاب الرابـع : من الأندلس إلى قلب أوروبا.

الباب الخامس: تطويق عالم الإسلام.

الباب السادس: من فتح القسطنطينية إلى سقوط الخلافة.

الباب السـابع : الآن انتهت الحروب الصليبية.

الباب الثـامن : سقوط القدس في أيدي الصهيونية.

الباب التاسـع : الضربة الجديدة التي توجَّه اليوم إلى الأمة الإسلامية.





مدخل إلى البحث

- ١ -

جاء الإسلام ليكون حدّاً فاصلاً في التاريخ الإنساني بين عصر الأديان إلى عصر الدين العالمي الخاتم، برسالة القرآن الكريم وقيادة محمد ﷺ، حاملاً رسالة التوحيد الخالص، ليُخرِج البشرية من الظلمات إلى النور.

هذه حقيقة أساسية اعترف بها كثير من مؤرِّخي الغرب المنصِفين، وتجاهَلَها أولئك الذين ملأ ظهور الإسلام نفوسهم بالأحقاد والخصومة، وأحسّوا أنه إنّما جاء ليقضي على الذين غيَّـروا منطلَقه الحقيقي، منذ أرسل الله تبارك وتعالى الرسل بالدين الحق: الإسلام.

يقول القانوني المسيحي الكبير: فارس الخوري[١]:

«يقسم العلماء الغربيّون التاريخ إلى ثلاثة أدوار: قديم، ومتوسِّط، وجديد، ويضعون سقوط الدولة الرومانية المقدَّسة حدّاً بين العصور المتوسطة والقديمة.

---

(١) فارس الخوري: من نصارى دمشق، اشتغل بالسياسة ورأسَ الوزارة السورية، وكان عالماً قانونياً كبيراً، وكان يعظّم الإسلام ويشيد به، وله في ذلك أقوال كثيرة، توفي سنة ١٩٦٢.

ولست أقول: إن سقوط الدولة الرومانية لا يصحّ اتّخاذه حدّاً فاصلاً بين التاريخ القديم والمتوسّط، فقد كان أثر سقوطها عظيماً، وإنما هنالك حادثة أعظم كان جديراً بعلماء التاريخ اتّخاذها حدّاً فاصلاً لفترتي التاريخ العالمي، وأعني بذلك ظهور الإسلام».

وتلك هي الحقيقة التي يجب أن تُصدَّر بها كتب التاريخ المعاصرة في بلاد المسلمين، حتى يتأكَّد أبناؤنا والأجيال المقبلة بأن أمتهم وقومهم كان لهم دور عظيم في بناء الحضارة الإنسانية، وأنَّ هذا الدور لم يكن له إلا مصدر واحد: هو نزول رسالة الإسلام في بيئتهم.

ولكنَّ الغرب على مختلف أديانه ومذاهبه وفلسفاته، سواء اليونانية والرومانية، أو أديانه اليهودية والمسيحية؛ قد تشكَّل منذ ذلك الوقت في تحالف مقدَّس، كانت غايته تدمير هذه الأمة الإسلامية، وتحطيم وجود هذا المجتمع الجديد، وزاد من هذا التحالف ذلك التوسع السريع الخاطف، الذي مكَّن للإسلام أن يقيم هذه الإمبراطورية الواسعة، من حدود الصين إلى نهر اللوار في أقل من ثمانين عاماً، بينما لم تستطع الإمبراطورية الرومانية أن تتشكَّل في أقل من ألف عام!!.

ومن ثمَّ قامت اليهودية والنصرانية في حالة فزع شديد، تعمل للإدالة من هذا الوجود، فاتَّخذت كل وسيلة لمهاجمة الأمة الإسلامية، والتمست لذلك كل ما تملكه أوروبا من إمكانيات، وامتدَّت المعركة سجالاً عن طريق بيزنطة لا تتوقَّف، فلما ضعفت لجأت أوروبا المسيحية إلى أسلوب أشدَّ عنفاً، فتدافعت تحت اسم الصليب لاقتحام أرض المسلمين، بدعوى استخلاص بيت المقدس، واستمرت هذه الحملات قرنين كاملين، فلما انتهت بالهزيمة الساحقة لم تتوقف أوروبا المسيحية، وأخذت تعدُّ العدَّة لمعركة على الجانب الآخر، فأخرجت المسلمين من الفردوس المفقود (الأندلس)، واندفعت تُغير على الجزائر وتونس، وتنطلق منها إلى غرب أفريقيا، في موج عاصفٍ يكتسح

كل شيء، ابتدأته إسبانيا والبرتغال ثم تلتهما فرنسا وبريطانيا.

ولم تتوقف القوى الغربية المسيحيّة عن محاصرة عالم الإسلام فيما بعد، حيث حاصرت هولندا وبريطانيا بلاد الملايو والهند، في محاولة لحصر الإسلام في دائرة ضيقة تمهيداً لخنقه والقضاء عليه، وحالت القوى الغربية المسيحية بين المسلمين وبين اقتحام القسطنطينية أكثر من ثمانية قرون، كما عملت هذه القوى على إخراج المسلمين من الأندلس بعد ثمانية قرون من مقامهم فيها.

وعندما قامت الدولة العثمانية واقتحمت أوروبا، وأقامت مع العرب مظلّة واقية لحماية الكيان الإسلامي امتدّت أربعة قرون، ظلّ خلالها الغرب يتآمر ويخطّط ويسابق المسلمين، حتى سبقهم في عالم الأساطيل وصناعة الحرب، حتى عاد مرة أخرى مسيطراً، ووقف اللورد اللنبي في القدس (١٩١٧م) وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

هذه الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة أوروبا المسيحية (١٢٩١م) حينما حرَّر السلطان الأشرف آخر معاقل الصليبيين في عكّا، أي إنه بعد ستة قرون مازال الحقد قائماً، حتى حقَّق غايته وانتزع هذه الأرض مرة أخرى من أيدي المسلمين.

لقد وقفت أوروبا المسيحيّة في وجه الإسلام خلال أربعة عشر قرناً في محاولات متّصلة لتحول بينه وبين التوسُّع والامتداد، وفعلت من أجل ذلك الكثير، ولما لم تكن الحرب مُـجدية في إيقاف نمو الإسلام، وبعد أن حالفت التتار وغيرهم من العناصر، لجأت إلى حرب الكلمة، فأخذت تهاجم عقيدة المسلمين وكتابهم ولغتهم، في خطة طويلة المدى، وفي محاولةِ استقطاب بعض العناصر غير الإسلامية من أبناء الأوطان العربية وغيرها.

وبالرغم من أن المسلمين اتصفوا بالتسامح وحسن الجوار ـ كما أمرهم دينهم ـ فإن الغرب لم يعرف إلا الخديعة والمؤامرة.

وماتزال المعركة بين الإسلام والغرب ـ بعناصره السياسية والدينية ـ مستمرة لم تتوقَّف منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير، على النحو الذي وصفها به جمال الدين الأفغاني، وبما صوَّره كثير من كتَّاب الغرب الذين أشاروا إلى أنهم أُرضِعوا كراهية الإسلام مع لِبان أمهاتهم.

* * *

ـ ٢ ـ

لقد بزغ الإسلام في الجزيرة العربية والدولةُ الرومانية مسيطرة، قد اتَّسع نطاق ملكها وامتد حتى سيطر على ساحل البحر المتوسط؛ من جزيرة بيزنطة إلى سورية ومصر وأفريقية إلى إسبانيا، وهو سلطان امتدَّ ألف عام تقريباً من خلال حضارتَين هما اليونان والرومان، وفي صراع لم يتوقف مع فارس، وسقطت روما بعد بزوغ فجر المسيحيّة التي عبرت إلى أوروبا، واستطاعت أن تسيطر وتمتد قبل الإسلام بثلاثة قرون.

جاء الإسلام والدولة الرومانية الشرقية في أوج مجدها، ولم يلبث رسول الله ﷺ أن أرسل رسائله إلى ملوك الأرض، وفي مقدِّمتهم إمبراطور الروم، ليعلن للعالم أجمع بأن عصراً جديداً قد استعلن فجرُه، ولم يلبث المسلمون إلا قليلاً حتى جاوزوا حدود جزيرتهم في معركة مؤتة على حدود الدولة الرومانية، وكان ذلك علامة على وجهة الإسلام من بعد(١).

وسرعان ما زحفت قوى الإسلام نحو محورَين في وقت واحد: محور فارس ومحور الروم، وهو ما لم يحدث قبلُ في تاريخ الحروب، وسرعان

---

(١) قال هرقل ـ قيصر الروم ـ عندما جاءه خطاب النبي محمد ﷺ، وبعد أن لقي أبا سفيان، وسأل واستفسر عن الدعوة الإسلامية قال:
«وليملكنَّ هذا النبيُّ موضع قدمَـيّ هاتين».
وقد تلقَّى هرقل في السنة التاسعة في غزوة تبوك ـ والروم تتهيَّأ للانقضاض على المسلمين ـ كتاباً آخر، يخيّـره بين الإسلام أو الجزية أو السيف.

ما انهارت القوتان أمام إيمان المسلمين، واكتسح الإسلامُ في زحفه شرقاً وغرباً، لم يتوقَّف إلا حين وصل إلى حدود الصين، وعندما دخل أوروبا من أرض الأندلس إلى نهر اللوار.

ثم توقَّفت الجولة الأولى في خلال ثمانين عاماً على نحو أزعج أوروبا والغرب والمسيحية، بينما حرَّر شعوب هذه البلاد التي كانت ترزحُ تحت نَير روما وظلمها وقساوتها.

كانت دهشة الغرب بالغة، إذ أنَّ إمبراطوريتهم لم تتكون إلا في خلال ألف عام، ولكنهم نسوا أنَّ المسلمين كانوا يحملون معهم قوَّة معنوية لا سبيل إلى الوصول إليها إلا عن طريق هذا الدين القيّم، تلك هي الإيمان بالموت في سبيل الفكرة، وتقديم الروح خالصة رخيصة في سبيل الحق، تلك هي فريضة الجهاد الماضية إلى يوم القيامة.

هذا هو السر الذي أزعج مؤرّخي الغرب في البحث عنه.

والذين حاولوا بكل وسائل التضليل والكذب والخداع أن يفسّروه تفسيراً ماديّاً، ولو دروا لعرفوا ما ذكره أحد جنودهم:

«جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

ولقد تأكَّد بطلان مقولة: «إن الشام ومصر والمغرب كانت جزءاً من العالم المسيحي، وجاء الإسلام فأخرجهم منه». ذلك أن الوجود الروماني في هذه المناطق كان وجوداً دخيلاً، وكان احتلالاً، ثم انحسر مع ترحيب أهل هذه المناطق بالوافد الذي لم يشأ أن يفرض على الناس دينه وعقيدته، ولقد عادت هذه المناطق إلى أصلها بعد جلاء الرومان عنها، فقد كانت هذه المناطق تزخر بموجات عربية كاسحة، استمرّت أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الإسلام، وتوالت على هذه المناطق، وسَعَتْ للإسلام وللعروبة، وكان المسلمون الفاتحون يجدون بين المقيمين ذوي قربى ونسب.

* * *

ـ ٣ ـ

لقد كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية في موقع فريد بعيد عن صراع الإمبراطوريتين ـ الفارسية الوثنية والرومانية المسيحية ـ ذا دلالة عميقة على اختيار العرب لحمل هذه الرسالة الخاتمة التي جاءت للعالمين جميعاً، وعلى أنها جاءت على حين فترة من الرسالات السماوية لتصحّح الوجهة إلى التوحيد الخالص، وتكشف عن التحريف الذي وقع فيه بعض رؤساء الأديان، حين حوّلوا أديانهم عن الخطّ المرسوم للإسلام بوصفه الرسالة الأولى والأخيرة، من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، فهي كلها تسلم بعضها لبعض حتى تنتهي إلى ما جاء به النبي العربي الخاتم، وما قدَّمه القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية والمهيمن عليها.

هذا الموقع الفريد في قلب الجزيرة العربية التي أعلنت إيمانها برسالة التوحيد الخالص في حياة الرسول الكريم، كان منطلَقاً إلى تكوين هذه الدولة التي انزاحت إلى فارس والشام ومصر وأفريقيا، ثم امتدّت إلى الهند وما وراء النهر، ثم إلى طليطلة وبلنسية وقرطبة.

هذا الموقع الذي تميَّز بالثروة والعطاء، والمناخ المعتدل، والموانئ والخلجان التي تربط العالم كله، فهي قلب هذا العالم وسرَّة هذا الكوكب.

وقد شاء فضل الله تبارك وتعالى أن تعانق هذه الثروة أرض الحرم: مكة المكرمة وما حولها، حتى تقتتل الدول الغربية من أجل السيطرة عليها، وفي مصر جعل الله تبارك وتعالى أهلها من خير أجناد الأرض، فهُم في رباط إلى يوم القيامة.

ولقد كان موقع الجزيرة العربية بين قارّات العالم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) جعلها همزة وصل بين الأمم، وواسطة العقد بين الحضارات الأولى، والتقاء طرق التجارة القديمة فيها، من بحريّة وبريّة، حيث كانت الكعبة المشرّفة موضع تقدير جميع العرب لها، ثم أصبحت بعد الإسلام قبْلة

أنظارهم وأسماعهم في صلاتهم وفي حجّهم، وما يزال ذلك إلى يوم الدين.

ولقد كانت تعاليم الإسلام نفسها وترابطها مع شخصية الرسول ﷺ الذي حملها ولقَّنها عاملاً هامّاً في ثباتها وامتدادها، بعد أن أُلغيت عصبية القبيلة، وأقامت عصبية العقيدة بعدها.

وعلى حد تعبير الدكتور إبراهيم العدوي فقد تمَّت تنظيمات الرسول أثناء نشر الدعوة على مرحلَتين هامتين مترابطتَين:

الأولى: استهدف فيها الرسول نشر تعاليم الإسلام بما ينظم حياة الفرد في مكة للتخلُّص من قيود العصبية القبلية.

الثانية: عمل فيها الرسول الكريم بعد هجرته إلى المدينة على تنظيم جماعة المؤمنين فيها، لإعلاء شأن المجتمع الإسلامي الوليد، وإعداد أبنائه لحمل رسالة الإسلام إلى سائر أرجاء الأرض.

وقد أرسى الرسول الكريم في مكة القواعد الأساسية، وفق ما جاء في القرآن الكريم:

١ ـ الدعوة إلى وحدانية الله تبارك وتعالى.

٢ ـ تعزيز فكرة البعث والحساب بعد الموت.

٣ ـ اتخاذ (التقوى) بدلاً من العصبية القَبليّة أساساً لبناء قيم أخلاقية سامية، تتعدَّى مجالات القبيلة، وتتَّسع لتشمل العرب وجميع الأمم المجاورة لها.

٤ ـ التأكيد على وحدة الرسالات السماوية.

ومن هنا فإن الإسلام هو الذي نقل العرب من طور القبيلة إلى طور الأمة، ولم يكتفِ بذلك بل جعل هذه الأمة الجديدة قائدة للبشرية كلها، ترسم لها منهجها، وتصوغ لها مفاهيم حياتها، فالإسلام هو الذي منح العرب وجودهم القومي والسياسي والدولي، وقبل ذلك وأهم من ذلك

منحَهم وجودهم الإنساني، بعد أن كانوا همَلاً في التاريخ لا ذكْر لهم ولا أثر، وصدق الدكتور عبد القادر طاش الذي أورد هذا النص حين قال: «إن الإسلام هو الذي صنع وجود العرب، ، وجعلهم أمة ذات مكانة وسيادة، وذات رسالة وحضارة، ولم يكن مجرَّد عنصر من عناصر الوجود العربي، ولم يكن نتاج العبقرية العربية ـ كما يقولون ـ بل هو صانع تلك العبقرية وموجدها، ولا يمكن اعتبار الإسلام مجرَّد دين فردي، كما هو الحال في بعض النظم الدينية والطقوس الكهنوتية، التي شاعت في الغرب، فالإسلام يختلف عن غيره، فهو دين اتَّسع لكلّ جوانب الحياة في هذه البلاد واحتواها، فليس دين عبادة فحسب ولا من الماضي الذي اندثر».

* * *

ـ ٤ ـ

وعلى هذا المنهج الربَّاني الأصيل الذي رسمه القرآن وربَّى عليه محمد ﷺ أتباعه خلال ثلاثة عشر عاماً في بيت الأرقم في مكة المكرمة، في مرحلة من أقسى مراحل الاضطهاد والامتحان، ربَّاهم على الصمود والإيمان وبيع النفس خالصة لله تبارك وتعالى، حتى إذا انطلقوا بعد الهجرة إلى بناء المجتمع الإسلامي كان ذلك هو الرصيد الضخم الذي أنفقوا منه، خلال فتوحهم في الشام إلى حدود بيزنطة، وفي العراق إلى فارس، ثم إلى مصر وأفريقيا وعبوراً إلى الأندلس، كان العمل كله يجري على قاعدة أصيلة هي الإيمان بنصر الله بالعدد الأقل، والثبات في وجه الخطر، وحسن معاملة أهل البلاد المفتوحة، والتسامح مع الخصوم.

يقول الأب منشون في كتابه (رحلة دينية إلى المشرق): «إنه لمن المحزن لأمم المسيحية أن يتعلَّموا التسامح من المسلمين: لما غزا العرب الشام أوصى الخليفة الصدّيق بالنصارى خيراً في خطبته المشهورة، ولما دخل عمر القدسَ لم يسمح بإلحاق أي أذى بالمسيحيين، وترك كنائسهم في أيديهم،

وأحسن معاملة بطريركهم، وأبى أن يصلي داخل الكنيسة حتى لا يأتي المسلمون بعده فيدَّعوها، ويجعلوها مسجداً لهم».

وصدق روبرتسون حيث قال: «إن أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التمسُّك بالدين والتسامح فيه، أي إنها مع تمسّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله».

وقد اعترف بهذا التسامح السامي داربر الأمريكي في كتابه (الخلاف بين العلم والدين) يقول: «وكان النبي - ﷺ - يوصي بهم خيراً، كذلك الخليفة عمر، وكانت لهم عهود بحسن معاملتهم في عهد العباسيين، وضع هارون الرشيد دور العلم العامة تحت إشراف يوحنا بن ماسويه، وكان النساطرة المسيحيون يتقلّدون مناصب عالية في المملكة الإسلامية في مختلف أدوارها، وكانوا أحراراً في حضارتهم».

ويقول (هـ. ج. ولز) في كتابه (تجربة في التاريخ العالمي): «فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانيين أحراراً في ثقافتهم، وجاء الإسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية».

* * *

- ٥ -

ولقد حفظت سجلّات البردي العربية هذه الحقيقة، فقد عُثِر أخيراً على مجموعة من وثائق بالغة الأهمية في فتح المسلمين لمصر، أشار إليها (كاربا تشك) في مقدمة دليل البردي المصري - كما أوردت ذلك الدكتورة بنت الشاطئ - إلى ما عانت مصر تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد، وكيف شلَّ الفقر الطبيعة الشعبية، وكيف خلق الضغطُ الضريبي أزمات عنيفة، وقد كشفت هذه الوثائق أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرَّد غزاة، ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبي الجمال، وإنما كانوا محاربين منظَّمين أقوياء، يحملون أسلحة من الحديد والرصاص، ويقاتلون ببسالة في

سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص، وقد تحرَّرت مصر بهم من الضغط البيزنطي، ورحَّبت بأبناء الصحراء الذين نادوا بحريّة العقيدة، كما تشهد بذلك وثائق البردي عام (٦٤٢م/ آخر المحرم سنة ٢٤هـ).

وتشهد نصوص أخرى في عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حَموا دماء المصريين وأملاكهم، واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة عريقة.

وفي كتاب الأسقف يوحنا المعاصر لتاريخ الفتح اعترافٌ بأنَّ عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً من أملاك الكنيسة.

والمعروف أن المسلمين العرب حرَّروا مصر والشام وشمال أفريقية من نفوذ الدولة الرومانية الذي امتدَّ ألف عام منذ غزو الإسكندر الأكبر عام (٣٥٣ ق.م)، وقد اشترك العرب في الشام ومصر وشمال أفريقيا في الترحيب بالعرب وصدّ الروم البيزنطيين، لأنهم رأوا في الإسلام محرراً لهم من النفوذ الاستعماري، كما فتح قبط مصر أبوابهم لعمرو بن العاص الذي دعا البطريرك المسيحي المخْتفي إلى استئناف عمله في كنيسته في أمانٍ تام.

ومن بين الذين كتبوا في ذلك المؤرِّخ (بريستد) حيث يقول:

«إن المصريين قابلوا الفتح الإسلامي بالفرح، الذي جلب إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك الفتح بقرن من الزمان، فقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم حرية إقامة شعائرهم.

إن دخول الإسلام إلى مصر كان سفينة الخلاص للمسيحيين المصريين الذين عانوا على يد الرومان، فقد قرَّر الإسلام من المبادئ والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم، واحترام عقائدهم، والحفاظ على أموالهم، وحماية أعراضهم وأرواحهم. واعتبر أنَّ أيّ عدوان على مسيحي أو يهودي عدواناً على الإسلام، وانتهاكاً لحرمة القرآن.

كما تعهَّد المسيحيون بحماية مصر من أي غزو، وتوفير الأمن والطمأنينة لكل مواطن، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع، بعد ذلك الظلم الذي كان يعانيه شعب مصر قبل الفتح الإسلامي على يد جماعة البيزنطيين.

وقد كان الأقباط في هذه المعاهدة هم الطرف الرابع؛ ذلك أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح، وقد أُعفي منها النساء والرهبان والأطفال وكبار السنّ، فهي ضريبة دفاعية، ولم تكن سبباً دافعاً إلى الإسلام، لأن الرجل إذا أسلم يدفع أضعاف هذه الجزية زكاةً مفروضة على كل أنواع ثروته وماله.

وقد انبهر الناس بهذه العقيدة الجديدة، ، فاعتنقوا الإسلام جميعاً عدا قلّة قليلة بقيت على دينها القديم.

وهكذا نرى كيف أنقذ الإسلام المصريين من اضطهاد الرومان، رغم وحدة الدين بحجّة اختلاف المذهب، فأصبح القبط مواطنين لهم كل الحقوق المشروعة في المجتمع الإسلامي الجديد، وفي عهد عمرو بن العاص الفاتح والحاكم الأول تنفَّس أقباط مصر الصُّعداء، وعكفوا على ترميم ما ضعف من أمور عقيدتهم وكنائسهم، وإزالة الأسماء اللاتينية والإغريقية من قراهم ونواحيهم، ليحلّوا بدلاً منها أسماء قبطية صرفة».



- ٦ -

ولم يتوقَّف ذلك عند مصر وحدها، فقد حرَّر الإسلام من ظلم الرومان سوريةَ وأفريقية، فإذا كان في مصر قد أعطى الحاكمُ المسلم قبطَ مصر حرية العقيدة، وأعطاهم أماناً لكنائسهم وعبادتهم، ففي سورية أزال عنهم كابوس الحكم الروماني، وفي أفريقية حرَّر الفتح الإسلامي البربر وسكَّان أفريقيا من الرومان، ولما فتحوا الأندلس فتحوا جامعاتهم لكل الناس من مختلف

العناصر والأديان، ولم يحجبوا عنهم العلم، ولما انتصر القشتاليون في معركة (بواتيه) على المسلمين، كان ذلك انتصاراً للجهل على العلم، وتأخَّر مسير الحضارة ثمانية قرون.

* * *

ـ٧ـ

ذلك أن الحضارة الإسلامية حملت لواء المعرفة الإنسانية في كل منحى من مناحي الحياة؛ العلمية والفكرية (النظرية والتطبيق) ولما كانت المعرفة بأيدي المسلمين كانت تنطلق من المنظور الإسلامي الصحيح، المبني على الإيمان بالله تبارك وتعالى، وبوحدانية هذا الخالق العظيم، وبقدرته على إبداع هذا الخلق، وعلى رعايته لهذه الدنيا، فكانت تنطلقُ من تصوّرات صحيحة وعن قواعد فكرية صحيحة، تنطلق من إيمانها بوحدة الجنس البشري «كلّكم لآدم وآدم من تراب»، كما علّمنا رسول الله ﷺ.

فلم ترَ عيباً ولا حرجاً في أن تأخذ من الحضارات المجاورة في قول رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقّ الناس بها» ـ فأخذت الحضارة الإسلامية من الحضارات.

وقد ظلَّت المعرفة بأيدي إسلامية أطول فترة عرفتها البشرية على الإطلاق، فقد ظلَّت أحد عشر قرناً كاملاً (بينما لم تعمّر الحضارة الرومانية أكثر من خمسمئة سنة، والإغريقية أكثر من ألف سنة).

وقد حملت لواء المعركة في كل مناحي الحياة ـ على حد تعبير الدكتور زغلول النجار ـ، فأينما نقلّب الأمور نجد أن عطاء الإسلام كان عطاءً جزيلاً ضخماً، وكان هذا هو سرّ الاقتحام الشديد الذي اقتحم به هذا الكوكب، واستطاع في أقل من قرن أن يبسط نفوذه على هذه المنطقة خلال فترة العصور المظلمة لأوروبا.

* * *

فإذا ذهبت تقارن بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية الرومانية وجدت عجباً، يقول الدكتور ليوبولد فابس (محمد أسد) :

أ ـ «سلخت الإمبراطورية الرومانية ألف عام من الزمان حتى نمت واتسعت وبلغت نضجها السياسي ـ في حين أن الإمبراطورية الإسلامية تكوَّنت في ثمانين عاماً ـ كذلك فقد تمَّ سقوط الإمبراطورية الرومانية وانهيارها بصورة تامة على يد الهون والقوط خلال قرن واحد، ولم يبقَ منها سوى بضعة معالم من الأدب والبناء.

أما الإمبراطورية الإسلامية فقد استشرى فيها الانحلال البطيء الذي استغرق أكثر من ألف عام، ولم يتمّ الانهيار السياسي نهائياً، الذي يتمثَّل في إلغاء الخلافة العثمانية، والتفكُّك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الإسلامي إلا بعد سلسلة طويلة من المؤامرات الدولية.

إن التماسك الاجتماعي في العالم الإسلامي أرقى من أي شيء عرفه الإنسان عن طريق التنظيم الاجتماعي، ويرجع ذلك دون ريب إلى تعاليم القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلى سنَّة النبي الكريم ﷺ.

ب ـ الفكرة التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية هي استغلال الشعوب المغلوبة لمصلحة روما، والترفيه عن الأباطرة.

لم يرَ الرومان في بطشهم بالناس أنّهم سواء، ولم يكن العدل الروماني الذي يتغنَّون به إلا إنصاف الرومان وحدهم.

أما في حالة الإمبراطورية الإسلامية فقد كان الهدف ضمان حرية الاختيار في ظلّ المبدأ الإسلامي : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾.

ولم يكن هناك استغلال شعب من أجل الترفيه عن شعب آخر، وإنما

كان الشعار السائد: (لكم ما لنا وعليكم ما علينا).

والتاريخ الصادق شاهدٌ على أمثلة عديدة لتأديب أمير المؤمنين للولاة الذين تحومُ حولهم شبهة الكسب غير المشروع أو إيذاء غير المسلمين، وكان المسلمون يتذكَّرون جيداً قول نبيهم ﷺ:

«من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة».

* * *

- ٩ -

انطلق الإسلام بهذه القيم كلها فانفتح أمامه الطريق بعد أن عاقته مظالم الإمبراطوريات الفارسية والرومانية والفرعونية جميعاً، انطلق إلى غايته التي أعدَّه لها صاحب الدعوة: الحق تبارك وتعالى، ويُصوِّر هذا أحسن تصوير الدكتور حسين مؤنس؛ فيقول:

«ظهر الإسلام والعالم يومئذٍ شعوبٌ وقبائل متراصَّة، بعضها إلى جوار بعض، بدأ الإسلام بالعربي فحطَّ من غروره، وهبط به إلى مستوى عباد الله الذين يمشون على الأرض هوناً، وأفهمه أنه لا يمتاز على غيره إلا بالإيمان والأخلاق والعلم، فاندفع في فتوحه الكبرى، فهدم حائط الساسانيين الهائل في سلسلة من الوقائع الضارية من كاظمة إلى نهاوند، وهي فتح الفتوح، وذهب أمر بني ساسان ومرازبتهم، وزال الحاجز الإيراني وعالم الشرّ، ودخل الإيراني في الإسلام، والتقى مع العربي في بساط الولاء والعهد والمودّة والإسلام، ثم جاء قتيبة بن مسلم الباهلي العظيم وهدم الحائط الذي يحول بين الأتراك والإيرانيين، وزلزلَ كبرياء زنبل، فانساح العرب والإيرانيون وجمعهم الإسلام في أسرته الواسعة، ثم نهض العرب والإيرانيون والأتراك وأزالوا الحواجز التي كانت أمم المغول تتستّر من ورائها ويدخلونهم في الإسلام، واجتمع الأربعة بعد ذلك فهدموا سور الجبن والاستعلاء الذي كان أهل الصين قد أداروه على أنفسهم، ودخل

قتيبة ورجاله مدينة (كاشغر) وضربوا خيامهم على ضفاف نهر (تاريم) وسط سلاسل من الجبال كأنها الرواسي الشاهقات.

وتهدَّمت الأسوار التي كان يعيش وراءها أهل الشام والعراق ومصر، وهبَّت عليهم مع الإسلام نَسمات العدل والإخاء، فأخذوا ينتسبون إلى أمة العروبة والإسلام، ثم سار العرب في بأس شديد ودخلوا في معارك طاحنة مع البربر دامت سبعين سنة وصل فيها العرب إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأدخلوا أمم البربر جميعاً في أسرة العروبة والإسلام، واجتمع العرب والبربر وعبروا إلى الأندلس، فأدخلوا شعبها الإيبيري الأوروبي في أسرتهم، وأصبح مضيق جبل طارق مجرَّد ممرّ مائي داخل عالم الإسلام الشاسع، بعد أن كان حاجزاً بين قارتين وعالَمين، وفعل المسلمون ذلك بجبال البرت وهي (البرانس) الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا، وأصبحت هذه أيضاً مجرَّد مرتفعات داخل دار الإسلام.

وهكذا أتمَّ الإسلام مرحلة كبرى من رسالته وهي إزالة الحواجز بين البشر، وتحقيق التعارف بين الشعوب والقبائل، الذي بشَّر به القرآن، واجتمعت هذه الشعوب كلها على إقامة صرح حضاري إسلامي واحد، تعاونوا على بنائه وإعلائه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

- ١٠ -

من مكة المكرّمة بدأت الجولة:

وفي مكة المكرّمة - سرَّة الأرض وقلب العالم - نزلت رسالة التوحيد الخاتمة على محمد بن عبد الله في غار حراء، وفي خلال ثلاثة عشر عاماً في بيت الأرقم بن الأرقم أعدَّت الكتائب التي هاجرت إلى يثرب، فأنَشأت الدولة

الإسلامية الأولى، ومنها بدأت الفتوحات (بدر ـ أحد ـ الخندق) التي كانت تمهّد لفتح مكة، بعد صلح الحديبية وعمرة القضاء.

وفي العام السادس وجّه رسول الله ﷺ رسائله إلى الملوك، وكانت رسالة النبي إلى هرقل عظيم الروم.

ولم يلبث أن أنزلت آيات محكمات: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. كان ذلك إشارة إلى الوجهة.

كانت القدس تحت سيطرة الروم، وكان المسلمون يعرفون أن الخطر كامن في هذه الناحية، و كانت غزوتا مؤتة وتبوك في عامَين متواليين[١]، ثم كان بعث أسامة، الذي كان بغرسِ لوائه أمام مسجد النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى بقليل.

وكان إنفاذ بعث أسامة هو أول أعمال الصديق بعد تولّيه الخلافة عام ١١ هـ، إنفاذاً لأمر رسول الله ﷺ.

وتوالت الفتوح: أجنادين، اليرموك (عام ١٣ هـ)، بيسان، طبرية وفتح دمشق (عام ١٤ هـ)، فتح بيت المقدس صلحاً (عام ١٥ هـ)، وعند جبال طوروس كان اللقاء بين الإسلام والروم.

هذه مرحلة المقاومة الإسلامية طوال العهد الأموي والعباسي، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد تفسَّخت حضارياً واقتصادياً، وانقسمت إلى غربية وشرقية؛ إلى روما والقسطنطينية.

واستمرَّت المعارك سجالاً وجرت محاولات المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية حتى ردَّ المحاربين عمرُ بن عبد العزيز.

وفي العصر العباسي توالت غارات البيزنطيين على أرض الإسلام،

---

(١) غزوة مؤتة: عام ٨هـ، غزوة تبوك: عام ٩هـ.

حتى طلب الإمبراطور قسطنطين الخامس الصلح على أن يؤدّي للخليفة العباسي جزية سنوية.

وعاش الأمل في الاستيلاء على القسطنطينية ثمانية قرون، منذ الحصار الأول (٥٢هـ/ ٦٧٢م) حتى جاء الفتح بقيادة السلطان محمد الفاتح (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، وأصبحت إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية.

ومن إستانبول توغَّل المسلمون إلى شرق أوروبا ووسطها، حتى وصلوا إلى أسوار فينّا.

أما من الناحية الأخرى فقد تقدَّم المسلمون (العرب والبربر) من المغرب حتى عبروا جبال (البرانس)، وسجَّلوا انتصارات حاسمة (٩٢هـ/ ٧١١م) ودخلت الأندلس في الإسلام، وبقي فيها حتى سقوط غرناطة: آخر معاقل الإسلام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م).

لقد خاض المسلمون حروباً امتدَّت شرقاً إلى أطراف الصين، وشمالاً حتى القسطنطينية، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وعبرت جبال طارق حتى وصلت سهول فرنسا الجنوبية، كما وصلت إلى السند وإلى ما وراء النهر.

* * *

ـ ١١ ـ

فإذا نظرت إلى هذه الأمة الإسلامية ـ القارة الوسطى ـ لوجدتَ أنَّ الدول المكوّنة لها في آسيا وأفريقيا ـ على حدّ قول الدكتورة نازلي معوّض أحمد ـ تشكّل كتلة جغرافية على درجةٍ هائلة من الأهمية الاستراتيجية، فهي كتلة تقع في قلب العالم الإسلامي، وتخترق أراضيها مجموعة بحارِ خطوطِ الملاحة العالمية، فالعالم الإسلامي نقطة التقاءٍ ووصْلٍ بين الشرق والغرب، ومن ثمَّ فهو مركز رئيسي في حركة المواصلات العالمية، بكل ما يعني ذلك من انعكاسات خطيرة اقتصادياً واستراتيجياً، حيث يضمّ أهمّ مجموعةِ

مضايق في العالم:

١ ـ مضيق جبل طارق، حيث يتّصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطي الشمالي.

٢ ـ مضيق باب المندب، حيث همزة الاتصال بين البحر الأحمر والمحيط الهندي.

٣ ـ مضيق البسفور والدردنيل، حيث الاتصال بني البحرَين؛ الأسود والأبيض.

٤ ـ مضيق ملقا بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة، حيث نقطة الوصل بين المحيط الهادي والمحيط الهندي.

٥ ـ ثمّ مضيق هرمز الاستراتيجي في الخليج العربي.

هذه المجموعة من المضايق تتحكَّم في طرق نقل التجارة العالمية، مما يشكّل أهمية اقتصادية بالغة الخطورة لكل النطاق الإسلامي.

وتقع بين ظهراني الكتلة الإسلامية مجموعة من المسطَّحات المائية الخطيرة الأثر، التي تمثّل في مجموعها المحاور الاستراتيجية العالمية، فالبحر المتوسّط هو أحد محاور الصراعات الدولية بين القوى الكبرى في العالم المعاصر، ويدخل المتوسط كعنصر أساسي في نطاق التخطيط الاستراتيجي لسائر تلك القوى بلا استثناء، فالمتوسط هو أحد الطرق المائية التي توصل ـ عبر قناة السويس ـ إلى المصادر الرئيسة للطاقة البترولية في العالم، كذلك فإنه يمثل حِزاماً للأمن الأوروبي، فضلاً عن أنه حزام أوّلي للأمن القومي العربي بصفة عامة.

والبحر الأحمر لا يقلّ في أهميته الاستراتيجية عن البحر المتوسط، لأنه يمثّل موقعاً متوسّطاً بين القارّات، وهو أهم مناطق مرور السلع الاستراتيجية الأولى في هذا، والوصول إلى قلب الخليج العربي موطن منابع النفط.

وهناك الخليج العربي بكل ما له من أهمية عالمية في نطاق مجموعة

المَمرَّات المائية التي تقع في أراضي العالم الإسلامي، فالخليج العربي بالذات هو قلب العالم الإسلامي ككلّ، ومن يتحكّم في هذا القلب يتحكّم في العالم الإسلامي.

* * *

- ١٢ -

كانت الفتوحات الإسلامية نموذجاً رائعاً للعسكرية الإسلامية التي حقَّقت إنجازات رائعة في مجال الصراع بين المسلمين وأعدائهم، ومن ذلك ما أصبح من حقائق التاريخ التي لا تُنازَع، وقد عدَّد هذه الحقائق اللواء محمد جمال الدين محفوظ في العناصر الآتية:

١ ـ تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية، وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكي تؤدي رسالتها السامية لخير البشرية.

٢ ـ امتداد الفتوحات الإسلامية في أقل من مئة عام من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

٣ ـ تمكّن الأمة الإسلامية (الناشئة) من إدارة دفَّة الحرب في جهتين عظيمتين في وقت واحد؛ في مواجهة أعظم قوّتين عالميتين في ذلك الوقت، وهما فارس وبيزنطة، والانتصار عليهما، وذلك مَثَلٌ فريد في التاريخ الحربي لم تبلغه أقوى الأمم.

٤ ـ إتقان العرب ـ وهم أبناء الصحراء ـ ركوب الأساطيل والحرب البحرية، وتغلُّبهم على أسطول بيزنطة، وهو أعظم قوة بحرية في زمانهم، حتى يقول عنهم ابن خلدون:

«إن المسلمين تغلَّبوا على لجَّـة بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط ـ وإن أساطيلهم سارت فيه جائيةً وذاهبة من صقلية إلى تونس، والرومان والفرنجة جميعاً تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية، ولا تحاول الدنوّ من

أساطيل المسلمين، التي ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته».

٥ ـ فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها العبقرية لخير البشرية، في ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية، فأصبح العرب ـ بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة ـ قادةً للحضارة العالمية، فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر: جابر بن حيّان في الكيمياء، وابن الهيثم في الطبيعيّات، وأبو بكر الرازي في الطب، وابن سينا في الطب كذلك والفلسفة، والغزالي في الجانب الروحي، وابن رشد في الفلسفة العقلية، وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ، والخوارزمي في الرياضيات، وعشرات غيرهم.

فالعسكرية الإسلامية إذن تمثّل جانباً أساسياً ورائداً من الحضارة الإسلامية ومن الحضارة الإنسانية بالتالي، ولولا جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد في سبيل الله، لتغيَّر وجه التاريخ، ولتخلّفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور.

* * *

ويقول الدكتور جمال حمّاد: «إن هذه الانتصارات المجيدة التي وصل بها العرب إلى تخوم الهند والصين شرقاً، وإلى نهر اللوار في فرنسا غرباً ـ في قرابة مئة عام ـ ترجع إلى عدة عوامل أساسية: منها قوّة إيمان العرب، واضطرام حماستهم.

غير أنَّ الإيمان والحماسة رغم أهميتهما في إحراز النصر لا يثبتان وحدهما في حرب طويلة الآن أمام جيوش قوية مدرَّبة، ولذا فإنَّ الإنصاف يقتضي أن نضيف إلى قائمة العوامل التي أدَّت إلى النصر ذلك العامل الحيويّ، وهو تفوّق العرب على أعدائهم من ناحية الفنّ العسكري والتكتيك الحربي.

وكان هذا راجعاً إلى مهارة قادة المسلمين في القيادة ورسم الخطط، وإتقانهم فن تحريك القوات، ومقدرتهم العظمى في تدبير الوسائل اللازمة

لإعاشة أقوامهم في مختلف الميادين، ثم لاتباعهم الأساليب التكتيكية التي تلائم طبيعة قواتهم وتدريبها.

ويمكن القول: إنَّ العرب قد اتَّبعوا ميادين الحرب المعروفة حالياً في معظم عمليّاتهم الحربية، وطبّقوا الأساليب التكتيكية السليمة في معاركهم بوحي من العبقرية والإلهام، قبل معرفة هذه المبادئ والأساليب، وتطبيقها بالطرق العلمية الحديثة بعشرات القرون، وقد تميَّزوا باتباع مبدأين من مبادئ الحرب، كانا السبب الأول في ذلك النجاح الباهر الذي أحرزوه في ساحات القتال؛ وهما خفّة الحركة والمفاجأة (مثلاً ما فعله خالد بن الوليد في قطع البادية المقفِرة من العراق إلى الشام) ويُضاف إلى ذلك ميزة الاقتصاد في القوة.

ولقد كان قادة المسلمين في جميع معاركهم مثالاً للبطولة والفداء، وكان رائدهم ومعلّمهم هو الرسول، فكان محمد بن عبد الله ﷺ المثَل الأعلى في بطولة الجهاد، ورمز عظمة الخلُق والفكر والإيمان.

ويزيد من عظمة هؤلاء القوّاد الأبطال أنهم لم يتلقَّوا فنون الحرب في معهد حربي، بل إنَّ مدرستهم كانت البادية وحدها، وكانت لهم مواهب جبَّارة وذكاء فطري خارق؛ من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، والمثنّى بن حارثة، وطارق بن زياد، وعقبة بن نافع، وصلاح الدين الأيوبي» اهـ.

ولا ريب أن الرعْب الذي زلْزلَ كيان الأكاسرة والقياصرة لم يكن مصدره كثْرة العدد أو العدّة لدى المسلمين، بقدر ما كان إظهار الاعتزاز بالله تبارك وتعالى، والتوكّل عليه والاطمئنان له، مما أغراهم بالاستشهاد، وحثّهم على استعجال لقائه وزهّدهم في كل شيء من أجل رضاه تبارك وتعالى.

* * *

ولا ريب أن الرعْب الذي زلْزلَ كيان الأكاسرة والقياصرة لم يكن مصدره كثْرة العدد أو العدّة لدى المسلمين، بقدر ما كان إظهار الاعتزاز بالله تبارك وتعالى، والتوكّل عليه والاطمئنان له، مما أغراهم بالاستشهاد، وحثّهم على استعجال لقائه وزهّدهم في كل شيء من أجل رضاه تبارك وتعالى.

* * *

ـ ١٣ ـ

ويدفعنا هذا إلى الحديث عن القوى البحرية الإسلامية، ولا بأس أن نأخذ بعض ما أورده المستشرق برنارد لويس في بحثه عن القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط:

«أحالت الإمبراطورية الرومانية البحر المتوسط بحيرةً رومانيةً لمدّة ستة قرون، حتى ظهر الأسطول الإسلامي منافساً ومنتصراً حتى القرن السادس عشر.

وكان العرب الفاتحون رجال حرب في البرّ، ثم كان أول من فكّر في إنشاء قوة بحرية هو معاوية بن أبي سفيان، حتى إذا ما جاء عبد الملك بن مروان أقام قاعدة بحرية في قرطاجة، وقوّى الأسطول الإسلامي حتى عبرَ البحر إلى الأندلس فاحتلّها.

وكان لسقوط صقلّية بأيدي المسلمين (عام ٨٢٧م) رجّة في الغرب، لأن المسلمين بعدها سيطروا على البحر المتوسط، وحصروا البيزنطيين والأوروبيين في البحار الضيّقة؛ كما كان من نتائج احتلال المسلمين لصقلية أن زادت مواردهم من الحديد والأخشاب، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد عرفوا النار اليونانية.

ولم تكن قوتهم البحرية موحّدة، وكانت هناك ثلاث قوى: الأندلس

في الغرب ـ صقلية وتونس في الوسط ـ سورية ومصر . . . في الشرق، وما أن حلَّ القرن العاشر حتى كانت السيطرة الإسلامية قد زالت من شرق البحر المتوسط، ولكنها بقيت في غرْبه حتى منتصف القرن الحادي عشر، عندما انتزع الغرب من المسلمين صقلّية وجزر البليار.

ولكن لم تلبث أن ظهرت دولة المرابطين والموحِّدين، اللتَين أعادتا للأندلس والمغرب مجدَهما القديم؛ كما تمكّن صلاح الدين من الانتصار على الصليبيّين، وطردهم ووحّد الشام ومصر؛ وبعد أربعة قرون استطاع الإسلام أن يبرز من جديد قويّاً مسيطراً في حوض البحر المتوسّط، وذلك على أيدي الأتراك العثمانيين».

* * *

ـ ١٤ ـ

وامتلك المسلمون منافذ التجارة برّاً وبحراً، وكان الخليج العربي واسطة العقد في نقل التجارة بين جزءين هامين من العالم المتحضّر؛ هي الهند وبلدان الوطن العربي المحيطة بالخليج، وكلّما ازداد علْم المسلمين بالبحار طالت رحلاتهم البحريّة، فوَصلت إلى شواطئ بعيدة، وما لبث أن وصل تجّار الخليج العربي إلى شواطئ الصين الشرقية.

وكان منْفَذ بغداد إلى العالم نهر دجلة، فَشطّ العرب، فالخليج العربي، وقد عمل خلفاء بني العباس على تشجيع التجارة على هذا الطريق البحري المهمّ.

أمّا الجاليات التجارية العربية فقد تعدّت في العصر العباسي حدود بلاد الهند، وبلغت الصين وكوريا، وعرف أهالي ميناء خانفو في الصين هؤلاء العرب كتجّارٍ مسلمين، إذ قامت هناك جالية كبيرة منهم، كان لهم قاضٍ مسلم يحكم بينهم.

وقد أقام تجّار العرب في جزيرة سيلان جنوبي الهند منذ عام (٨٠هـ).

كذلك فإن المسلمين قد سبقوا الأوروبيّين إلى التفكير في كشف أمريكا، وحاولوا الوصول إليها مرّتين بالفعل، الأولى من لشبونة، والأخرى من غانة في السودان الغربي على ساحل المحيط الأطلنطي.

وكان المسلمون هم أول من اقتحم بحر الظلمات، وقد أشار الشريف الإدريسي إلى ثمانية من الشبان المغربيّين الأندلسيّين، الذين أبحروا انطلاقاً من شواطئ الأندلس الغربيّة ـ في القرن الرابع الهجري ـ آملين اكتشاف بحر الظلمات.

وكان تخيّلهم لها يقوم على تصوّر علمي هو أفضل من الخطّة التي اتّبعَها كرستوف كولمبس، فإنه لم يكتشفها إلا بطريق الصدفة.

وقال منزلر: إن العرب المسلمين قاموا برحلات متعدّدة قبل البرتغاليين لاكتشاف سواحل أفريقيا الغربية، وكتب ابن الفضل العمري رسالَتين وصَف فيهما وصفاً مفصّلاً حملتَين بحريتين وجّههما ملك غينيا (محمد جاد) لاكتشاف الساحل الواقع غربي المحيط الأطلسي.

قال الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق): «إن الفتية المغربيين خرجوا من مدينة لشبونة إلى بحر الظلمات، فقد اجتمعوا ثمانية رجال كلّهم أبناء عمّ، فأنشؤوا مركباً ضخماً، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثمّ دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية، فجَرَوا فيه نحواً من أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج، ، كدِر الروائح، كثير القروش، قليل الضوء، فأيقنوا بالتلَف، فردوا إقلاعهم في اليد الأخرى، وجرَوا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ووجدوا عمارة وحرثاً، فقصدوا، فأحيط بهم في زوارق هناك، فأُخذوا وحملوا من مركبهم إلى المدينة على ضفة البحر، فاعتُقلوا في بيتٍ ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم مترجم يتكلّم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم، ثم حُملوا إلى الملك، ثم حُرفوا إلى موضع حَبْسهم إلى أن بدا جرْي

الريح الغزبيّة، فعُمرَ بهم زورق وعصبت أعينهم، وجُري بهم في البحر برهة من الدهر، قال قوم: قدرنا أنه جُري بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جيء بنا إلى البحر، فأُخرجنا وكُتِّفنا إلى خلف، وتُركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الإكتاف، حتى سمعْنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحْنا بأجمعنا، فأقبل القوم إلينا فحلّوا أوثاقنا، وسألونا فأخبرناهم، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم: واأسفى. فسمِّي المكان إلى اليوم (آسفى) وهو المرسى الذي في أقصى المغرب.

* * *

وقد أشار شيخ العروبة أحمد زكي باشا إلى أن هناك محاولتين قام بهما التجّار المسلمون، ذُكرتْ إحداهما في كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، كما ورد ذكر المحاولة الثانية في كتاب (مسالك الإبصار) لابن فضل الله العمري، و(صبْح الأعشى) للقلقشندي.

الأولى على نحو ما ذكرنا، حدثت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) من ثغر لشبونة ـ أي قبل مغامرة كولمبس بنحو خمسة قرون ـ امتدت خمسة وثلاثين يوماً، حتى رسوا على شاطئ مَسْكُون، فاعتقلهم بعضُ الناس، ثم خلّوا سبيلهم وأعادوهم إلى سفينتهم، فعادوا إلى وطنهم حيث قصّوا مشاهداتهم، وقد استدل المتخصّصون الجغرافيون أن هؤلاء الفتية المغربيّين ـ كما سماهم الشريف الإدريسي ـ قد أدركوا إحدى جزائر (برمودا) أو الأنتيل أو إحدى موانئ المكسيك.

أما المحاولة الثانية فقد أقدم عليها مسلمو غرب أفريقيا في نحو القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) عندما زوّد السلطان (محمد جاد) سلطان غانة بضع مئات من سُفُنه بالزاد والماء، وكلّف رجاله أن يضربوا في عرض المحيط غرباً حتى يدركوا نهايته، فغابت السفن زمناً طويلاً ثم عادت

إحداها أخيراً، فقصَّ ربّانُها ما لقيَ في رحلته الشاقّة من أهوال البحر، إلا أنَّ السلطان أبى أن تبوء فكرته بالفشل، فأعدّ سُفناً أُخرى أبحرَ على رأسها بنفسه، ولم يلبث أن انقطعت أخبار تلك الرحلة الجريئة، ولم يُعرف شيء عن مصيرها.

وقد قام الأب أنستاس الكرملي بدراسة مفردات لغات المكسيكيّين القدامى، وخاصّة أسماء الحيوانات والنباتات بما يقابلها في اللغة العربية، وأثبت الصلة بينها، وخلصَ من تلك الدراسة (ألقاها في دمشق ١٩٤٤م) أنَّ همم العرب قد قذفت ببعض ملّاحيهم المغامرين إلى تلك البقاع منذ أزمان قديمة، وأنهم كانوا يبحرون إليها من بعض جزر بحر المانش التي كانوا يتعاملون معها مستعينين في إبحارهم بتيّار الخليج، الذي يُشاع أنّه لم يُكتشف قبل أوائل القرن السادس عشر، وقد تركوا أثراً ظاهراً في حضارة تلك البلاد.

* * *

ويرتبط بهذا الدور الخطير الذي قام به (ابن ماجد) أسد البحر الهائج شهاب الدين أحمد، الذي هدى فاسكو دي جاما إلى مهمته، وأعانه في بلوغ شواطئ الهند، وكان جدّ (ابن ماجد) قد كتب رسالة عن (الملاحة في البحر الأحمر) خدْمةً للسفن التي تنقل الحجَّاج، وزاد عليها والد ابن ماجد وأضاف نتائج اختباراته، وقد اعترف المنصفون من علماء الفرنجة بفضل العرب، ولا سيما ابن ماجد على الملاحة البرتغالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين:

قال الأستاذ فران الإفرنسي: «إن الفضل في تفوّق الملاحة البرتغالية يعود إلى العرب».

وقد ترجم هذا الباحث الفرنسي مؤلَّفات ابن ماجد تحت عنوان: (مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج، ربَّان فاسكو دي جاما الذي طاف حول الأرض).

وقد استعان دي جاما بابن ماجد في تسيير أسطوله حول الأرض من مالندي على ساحل أفريقيا الشرقية إلى قاليقوت في الهند.

وله كتاب (الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد).

يتضمَّن معرفة طرق سير السفن في البحر، بمعرفة منازل القمر ومهبّ الرياح، ومعرفة القبلة، وكيفيّة الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التي يقصدها المسافر، وقد اتخذ ابن ماجد (بنات نعش وسُهَيْلاً والناقة والحمارَين والعيون والعقرب، والنسر الواقع، والإكليل والسماكين والثور) من جملة الأدلة التي تساعد المسافر في الأسفار، وقال: إنه علم ذلك بالاختبار، واعترف بأن ثلاثة من مشهوري الرُّبّانيين سبقوه إلى ذلك، وأن الفرق بينه وبينهم أن ما ذكره هو مصحَّح مجرّب، وعرض لبعض الثغور التي على الأقيانوس الهندي والبحر الصيني، وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربية، والجزر العشر الكبرى، ووصف البحر الأحمر ومراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفيّة.

وفي رسالته (حاوية الاختصار في علم البحار) وصف العلاقات التي يجب على الرُّبّانيين معرفتها استدلالاً على قرب البر، وفي منازل القمر ومهابّ الريح، وفي السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية، وفي طريق السفن على السواحل العربية والحجاز وسيام، وشبه جزيرة ملقا وأطراف بلاد الزنوج، وعلى سواحل الهند الغربية، وسواحل القمر ومندل، والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون، وجاوه، والصين وفرموزه، وفي سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والغال ومدغشقر، واليمن والحبشة، والصومال وجنوبي الجزيرة العربية والمقران، وفي المساحات بين الثغور العربية والثغور الهندية، وفي عرض الثغور على البحر الهندي: يقول في كتاب الفوائد: «اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسباباً كثيرة، فأولها معرفة الشمس والقمر والأرياح ومواسمها، وآلات السفينة، وينبغي أن

تعرف مطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها، وينبغي أن تعرف جميع البرور وإشاراتها، كالطين والحشيش، ومدّ البحر وجزره، وينبغي للمعلّم أن يعرف الصبْـر من التواني، ويفرّق بين العجلة والحركة، والحذر كل الحذر من صاحب السكّان لا يغفل عنه؛ وما صنعتُ هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسون سنة، وما تركت فيها صاحب السكّان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامي».

وكتب المؤرّخ البريطاني في كستانهبدا يصف إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي جاما إلى طريق الهند، قال:

«وصل فاسكو دي جاما إلى مالندي (على الساحل الشرقي من أفريقيا شمال مدغشقر) في ١٥ مارس ١٤٩٨م، وأرسى في فرضتها، فصعد إلى سفينته مسلمون، منهم مسلم اسمه أحمد بن ماجد أحبَّ أن ينعم برفقته (دي جاما) وبحارته، ورضي أن يذهب معهم فيدلّهم على طريق الهند.

وكان (دي جاما) قد دهش لسعة علم الملّاح المسلم عندما أراه خريطة الساحل الهندي كلّه، وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل، ثم دعا (دي جاما) الملّاح المسلم ليشاهد الاسطرلاب الكبير الذي كان يحمله على سفينته وآلات فلكية أخرى، فلم يعجب المسلم لما رأى، وأنبأ (دي جاما) أنَّ للملاحين العرب في البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة على غير مثال، ثم أطلعه على آلة له مؤلَّفة من ثلاث لوحات، فلما عرف (دي جاما) قيمة هذا الكنز الذي ظفر به أحبَّ الاحتفاظ بهذا المعلّم المسلم، وأقلع متوجّهاً إلى الهند في ٢٤ أبريل، فجاز الخليج الكبير، وطوله ٦٠٠ فرسخاً في ٢٢ يوماً دون أن يلقى في طريقه أي عقبة أو مشقّة»[1].

* * *

(١) من بحث للدكتور قدري حافظ طوقان، مجلّة العربي.

مـلاحـق البحـث

١ ـ عندما سأل شاهنشاه الفرس المسلمين عمّا جاء بهم إلى بلاده من الجزيرة العربية قال ربعي بن عامر: «إن الله قد ابتعثنا لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

٢ ـ جاءت الهجرة من الجزيرة العربية قبل الإسلام، اتجهت إلى شمال الجزيرة وأطراف الهلال الخصيب على موجات متتالية، منها ما اتجه نحو بلاد الرافدين، وخاصّة نحو نهر الفرات، ومنها ما استقر في فلسطين وسوريا ولبنان، ومنها من اتجه غرباً نحو طور سيناء والنيل.

ومن هنا فإن تسْمية هذه الحضارة بالسّامية خطأ، إنما هي حضارة عربية في منبعها، ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب، وقد ازدهرت في وادي الرافدين، فاستقرّت فيه أكثر من ألفي سنة.

٣ ـ كان استقبال الشعوب للمسلمين الفاتحين استقبالاً يجلّ عن الوصف في مصر والشام وشمال أفريقيا، وفي أسبانيا (الأندلس) كان الشعور بالخروج من الظلم الذي فرضه الرومان ألف عام على هذه الشعوب، فكل هؤلاء استبشروا خيراً بقدوم المسلمين الذين رفعوا عنهم الأغلال وكسروا القيود.

فضلاً على أن الإسلام لم يضارّ بِيَع اليهود ولا كنائس المسيحيين، ولم يغتصب الأرض من الذين يعملون فيها، بل اكتفى بفرض ضريبة صغيرة عليها.

وما كان ذلك إلا لأن الإسلام جاء بحضارة لها طابع إنساني رفيع.

* * *

الباب الأوّل

مِنْ جَبْهَةِ بِيْزَنْطَةَ

إلى نِهَايَةِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ



مِنْ جَبْهَةِ بِيزَنْطَةَ إلى نِهَايَةِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ

كان أول أعمال الغرب المسيحي في مواجهة الفتح الإسلامي الزاحف هو العمل على صدّه وإيقافه، وتحطيم خطّته التي كانت تتمثّل في تحويل البحر الأبيض المتوسّط إلى بحيرة إسلامية، وكانت هناك جبهتان: الأولى هي بيزنطة والثانية هي الأندلس، وكانت الجبهة الأولى للصراع بين الإسلام والغرب هي: بيزنطة والحدود بين الدولة الإسلامية في دمشق وبين الروم، وقد بدأت المعركة في عهد النبي ﷺ وقبل أن يختار الرفيق الأعلى في مؤتة وتبوك، وكان بعث أسامة قد أعدَّ قبلَ مرض الرسول، وأنفذه أبو بكر، وقد ظلّت بيزنطة هي الخطر الذي لم يغفل عنه المسلمون خلال حكم الأمويين والعباسيين، وحتى استطاع محمد الفاتح اقتحام القسطنطينية (عام ٨٥٧هـ)، حيث بدأت صفحة جديدة من الصراع.

لقد ظلَّ الغرب المسيحي خلال هذه السنوات منذ دخل المسلمون سوريا يقاوم من ناحية البلقان، ويحاول بقدر ما يستطيع أن يغيْـر على أراضي المسلمين لا يتوقَّف طوال عهدي الأمويين والعباسيّين، فقد ظلّت غارات البيزنطيين على أراضي الإسلام لا تتوقف، حتى طلب الإمبراطور قسطنطين الخامس الصلح، على أن يؤدي للخليفة العباسي جزية سنويّة، وتوالت الحشود بعد المنصور وفي عهد المهدي وهارون، حيث سار على جيش كبير (عام ١٩٠هـ) مخترقاً آسيا الصغرى، ولم يتوقّف إلا حين طلب نقفور الصلح، وهاجم المأمون الجزء الشرقي من آسيا الصغرى، وطلب الروم الصلح، وثار المعتصم وخرَّب عمورية، وأعد أسطولاً لغزو القسطنطينية.

يقول الأستاذ محمود ثابت الشاذلي: «وظلّت الحروب مستمرّة على امتداد تلك المنطقة، تتخذ قواعدها الإسلامية من الثغور التي أقامها المسلمون في البحر الأبيض المتوسّط، وفي سلسلة الجبال الممتدَّة من ملطية على الفرات الأعلى حتى طرسوس، وكانت حصوناً مُحكمة، قامت على حمايتها كتائب مجاهدة من شباب المسلمين سمّوا بالمرابطين، ومنها تتحرك الطلائع المجاهدة في مواسم مسمّاة بأسمائها، إبان فصل الصيف بالصوائف، وفي وقت الشتاء بالشواتي.

واستمرّت الحروب طوال العهدَين الأموي والعباسي حتى جاء السلاجقة، وكانت معركة (ملاذكرد) الحاسمة (٤٦٣هـ) مثالاً للجهاد الإسلامي العظيم، فقد انتصر فيها جيش المسلمين بقيادة السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) على الإمبراطور الروماني (رومانوس) الذي كان يقود جيشاً قوامه مئتي ألف أو يزيد، وسُحق الجيش البيزنطي.

وانتشر السلاجقة في الأناضول وبسطوا نفوذهم في القرن الحادي عشر على رقعة واسعة من الأرض، تمتدّ من تركستان الصينية إلى شواطئ بحر مرمرة، ومن القوقاز إلى خليج البصرة.

وأحسَّ الغرب المسيحي أن الأمر قد وصل إلى غايته، وأنَّ خطر المسلمين قد تزايد، فتحوَّلوا من معارك الحدود إلى الغزو الداخلي.

كانت معركة ملاذكرد (عام ٤٦٣هـ) وبدأت الحروب الصليبية (عام ٤٩٤هـ) أي بعد ثلاثين عاماً فقط، يقول فازلتيف: «ومن ذلك الحين ـ أي بعد انتصار المسلمين في ملاذكرد ـ صار الإسلام خطراً حقيقياً يهدّد بيزنطة بعد أن أصبح لواؤه بأيدي السلاجقة».

وبدأت الحملات الصليبية التي استمرّت قرنين من الزمان، ولم تتوقف منذ الحملة الأولى (٤٩٤هـ/ ١٠٩٦م) حتى حرّر السلطان الأشرف عكّا من بقايا الصليبيّين (عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) لم تتوقف خلالها المعارك

والحشود التي جاءت من أوروبا لتسيطر على أرض الإسلام.

كانت الصورة بالغة القسوة: بينما الحملات الصليبية تزحف على موانئ عكا ودمياط؛ كان الزحف المغولي يتحرّك من وراء النهر إلى قلب آسيا في اتجاه بغداد في حملة عاصفة دمَّرت كل شيء، وقتلت الخليفة، وواصلت مسيرتها لتقضي على الشام ومصر، غير أنَّ المسلمين استطاعوا أن يوقفوها في (عين جالوت) على نحوٍ حمى الحضارة والعالم وأوروبا من شرِّها.

وفي نفس الوقت كانت الأندلس تواجه امتحاناً قاسياً منذ استولى عليها المسلمون، غير أنها لم تسقط إلا بعد قرنين من نهاية الحروب الصليبية، ولم يمضِ على سقوط آخر معاقل الأندلس (غرناطة) أكثر من خمسين عاماً حتى فُتحت القسطنطينية، ووصل الإسلام إلى أوروبا من المعبَـر الأول: معبر بيزنطة القديم.

حدث هذا في خلال أربعة قرون منذ (٤٩٤هـ) أول الحملات الصليبية إلى (٨٥٧هـ) فتح القسطنطينية وسقوط بيزنطة.

خلال هذه الفترة وُجِّهت الضربات الكبرى إلى عالم الإسلام.

ومنذ سيطرت الدولة العثمانية على الأفق الإسلامي تزايدت خطط المؤامرة، غير أنَّ الدولة العثمانية استطاعت أن تسيطر منذ (١٥١٧م) إلى (١٩١٧م) حين تمزَّقت مع الحرب العالمية الأولى، وبدأت مرحلة جديدة قال عنها اللورد اللنبي حين دخل القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

هي صفحة حافلة بالانتصارات والهزائم سقطت فيها بغداد، وسقط بيت المقدس، وسقطت الأندلس، واستعاد المسلمون في (حطّين) بيت المقدس، وفي (عين جالوت) الموقع الإسلامي، وبفتح القسطنطينية بدأ التاريخ الإسلامي يكتب صفحة جديدة.

* * *

من بدء الحروب الصليبية إلى سقوط بغداد في أيدي التتار (المغول)

أ ـ تحالفٌ عسكريٌّ بين الصليبيين والمغول لإسقاط الخلافة في بغداد

(١)

ـ استغلّتْ القوى الأوروبية المسيحيين فترة الانحدار التي أصيبت بها قوى السلاجقة عندما اشتدَّت الانقسامات بينهم، فتحرّكوا في مجموعات كاسحة إلى بيت المقدس، ولمّا يمضِ على معركة ملاذكرد الحاسمة أكثر من ثلاثين عاماً في أول حرب صليبية (٤٩٤هـ ـ ١٠٩٦م) كان هدفها هو الاستيلاء على بيت المقدس بحجّة تخليصه من أيدي المسلمين.

ويرجع نجاح الصليبيين إلى ثلاثة أمور:

١ ـ تفرُّق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بينهم.

٢ ـ قلّة إيمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الإسلامي وقدسيّة أراضيه، وخيانتهم للأمانة التي كانوا يحملونها.

٣ ـ ضعف الفاطميين وفساد سياستهم في أواخر أيام دولتهم، حيث لم تكن تنقصهم القوة، ولكنهم كانوا يحسّون بأنهم ضعاف، وكانت لديهم أدوات النصر، ولكن كان ينقصهم الإيمان، وقد تجمّعت لهم أسباب الشرف جميعاً، ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت منذ زمن طويل، فحقّ عليهم أن تنزل بهم الهزيمة.

وقد قام أمراء سورية الفرنجة متفرّقين كلٌّ يعتمد على جهوده الخاصّة وبعضهم كان تابعاً لبغداد والآخر للقاهرة.

وكان العالم الإسلامي دويلات متفرِّقة يتوزّعها أمراء متنابذون، ولم يكن الأمر يخفى على أوروبا الصليبية التي كانت تعمل لصالحها، وربّما وجدَت من بعض هؤلاء الأمراء كثيراً من العون، فقد اتصل حكّام الفاطميين بالصليبيين وهم يحاصرون أنطاكية وراسلوهم.

ونتيجة لذلك سقطت أنطاكية (٤٩١هـ) وداهمَ الصليبيون بيت المقدس (٤٩٢هـ)، حيث قتلوا عشرات الألوف في الأقصى والصخرة، ووقع أمراء الشام تحت رحمة جوفري دوبوبون وإخوانه الصليبيين، ونجحتْ الحملة الصليبية الأولى، وقام كيان سياسي لاتيني نصراني في فلسطين والشام، وتهاوت محاولات المقاومة، وبقيت سيطرة الصليبيين على الشام قويّة في ظل إمارتهم التي تقف أوروبا كلها من ورائها، وعاش المسلمون نصف قرن بين أيدي الغاصبين، وتدارك الله تبارك وتعالى المسلمين بالدعوة إلى التضامن التي نادى بها نفر من فرسان الإسلام بالموصل، وهؤلاء هم آل زنكي وأشهرهم (عماد الدين زنكي) ثم نور الدين محمود ووزيرهم صلاح الدين.

* * *

(٢)

أبرز مظاهر هذه الجولة هي أنها كشفت عن ذلك الحقد الصليبي المبيَّت في النفس الغربية المسيحية إزاء الإسلام، وأنّها انتهزت فرصة ضعف المسلمين، وتفرُّق إرادتهم، ووقْع الخلاف بين أمرائهم، فأسرعوا بإرسال جموعهم التي طاف بطرس الناسك أوروبا يدعو لها، ويحشد بدعوى الخطر المسْتوهَم على بيت المقدس، ولقد مضى هذا الإصرار الحاقد إلى أبعد غاياته، فاستمرَّ قرنين من الزمان بين حَمْلة تروح وحَمْلة تجيء بقيادة ملوك أوروبا، ودون تراجع، رغم الهزائم التي توالت عليهم.

وقد ظلّت أوروبا تخفي على أهلها أنَّ بيت المقدس كان في أمان، وأن هذه الدعوى المدعاة كانت باطلة، حتى عادت بقايا الحملات الصليبية وأعلنت هذه الحقيقة في قلب أوروبا، فهزَّت الكنيسة، التي عجلت بالقضاء على هؤلاء النفر.

ولقد كانت الحملات الصليبية في حد ذاتها علامة على مؤامرة ضخمة عاشت في أعماق الغرب بعد أن اتسعت دائرة الفتح الإسلامي في غرب أوروبا، حيث زحفت قوّات المسلمين من الأندلس إلى حدود إيطاليا وفرنسا وسويسرة، لم توقفْها هزيمة بلاط الشهداء.

كذلك فقد أثبتت الوثائق المسيحية كما جاء في كتاب (الأميرال كي) أن الحروب الصليبية لم تكن حروباً مسيحية، وإنما كانت تدبيراً يهودياً لوضِع العالَمين المسيحي والإسلامي في حرب عامّة مدمّرة دامتْ أكثر من عصرين تمهيداً للوصول إلى فلسطين.

كذلك فقد كان لهم دور كبير في تقليص الدولة الإسلامية في الأندلس، ففي مذكّرات الأمير عبد الله بن يلقين أخبار كثيرة عن دورهم ذاك قُبيل العصر المرابطي، ثم كان لهم دور في إنهاء دولة غرناطة، وخروج المسلمين من الأندلس نهائياً.

* * *

(٣)
معركة إسقاط الخلافة في بغداد واحدة من الحملات الصليبية

وأخطر من هذا وأشدّ أهمية ذلك التحالف الصليبي مع التتار، وقد وُضعتْ خطّة الحملة الصليبية المغولية في أوروبا، ونفّذت في آسيا، وهذا التحالف العسكري الذي تمّ بين الصليبيين والمغول حوالي (٦٤٨هـ/ ١٢٤٨م) قبل سقوط بغداد بسنوات قليلة.

قال الأستاذ محمد علي الغثيث في كتابه (العرب والشرق) معتمداً على المراجع الفرنسية وحدها، ومتجاوزاً تفسير مؤرّخينا في سـرْد الأحداث: إنَّ المؤرِّخين الأوروبيين يعرفون ذلك معرفة جيدة، ويضعون هذه الأحداث الرهيبة تحت عنوان (الحملة الصليبية المغوليّة). وقال: دعا لويسُ التاسع بعض رجال أمير المغول إلى فرنسا، حيث فاوضهم في عقد اتفاق عسكري، ينصّ على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضدّ العرب والمسلمين، ويكون دور المغول غزوُ العراق وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة الإسلامية، ويكون دور الصليبيين تعويق الجيش المصري من مساعدة إخوانه المسلمين، أي عزل الجيش المصري عزْلاً تاماً عن سائر البلاد العربية.

ومضى لويس في سَعيه لاستمالة المغول وتسخير قواهم المدمّرة لضـرْب الإسلام، ففي (٢/ ١/ ١٢٥١م الموافق ٦٤٩هـ)، أرسل إلى أمير المغول هدايا فاخرة، حملها إليه وفد يرأسه الراهب الدومينكي (أندريه دي لونخيمو) وكان بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدّس وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس، والذي أطمع لويس التاسع في نجاح محاولته لتكوين جبهة مشتركة مع المغول، هو ما كان للنصارى النسطوريين من نفوذ وهيْمنة في إمبراطورية جنكيز خان، إذ كانت سلطات الدولة في قبضتهم، وأرفع المناصب في أيديهم.

يقول الأسقف دي سيسل: «واشتهر هولاكو بميله للمسيحيين النساطرة، وكانت حاشيته تضمُّ عدداً كبيراً منهم، كما كان قائده الأمير (كتوبوكا) مسيحيّاً نسطورياً، وكذلك كانت الأميرة دوكس خاتون زوجة هولاكو مسيحية، وقد أدَّت هذه الزوجة جهداً تفخر به الكنيسة في تجنيب أوروبا المسيحية أهوال الغزو التتاري، وتحويله إلى بغداد والأمة الإسلامية، كما أنه صدرت الأوامر بعد سقوط بغداد بتقتيل المسلمين وحدهم، وعدم المساس بالمسيحيين أو التعرّض لأموالهم».

ويصف الأسقف دي سيسل حملةَ التتار على بغداد فيقول: «كانت صليبية بالمعنى الكامل، هلّل لها المسيحيون، وارتقبوا الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحي (كتوبوكا) الذي تعلّق أمل الصليبيين بجيشه حتى تحقق القضاء على الإسلام والعرب، وهو الهدف الذي فشلت الجيوش الصليبية الغربية في تحقيقه».

وقال التاريخ يصف سقوط بغداد: يئس الخليفة (المعتصم بالله) من عمل أي شيء، فسار بنفسه وأولاده وحواشيه إلى معسكر هولاكو، وارتقب مصيره، وكذلك فعل الأعيان والوجهاء، حتى إذا تكامل عقْدهم أعمل التتار فيهم السيف وفتكوا فيهم جميعاً، ثم بدأ إفناء الجماهير، وعصَف الردى بالشِّيب والشباب والرجال والنساء، وسالت الدماء في الطرقات شاقّة مجراها إلى الفرات، الذي احمرَّت أمواجه من كثْرةِ ما أُزهق من أرواح، وقدّر بعض المؤرِّخين عددها بمليون وستمئة ألف نفس، وظلّت ريح الدماء تلفُّ البلد البائس ستّة أسابيع، نُهبت فيها القصور العامرة، وخُـرِّبت المساجد والمدارس والمكتبات، واحمرّت مياه النهر عدّة أميال لغَلَبة الدم عليها، ثم اسودّت بعد ذلك لفداحة ما أحرق من مخطوطات ومؤلَّفات، هي حصاد العقل المسلم قروناً عديدة.

وهكذا انهار كل ما كان شامخاً، وأتت الفوضى على حضارة أنارت المشارق والمغارب، هوى بها الهوى والمجون، ودمّرت آثام اللذّة ما شادته روح التضحية والفداء.

والحقّ أنّ مصاير المدن الإسلامية الأخرى لم تكن أفضل من دار السلام (بغداد)، إنّ تسعين في المئة من مبانيها وسكّانها قد تلاشى، وأمسى أثَراً بعد عين، مما جعل السيوطي يعبّـر عن هذه المآسي بقوله: «حديث يأكل الأحاديث، وخبرٌ يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها بين الطول والعرض».

وكان المفروض أن تلقى القاهرة ودمشق النهاية نفسها التي لقيتها بغداد وفق الخطّة الصليبية المرسومة، بيْد أنَّ هزيمة التتار أمام الجيش المصري في معركة عين جالوت ومقتل القائد المسيحي كتبغا (كتوبوكا) ووقوع نزاع دموي بين هولاكو المائل للمسيحيين وأخ آخر مائل إلى الإسلام، ذلك كلّه أوقف المصائب النازلة بالمسلمين إلى حين.

يقول الشيخ محمد الغزالي معلّقاً على الحدث: «لقد دفع المسلمون ثمناً فادحاً لمعاصيهم السياسية والاجتماعية، ولإخلادهم إلى الأرض وحبّهم للدنيا، وكان القرنان الهجريان السادس والسابع مسرحاً لزلازل وبراكين هدّدت كيان الأمة، وأمكنت الصليبيين والوثنيين من إهلاك الحرث والنسل، ومن تخطّاه الموت هامَ على وجهه لا يجد مأوى.

وكان الشعور العام أن الإسلام يجب أنْ يزول، وأنَّ أمته يجب أن تختفي، ومع أن التتار في المشرق كانوا الأيدي المنفِّذة إلا أنَّ المسلمين أحسُّوا من قبلُ ومن بعدُ أنَّ أوروبا هي التي ترسم وتشير وتعمل وتساعد، وبقي هذا البلاء موصولاً أكثر من قرنين.

ولم يرتدَّ أحدٌ عن دينه رغم قسوة الهجوم، فلمَّا ولّى القرن السابع وجاء القرن الثامن كان العنصر العربي يتراجع عن أماكن القيادة، وكان الأتراك يأخذون الطريق إلى الأمام.

على أنَّ العناصر التي تتكوَّن الأمة الإسلامية منها كانت كلها مثْخَنَة بالجراح، فقد نجت من جريمة قتل عمْد، وشاءت الأقدار أن تبقى كي تثأر للألوف المؤلّفة التي بادت.

لقد بلغ خلفاء بني العباس سبعاً وثلاثين خليفة، ربما لم يستحقَّ منهم الرئاسة إلا عدد أصابع اليد، وهم كما قال المثل:

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

إلا أن سقوط الخلافة نفسها كان ذريعة إلى ضياع الإسلام كلّه، وتطلّع المسلمون إلى خلافة جديدة تواجه البابوات والكرادلة والمؤامرات الخفيّة والجليّة ضدّ الإسلام أوالمسلمين.

ومن ثمَّ رحَّب الجمهور بدولة العثمانيين وتلقُّفهم لراية الخلافة الساقطة، وتبعوها وهي تقتصُّ من دولة الروم الشرقية، وتستعدُّ للزحف على أوروبا كلها.

إنَّ المعاملة بالمثل هي القانون الذي ساد بين المسلمين وخصومهم، وما دام الصليبيون من وراء سقوط بغداد؛ فليتوجّه المسلمون إلى القسطنطينية نفسها، وقد استولى المسلمون على المدينة بعد حصار واختراق لم يُعرف لهما نظير في تاريخ الحروب». اهـ.

* * *

(٤)

نعود مرَّة أخرى إلى الحروب الصليبية لنقف عندها وقفة تأمّل في عبرة الحدث جملةً؛ يقول المستشرق الإيطالي فرانسيسكو جابريللي: «إن الحروب الصليبية هي ذروة معارك أوروبا المسيحية، هذه الحروب الصليبية التي سال من أجلها مداد مئات الكتب لا تقدم في النهاية إلا رأياً واحداً».

ولقد خُدع بعض كتَّابنا القوميون؛ فحاول أن يصوّر الحروب الصليبية على أنها حروب بين العرب والغرب، ونسيَ العامل الأساسي وهو تنامي الإسلام واندفاعه إلى أوروبا، وسيطرته على الأندلس وبعض أراضي إيطاليا وفرنسا بعد هزيمة بواتيه، التي ظُنَّ أنها ستوقف نموه وامتداده، وإذا وصلنا إلى الأعماق لوجدنا أنَّ الحروب الصليبية تقوم على أربعة عوامل متشابكة:

عامل اقتصادي: الموارد.

عامل ديني: الاختلاف بين المسيحية والإسلام.

عامل سياسي : التوسّع الاستعماري .

عامل عنصري : الاستعلاء بالعنصر الأبيض صاحب السيادة .

وهذه العناصر في مجموعها تعطي الإيحاء بأن المعركة كانت كلّها ترمي إلى احتواء عالم الإسلام والسيطرة عليه، ثمَّ التبشير لإدخاله في دين الغرب، وهي المحاولة التي ما زالت مستمرَّة إلى اليوم .

وإن كان ظنُّ الصليبيين قد خاب في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحيّة في قلب العالم الإسلامي ؛ فإن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ تلك المدينة بقدر ما كانت تدميراً للإسلام .

* * *

لقد امتدَّ حصار الإسلام على جبهات متعدّدة، فقد تظافرت الجهود بين الغرب المسيحي وبين التتار من ناحية ـ كما ذكرنا ـ وفي نفس الوقت فُتحت ثلاث جبهات على العالم الإسلامي :

أولاً : استعادة الغرب صقلّية، ومالطة (١٠٩٠م) من المسلمين .

ثانياً : دخول ألفونسو السادس طليطلة(١٠٨٥م) .

ثالثاً : دخول جوفري دوبوبون مدينة القدس (١٠٩٩م) .

وفي الفترة من (١٠٩٨م) إلى (١١٧٦م) كان الصليبيون يسيطرون على كامل الأرض السورية واللبنانية والفلسطينية وجنوب الأردن، وفي نفس الوقت كان (القرامطة) لا يزالون في (هجر) يقتلون الحجاج المسلمين بالآلاف، ويهاجمون البيت الحرام في مكة، ويستحلّون أخذ السبايا من المسلمين من شيوخ وأطفال ونساء، قبل أن يأتي الصليبيون إلى القدس الشريف (١٠٩٨م) حيث غرقت أرجل خيولهم إلى الركب في دماء المسلمين .

وتوالت الحملات الصليبية بقيادة ملوك أوروبا ولم تتوقّف .

وكانت معركة حطين التي استردّ بها صلاح الدين بيت المقدس عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).

بدأت المقاومة منذ (عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) بقيادة عماد الدين زنكي، ولم تتوقف، فاستمرّت في عهد ابنه السلطان نور الدين الشهيد الذي كانت فترة حُكمه (٥٤١/ ٥٦٩) معاركَ مستمرّة وانتصارات ممتدَّة في وجه الموجة الصليبية على هذا المدى الواسع بين حلب وأنطاكية وطرابلس.

وكان قد جاء الوقت الذي استطاع صلاح الدين أن يسيطر على المنطقة كلّها، ويقود المعارك الفاصلة في حطّين وبيت المقدس.

وكان عماد الدين زنكي قد خطا خطوات موفَّـقة في جمع كلمة المسلمين من الموصل إلى حلب، وخلَفه ابنه نور الدين محمود الذي استطاع بفضل منهجه في توحيد الأمة والتماس منهج الله أساساً أن يصدَّ الحملة الصليبية الثانية، ثمّ جاء صلاح الدين فامتلك ناصية الأمور في مصر والشام والجزيرة، ولم يلبث أن هاجم الأراضي التي كان الصليبيون قد احتلّوها وأسّسوا فيها إمارات مضى على قيامها زمن طويل، فانتصر في معركة عيون (٥٧٥هـ) وحصن الأفران، وحطَّم مغامرة ريخالد في الاستيلاء على الحجاز.

وفي عام (٥٨٣هـ) زحف صلاح الدين على رأس جيش إسلامي كبير سار به من دمشق، واستولى على حصن الكرك وطبريّة، ودارت معركة حطين الخالدة، وأنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة وأسر قادتهم، كما أسر ألف جندي بعد أن قتل منهم تسعة آلاف، ثم زحف فاستولى على عكّا وصيدا ويافا وبيروت ونابلس والرملة، ودخل بيت المقدس ظافراً في رجب (٥٨٣هـ) وانطلق صوت المؤذِّن في أجواء بيت المقدس بعد انقطاع ثمان وثمانين سنة.

* * *

(٥)

إنَّ تجربة استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين يجب أن تدرس في توسُّع وتفصيل لاستلهام العبرة، ولمواجهة الواقع المعاصر للمسلمين اليوم إزاء الحملة الصهيونية القائمة، وهي تتركَّز أساساً في العودة إلى الله تبارك وتعالى، والتعرُّف إلى أبعاد المحنة التي ألمَّـت بالمسلمين، وكيف أنها جاءت أساساً نتيجة الانصراف عن منهج الله، ولذلك فإن أول عزمات استعادة ما ضاع من المسلمين هو التماس الأصالة، استمداداً من المنابع، وتربية الأجيال على الجهاد، وبذل النفس والمال في سبيل الله.

ولقد واجه المسلمون في هذا العصر الذي نعيشه ثلاثة أخطار:

(١) الاستعمار الغربي.

(٢) سقوط الخلافة.

(٣) سقوط فلسطين وبيت المقدس في يد الصهيونية.

فالمسلمون يواجهون مأزقاً لا يقلّ خطورة عن مأزق الحروب الصليبية، ولذلك فإن العودة إلى منهج الله وقيام الوحدة الإسلامية الجامعة هما المنطلق الوحيد لمواجهة الخطر الجاثم واسترجاع الأرض المحتلة، وهذا ما ذهب إليه عماد الدين زنكي، وطبَّقه نور الدين محمود كأساس للمرحلة الحاسمة التي بدأت بصلاح الدين وانتهت بيبرس وقلاون وغيرهما.

وكان صلاح الدين قد أقام قلعته المشهورة فوق جبل المقطّم، وأحاط القاهرة بسور كبير، وبنى أسطولاً قوياً، وقاد جيشه إلى الشام حيث طلب الأعداء الصلح، ، فقبله ليستكمل توحيد المسلمين استعداداً لمعركة حاسمة مع الصليبيين، وعندما تجرَّأ أمير أنطاكية على مهاجمة الأراضي الحجازية، واقترب بعض رجاله من المدينة المنوّرة ـ قاد صلاح الدين أسطولاً مصرياً، وتصدّى شقيقه لسفن الصليبيين وقضى عليها جميعاً.

ومضى في إتمام الوحدة حيث رفرفت رايات الإسلام على العراق ومصر وسورية وشبه الجزيرة العربية.

وفي عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) عاد الصليبيون إلى الاعتداء على قوافل المسلمين، فدعا صلاح الدين الأمة إلى الجهاد، فاجتمع حوله قرابة خمسة وعشرين ألف جندي من المسلمين من الشام ومصر، فسار بهم إلى طبريّة التي لم تلبث أن فتحت أبوابها لرايات الإسلام.

وتجمَّع الصليبيون في صفورية، وساروا إلى طبرية وسط صحراء جرداء، وتوجَّه صلاح الدين إلى حطين في موقع يسيطر فيه على المياه والعشب، وتوجَّه الأعداء إلى الموقع الذي اختاره صلاح الدين للمعركة، وأشعل رجال صلاح الدين الأشواك اليابسة في السفوح المحيطة بهم، فزادهم ذلك شعوراً بالحرِّ والعطش، وبثَّ الخوف في قلوبهم، ثمّ بعث صلاح الدين فرسانه يهاجمون الصليبيين بالسهام، حتى لا يتركوا لهم الفرصة للراحة.

ودار القتال، وأسفر عن نصر المسلمين وهزيمة الأعداء الذين قتل منهم وأسر عدد كبير، وسجد صلاح الدين شكراً لله تبارك وتعالى.

وكانت هذه المعركة بداية النهاية للاحتلال الصليبي في الشام وفلسطين، حيث استولى المسلمون بعدها على مدن الساحل جميعاً (عكا وغزة وحيفا وصيدا وبيروت)، ثم رفرفت رايات الإسلام على القدس عاصمة الأرض المباركة (فلسطين).

وعن القدس، قال صلاح الدين في حديثه مع ريتشارد ـ قلب الأسد آخر القوَّاد الصليبيين ـ في فلسطين:

«أما القدس فهو لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما عندكم، فإنه مسرى نبيِّنا ومجمع الملائكة، فلا تتصوَّر أن نتنازل عنه، أما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كانوا فيها من المسلمين».

ولقد شهد المؤرِّخون الغربيون بأنَّ الحروب الصليبية كانت عملية

غدر وخيانة، ولم يكن لها أيُّ وجه من وجوه الحق ـ شأنها في ذلك شأن الغزوة الصهيونية ـ يقول (استيفنس رينسمان) :

«إنَّ نجاح الصليبيين أول الأمر لم يرجع فحسب إلى كثرة أعدادهم وإلى ما نقلـوه من مسـاعدات من الغرب المسـيحي ومن الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرُّق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطرابات الأمن، وإلى ما اتَّـبعه القادة الصليبيون من أساليب الغدر والخيانة واستخدام العملاء من السكَّان في تحقيق أغراضهم، وإلى ما أجرَوه من مذابح في سكَّان البلاد التي استولوا عليها، بالرغم مما بذلوه لهم من الأمان، ولكن لم تلبث فكرة الجهاد المقدس أن خرجت إلى حيّز التنفيذ في صفوف المسلمين واشتدت ثائرتهم، وتـهيّـأ للأمة الإسلامية القادة الذين مضوا بها ـ بعون الله ـ إلى طريق النصر».

وهذه هي الحقيقة التي يجب أن نضعها تحت أبصارنا اليوم.

ويعلّق جوستاف لوبون على الحروب الصليبية، فيقارن بين ما فعله الصليبيون وما فعله المسلمون: «إنَّ أول ما بدأ به ريكاردوس أن قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير، أسلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع العهد بحقن دمائهم، مما أثار صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس، فلم يمسَّهم بأذى، والذي أمدَّ فيليب وقلب الأسد بالمرطِّـبات والأدوية أثناء مرضهما.

أمّا صلاح الدين فلما استردَّ بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفّى لهم بجميع عهودهم، حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومن جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأباح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

* * *

(٦)

أعطت القدوة الإسلامية القائدة المثلَ لعامة المسلمين، فقد قدَّم المسلمون أنفسهم وأموالهم وأرواحهم رخيصة في سبيل الدفاع عن أرض الإسلام وتحريرها من الدخيل، لم يزعجهم الكفاف ولا الشظف ولا الجفاف، ولم تغرّهم مترف الحياة، ولم يلينوا وإنما اخشوشنوا.

وكانت قيادة صلاح الدين في حطين، ويوسف بن تاشفين في (الزلاّقة) وبيبرس في (عين جالوت) وقلاون في معاركه؛ كلها صور للبطولة الرائعة المستمدّة نموذجها من النموذج الأول: من محمد ﷺ وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وهي نماذج صدقت الله تبارك وتعالى ما عاهدته، فنصرها وكشف عنها الضرّ، ولقد قدَّمت أرواحها وأموالها خالصة ورخيصة في مختلف المواقع وعلى طول المدى خلال قرنَين ويزيد، حيث كانت كلُّ هذه المواقع تزخر بالجهاد والعمل في سبيل وجه الله.

كانت هناك معارك الأندلس مع الفرنجة، ومعارك ساحل الشام مع الصليبيين، ومعارك المسلمين مع التتار، ومعاركهم مع الخائنين؛ واستطاع المسلمون إسقاط كل هذه المواقع، حيث كانت الأرض الإسلامية الممتدَّة تزخر بالجهاد والنضال ومقاومة الغاصبين، الذين انطلقوا في كلِّ مكان في سبيل إيقاف الزحف الإسلامي.

وقدَّم صلاح الدين نموذج القائد المسلم الذي ربّاه القرآن وكوَّنه محمد ﷺ، قتل الصليبيون ستمئة ألف ـ في دخول بيت المقدس ـ من المسلمين، حتى قال قائلهم: إنَّ خيولنا كانت تسبح في الدماء إلى ركبها، فلما انتصر صلاح الدين ودخل القدس؛ رفض أن ينتقم وقال: «إنَّ ديني يمنعني من أن أفعل ذلك». وأطلق صلاح الدين القادة والجند الذين قاتلوه في المدن التي احتلّها بالحرب أو بالأمان، وسمح لهم بالهجرة منها آمنين، بدلاً من أن يقتلهم، فتجمعوا في مدينة صور الحصينة التي تحوَّلت إلى قاعدة للحملة

الصليبية الثالثة بزعامة الملك (جي دي لوسيان) الذي أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن لا يشهر سيفاً في وجه المسلمين!.

كذلك فقد حمل لواء إيصال اللاجئين إلى بلادهم، وأرغم أصحاب السفن على نقلهم.

يقول جون لامونت المؤرِّخ الأوروبي: «لقد تصـرَّف صلاح الدين طوال حروبه وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مسؤولاً عن رعاياه المقبلين، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانات جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان، وكان هدف صلاح الدين هو سحق قوة الصليبيين السياسية، ولم يكن إبادة المسيحيين، والواقع أنَّ صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة، فهو ليس فاتحاً بل محرِّراً، وإن كان الفاتح يقاتل بطبعه؛ فإنَّ المحرر يقاتل بإيمانه».

* * *

(٧)

كيف ظهر جيل صلاح الدين وعادت القدس؟:

ذلك هو السؤال الذي يحتاج اليوم إلى البحث عن إجابة له مستمدّة من مفاهيم الإسلام وأصالته، وذلك هو ما قصد إليه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني حين درس عصر الحروب الصليبية، وما لحقه من آثار اضطراب الحياة الفكرية في المجتمع الإسلامي، وآثارها في إفساد الحياة الاقتصادية والاجتماعية وانحلالها، وكذلك التحدِّيات التي واجهت الأمة الإسلامية، وخاصَّة تحديات الباطنية والفلاسفة (على النحو الذي نشاهده اليوم تماماً)، وقد أجمل هذه الأمور في ثلاث قضايا أساسية هي:

(١) الانحلال.

(٢) الانقسام المذهبي.

(٣) الصراع السياسي.

وقال: «إنه قد ظهرت مدرستان بدأتا المقاومة هما: مدرسة الغزالي، ومدرسة عبد القادر الجيلاني».

وكشف عن الحاجة إلى قائد مسلم ملهم ليس له مطمع في الدنيا، وإنما وجهته إلى الله تبارك وتعالى.

ولما كانت القوانين القرآنية تقرِّر أن التغيير إلى الأفضل أو الأسوأ لا يحدث إلا إذا سبقه تغيير اجتماعي يقوم به القوم أو الأفراد لما بالأنفس من مفاهيم واتجاهات، وأن آثار هذا التغيير ينعكس على ما يقوم به من أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية.

وقد اعتبر أن قيام دولة آل زنكي الرشيدة وسياستها في الإصلاح والتجديد هي منطلق التحوُّل الذي طرأ على المنطقة، فقد كانت مهمّتها الأساسية إعداد الشعب تربويّاً وإسلاميّاً وعسكرياً، وصبغ الدولة بالصبغة الإسلامية، وتكامل القيادات السياسية والفكرية.

وهذا هو الذي مهَّد لظهور جيل التحرير: جيل صلاح الدين، وقد أشار الباحث إلى أنَّ التعاون قد جرى بين المدرسة القادرية والدولة الزنكية في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، والعمل في المدارس النوريَّة (نسبة إلى نور الدين محمود) والصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين)، والمشاركة في ميادين السياسة والجهاد.

وكان أبرز معالمها:

(١) نبذ التعصُّب المذهبي، وتوحيد كلمة المسلمين.

(٢) بناء القوة العسكرية والصناعية الحديثة.

(٣) بناء الوحدة الإسلامية.

* * *

(٨)

ظهرت عشرات من الدراسات التي تكشف عن المؤامرة المبيّتة في الحملة الصليبية على العالم الإسلامي، وقد كشفت عن استغلال الباباوات ضعْف اطّلاع أوروبا الغربية على ما كان يجري في الشرق، فانصرفوا إلى تضليل العالم الكاثوليكي، لمطامع البابوية في تأسيس دولة أرستقراطية عالمية، مستغلّةً الميول العدوانية للحكّام الإقطاعيين، وقد اتفق نداء البابا أورليان الثاني مع مصالح الإقطاعيين في الغرب، وقد تبيَّـن حين وصلت جحافل القوات التي خُدعت ودُفعت إلى المعركة أنَّ بيت المقدس كان في أتمّ الأمان، وأنَّ المسيحيين في القدس كانوا في طمأنينة الإسلام الغامرة التي أعلنها نبيُّه وفرضها، وقام بها أمراؤه وملوكه على مرِّ العصور.

وإنما هي المطامع والأهواء ظنّاً بأنَّ الإسلام يمكن القضاء عليه بالاجتياح العسكري، وقد ظهر ذلك على أشدِّ صورة وأقساها بعد استعادة صلاح الدين بيت المقدس.

يقول قدري قلعجي: « ضجَّـت أوروبا لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين، وتنادت إلى حملة صليبية ثالثة، وبلغ من أوهام ملوكها بالحرب الجديدة التي أعلنوها على الشرق وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم، وكان أول من لبّى الدعوة ملك صقلّية (وليم الثاني)، الذي أرسل إلى طرابلس (الشام) أسطولاً يتألَّف من ستين سفينة، وتتابعت بعد ذلك إمدادات الفرنجة وتطوَّع الجميع للقتال، ومن لم يستطع التطوُّع استأجر له عضواً أو أعطى معونة.

كان الشرق والغرب يحشدان قواهما البشرية والمادية ليلتقيا من جديد عند أبواب مدينة وادعة تطلُّ على سهول الأرض.

واستمرَّ القتال في البرّ والبحر عامَين كاملين من تاريخ الحروب والفروسيّة؛ تكبَّد فيها الفريقان خسائر فادحة وكوارث جسيمة.

وأبدت (عكا) المحاصرة برّاً وبحراً مثلاً فريداً على صبر أهلها وصمود جيشها وشجاعة جندها، لقد كانت مَلحمة لامثيل لها في التاريخ، يحاصر الصليبيون فيها المسلمين ـ أهل عكا ـ وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين، والقتال مستمرٌّ في البرّ والبحر.

ثمَّ تأكّد لملوك أوروبا أن الانتصارات التي أحرزتها الحملة الصليبية الثالثة على صلاح الدين، والتي اشترك فيها خمسمئة أو ستمئة ألف صليبي، وقضى من أجلها ما لا يقل عن مئة وعشرين ألف ضحية منهم؛ إنما كانت انتصارات جزئية محلّية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخة الصرح، الراسية الأساس، المترامية الأطراف، التي تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كلٍّ مكان.

* * *

(٩)

ثمَّ تحوَّل بعد ذلك مسرح المعركة إلى مصر، فكانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى مصر (٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م) (الحملة الصليبية السابعة)، وكان الصليبيون يعتقدون دائماً أنَّ أمر الاستيلاء على بيت المقدس يجب أن يبدأ بضرب مصر، بوصفها قلب العالم الإسلامي النابض، وخاصَّة بعد أن أثبتت الحوادث أنَّ مصر كانت الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها صلاح الدين في تحقيق انتصاراته عليهم، وفي استرداد بيت المقدس منهم، وسبق أن اتَّجهت الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط (٦١٧هـ/ ١٢١٩م)، وانتهى مشروعها إلى الهزيمة؛ وقد نظم الملك الصالح الاستعدادات الضرورية للدفاع عن البلاد، فشحن دمياط بالذخائر والسلاح والأقوات.

وكانت أوروبا قد وجدت في لويس التاسع ملك فرنسا ضالَّتها، ليقود حملة صليبية جديدة، توجَّه هذه المرة إلى مصر بوصفها قلب الأمة الإسلامية، فإذا سقط هذا القلب أمكن أن يعود مرَّة أخرى للسيطرة على

الشرق الإسلامي، دون خشية قوة كبرى تقف في وجوههم.

ولم تلبث دمياط إلا قليلاً حتى هاجمتها الحملة، واستولت عليها وجعلتها مركزها، ثمَّ بدأت تتجه منها إلى المنصورة وفارسكور في الطريق إلى القاهرة، وتجمَّعت جيوش مصر الإسلامية من شواطئ النيل والبحر الصغير في المنصورة، حيث واصل الملك الصالح - المريض النائم في محفّته - استعداداته، فرتّب الجيوش والفرسان، وأعدَّ المؤن والذخائر والسلاح، ووقف الجمعان لا يفصلهما إلا البحر الصغير، وقد حاول الصليبيون إقامة جسر للعبور دون جدوى، وبدأ الصليبيون الهجوم، ولكنهم هُزموا وقُتلوا في أزقّة المنصورة، وتقهقروا محاولين العودة إلى دمياط، ولكن جند المسلمين حاصروهم حصاراً عنيفاً عند مياه النيل، التي تدفَّقت بعد قطع الجيش المصري للجسور عليهم وإغراقهم.

وفيها كانت رؤوس الصليبيين تطفو، ودماؤهم تغمر مياه النيل، كان لويس يحاول أن ينحاز بطائفة من الفرسان عند إحدى التلال قرب قرية ميت الخوالي، عندما طوَّقه الأجناد من كلِّ ناحية، وشهد مصرع فرسانه بين يديه، فلما بلغ به اليأس غايته طلب التسليم؛ فاقتيد ومن بقي معه مكبَّلين بالقيود إلى حيث سجنوا في (دار ابن لقمان) حتى يفتدي نفسه، وكانت الفدية أربعمئة ألف دينار، فلما أرسلت إليه أطلق سراحه وعاد إلى عكّا.

* * *

تلك مرحلة أخرى من مراحل الحروب الصليبية تتمثل في حلم القديس لويس التاسع، الذي جاء إلى الشرق الإسلامي قائداً لأعظم حملتين صليبيتين، وعاد أدراج الرياح تطارده الهزيمة والأمراض.

كان حلم ذلك الملك هو محاربة المسلمين والقضاء عليهم، فكانت معركة المنصورة الخالدة درساً تاريخياً لا يُنسى، انتُصر على قوات الحملة، ولم يقنع القديس لويس بما نزل به، فحاول بعد أن افتدى نفسه وخرج إلى

عكّا إقامة تحالُف مع المغول ـ التتار ـ وعاد إلى فرنسا ينظم حملة جديدة سار بها إلى تونس، وهناك كانت النهاية، فقد مات الملك لويس تحت أسوار تونس، دون أن يتمكَّن من اقتحامها، وفشلت الحملة فيها.

لقيت حملة المغول الفشل ذاته على أرض عين جالوت، ولم يلبث التتار الذين جاؤوا للقضاء على الإسلام أن دخلوا الإسلام طوعاً، وهم الذين عُرفوا باسم القبائل الذهبية، وأصبحوا هم أهل الإسلام وحماته.

وقضى لويس نحبه تحت أسوار مدينة تونس، وانتصر المسلمون في عين جالوت بقيادة الملك المظفّر قطز على جيش المغول (يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)، وقُتل القائد (كتبغا) وتمزَّق المغول شرَّ ممزَّق، ولم ينفع لويس مؤامراته المتعدِّدة في قبرص أو عكّا بإرسال سفارة من الرهبان بقيادة (أندرو بونج حيمو) للاتصال بخان المغول واستعدائه على المسلمين.

كذلك فلم ينفعه تحالفه مع طائفة الإسماعيلية (الحشّاشين) للعمل ضدَّ المسلمين.

وكانت هذه هي الفصول الأخيرة للحروب الصليبية، ففي خلال عشرين سنة بعد فشل حملة لويس؛ كان المسلمون بقيادة الأشرف خليل قد طردوا الفرنجة من عكّا آخر معاقل الصليبيين.

ولنعد إلى القصة من أولها.

فقد أكملت دولة المماليك ما بدأه صلاح الدين من انتصارات ضد الأعداء، فأكمل الظاهر بيبرس (بين عامي ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) ما قام به صلاح الدين الأيوبي من هزيمة الصليبيين، فقد أحرز النصر على التتار في معركة عين جالوت (١٢٦٠م) ومزَّق شملهم.

ومهَّدت (عين جالوت) لتوحيد القطرَين (مصر والشام) تحت راية المماليك حتى الفتح العثماني بعد قرنين ونصف.

وقد حارب الظاهر بيبرس الصليبيين من (١٢٦٣م إلى ١٢٧١م)

وانتصر عليهم في معظم المعارك، واستعاد الكرك وقيسارية وأرسوف وصفد، كما سقطت يافا (١٢٦٨م) بدون مقاومة.

وواصل قلاون ما بدأه بيبرس (الملك المنصور) فاستعاد طرابلس وغيرها.

وجاء الأشرف (١٢٩٠م - ١٢٩٢م) ففتح عكّا، وكانت آخر معاقل الصليبيين، وانتُزعت منهم صور وصيدا، وسُلّمت بيروت، ونزل المسلمون طرسوس ودمّروا آخر قلعة بقيت في أيدي الصليبيين.

وهكذا سحق مماليك مصر آخر ممتلكات الفرنجة في الشرق وأبادوها واحدة تلو الأخرى، باستيلاء قوات الملك الأشرف خليل بن قلاون على طرابلس (١٢٨٩م) وعكا (١٢٩١م).

وقد دمَّر المسلمون كل ما أقامه الصليبيون في مئتي عام، ومنها القلعة التي بنوها على مقربة من مدينة اللاذقية في عشرين عاماً، واحتلها المسلمون في أربعة أيام، فقد ظلَّ صلاح الدين يمطر القلعة من الجبل المجاور بوابل من الحجارة الضخمة والسهام، التي كانت تنفذ إلى صدور الصليبيين في حصنهم، واستمرَّ الهجوم أربعة أيام وأربع ليال حتى بدأت مقاومة الصليبيين تنهار، وأسرع جنود صلاح الدين فمدُّوا الجسر من الجبل إلى القلعة، وانطلقوا فوق الجسر حتى بلغوا أسوارها الخارجيّة، فتسلَّقوها بالحبال، وكان المسلمون يقاتلون بأجسامهم وأيديهم وسيوفهم في كلِّ ركن وفي كلّ شبر، وما لبث أن تقهقر الصليبيون تاركين جثث قتلاهم.

* * *

(١٠)

وفي المنصورة إبان اعتقال لويس التاسع تقرّر موقف خطير: هو أنَّ المسلمين لا يُهزمون بالحرب، ولكن يهزمون بالكلمة.

يقول المؤرّخ رينيه جروسيه: «إنّ الملك لويس التاسع كان في مقدمة كبار ساسة الغرب، الذين وضعوا لأوروبا الخطط الرئيسية السياسية جديدةً مبتكرة بالنسبة لمستقبل آسيا وأفريقيا».

ويقول المؤرِّخ جان دي جوانفيل الذي رافق الملك لويس التاسع في حملته على دمياط:

«إنَّ خلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة، ليفكِّر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين، وقد انتهى به فكره إلى تلك الآراء والمآخذ، التي أفضى بها لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا مُقلعاً إليها من دمياط.

وخلاصة هذه الآراء أنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وأنَّ هذا العبء لا بدّ أن تقوم به أوروبا كلُّها، لتضيّق الخناق على الإسلام ثم تقضي عليه، وبذلك يتمّ لها التخلُّص من الحائل الذي يحول دون سيطرتها على آسيا وأفريقيا».

* * *

مراجعة عامة

ويقدّم الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مراجعة عامة، يقول: «ما الذي حدث خلال مدّة نصف القرن الممتدّة بين هزيمة المسلمين أمام طلائع الحملات الصليبية، وبين ظهور عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين؟ وهل كانت حركتهم جهوداً فردية ابتدؤوها، أم كانت ثمرة مقدِّمات سبقتها وتجديد وإصلاح شمل المجتمع، فغيَّر ما بأنفُس القوم من قيم وتصورات وتقاليد وعادات، فغيّر الله ـ تبارك وتعالى ـ ما بهم من ضعف وتخلُّف بما أجرى على أيديهم من إنجازات.

تبيّن المصادر التاريخية أنَّ كلاًّ من عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين لم يكن سوى طليعة جيل أخرجتْه حركة تجديد وإصلاح، عملت في مجتمع شاعت فيه قبل ذلك عوامل الاضطراب السياسي والفكر الاجتماعي، وكان طابع الإنسان فيه ـ كما وصفه المؤرِّخ أبو شامة ـ كالجاهلية؛ همُّ أحدهم بطْنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

ولقد زار المؤرّخ ابن جبير بلاد الشام والعراق ومصر آنذاك، ووصف ما أسماه بالجبهات المشرقية، فذكر أنهم أهل أهواء وبدع وفرق ضالّة وشِيَع إلا من عصم الله من أهلها.

وقد جأر أولو الفضل والعلم من الأدباء والمؤرّخين والكتّاب والشعراء ـ الذين عاصروا هزائم المسلمين أمام الصليبيين ـ جأروا بالشكوى من تبلّد ذلك الجيل أمام الاعتداءات الإفرنجية على مقدَّسات المسلمين وأعراض المسلمين وممتلكاتهم، كما روى ابن الجوزي وابن كثير وابن تغري بردي وغيرهم.

وفي هذه الظروف برزت حركتان إسلاميّتان:

الأولى: (الأشاعرة) الذين أنجبوا في هذه الفترة الإمام الغزالي وقطب الدين النيسابوري، ، فكان لها دورها في بعث الروح في المجتمع الإسلامي آنذاك، وفي محاضِنها التربوية نشأ البيت الزنكي، وتربّى عماد الدين وابنه نور الدين.

والجماعة الثانية: هي (الحركة القادرية) التي أسّسها عبد القادر الجيلاني شيخ الحنابلة آنذاك، والتي ركَّزت على نصرة العامة والفقراء من جهة، وعلى التعليم من جهة أخرى، وخصَّت أبناء الهاربين أمام الغزو الصليبي بعنايتها، فكانت تحضر مَن أسمَتهم (أبناء المقادسة) وتعلّمهم وتعدّهم إعداداً إسلامياً، ثم تعيدهم إلى مناطق المواجهة.

ثم كان المنعطف التاريخي عام (٥٤٥هـ) بعد فتح نور الدين لدمشق، حيث بدأ التحالف بينه وبين القادريّة، فتعاون معه دعاتها وخريجو المدرسة القادرية في التعليم والتوجيه، وعلى يد أحد دعاتها المسمّى علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ كان التحوّل في شخصية صلاح الدين عام (٥٦١هـ)، وكان قبل ذلك شاباً مولعاً بركوب الخيل ولعب الكوزة وشرب الخمر[١].

وقد ترتَّب على هذا الالتقاء بين نور الدين والقادرية أن توحَّدت جهود حركتَي الأشاعرة والقادرية، فوجّه هذا المجتمع اهتمامه نحو مصر وبثَّ الدعاة فيها، وعلى رأسهم ابن نجا، حتى إذا خرجت حملة أسد الدين وصلاح الدين كان الرأي العام المصري قد تهيّأ لاستقبالها تماماً، ولقد ظلَّت الحركتان ترعيان حركة التجديد، وتسهمان مع نور الدين وصلاح الدين في جميع الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولم تخرج حركة التجديد والإصلاح التي رافقت الغزو المغولي عن هذه المنطلقات، وإنما شابهتها في المنطلق والأساليب.

---

(١) ابن شدَّاد: المحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ص ٤٠.

غير أن هناك فارقاً أساسياً بين تجربة المسلمين مع الصليبيين وتجربتهم مع المغول؛ رغم الضجيج التاريخي الذي أحاط بالأولى، ومنحها احتراماً أكثر من الثانية.

فقد كان تغلُّب المسلمين على الصليبيين لا يعدو عن كونه نصراً عسكرياً في جولة محدّدة، لم يصحبها فتح فكري، وإنما انسحب الصليبيون إلى بلادهم، وأعادوا تنظيم صفوفهم، ثم أعادوا الكرّة في الأندلس وشمال أفريقيا وبلاد الشام وتركيا والهند، خلال القرون الخمسة التالية.

أما تجربة المسلمين مع المغول، فقد بدأت بانتصار عسكري في عين جالوت، ثم تبعه فتح فكري قضى على خطر المغول نهائياً، وأحالهم إلى جنود الإسلام نفسه.

وهناك فارق بين حركات التجديد والإصلاح في عصور المد الإسلامي، وبين مثيلاتها في عصور الركود والتخلُّف؛ وهو أنَّ الحركات التجديدية الأخيرة وإن منحت المجتمع الإسلامي قسطاً من العافية، التي مكَّنته من دفع الأخطار التي داهمته من خارج، إلا أنها لم تُحدث فيه من داخله التغيير الذي يؤهّله لانطلاق حضاري، يعيده إلى مرتبة القيادة الإنسانية، كما أنها لم تخرج أي شعب مسلم جديد، الإخراج الذي يؤهّله لحمل رسالة الإسلام، والارتقاء به إلى مكانة التوجيه العالمي.

لقد كان المطلوب منها أن تغيّر سلَّم الأفكار والقيم التي اضطربت في عصور الركود والتخلُّف، وأَولى درجات هذا السلم أن يصبح (الفكر موجِّهاً للسياسة) بدل الاحتلال الذي أصاب المجتمع الإسلامي، حين عدَت السياسة على الفكر، وصارت توجّهه.

ولقد حاول ابن تيمية أن يقوم بهذا الدور، وأن يعمّقه في حياة المسلمين، وهو محتوى السلفيّة التي دعا إليها، وما كان تصرّفه في دمشق والقاهرة وعين جالوت إلا انطلاقاً من هذا الدور الذي جاهد في سبيله، ولكن صلابة الرأي الفكري والقيَمي الذي عمَّ الحياة الفكرية من حوله كان

أقوى من جهوده، فاصطدم نتيجةً لذلك بالعلماء والحكّام سواءً، وأثار حنقهم حتى سجنوه، ولم يخرج من سجنه إلا بعد أن توفّاه الله.

جاءت القوى التي تحاصر الإسلام من الشرق ومن الغرب، من قلب أوروبا ممثَّلة في الصليبيين؛ ومن وراء النهر في آسيا ممثَّلةً في التتار والمغول، الذين خرجوا يحطمون كلَّ ما يقف في طريقهم لا يردَّهم شيء،، حتى دخلوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية (عام ٦٥٦هـ) فدمَّروها؛ في نفس الوقت الذي كان الشام وساحل البحر الأبيض محاصَراً بالقوى الصليبية، التي أقامت المملكة اللاتينية منذ (٤٩٢هـ) قبل قرن ونصف قرن من الزمان، وكانوا قد انطلقوا تحت صيحة البابا أريانوس، الذي دعاهم إلى تحرير بيت المقدس من المسلمين، وقُتل في المعركة الأولى سبعين ألفاً في يوم واحد.

وهكذا تآمرت القوى المعادية للإسلام من الشرق ومن الغرب؛ من المسيحيين ومن الوثنيين على السواء، وعُقدت المحالفات العسكرية بين الصليبيين والمغول منذ (٦٤٨هـ) تقريباً. أي قبل قرن كامل من دخول بغداد.

كان الهدف هو أن تلتقي من الشرق ومن الغرب، لتضغط وتضع الإسلام والمسلمين بين فكَّي الكمّاشة، فجرى التآمر بين الصليبيين والتتار على حصار المسلمين، وكانت المؤامرة قد رسمها أحبار اليهود المتآمرين منذ وقت طويل. ولكن التتار الذين لم ينهزموا قطّ منذ خرجوا من وراء النهر خلال أكثر من ستين عاماً، لم يلبثوا أن اصطدموا بحاجز الإسلام القوي في (عين جالوت) بعد السيطرة على بغداد بعامين اثنين، فارتدُّوا على أعقابهم، وكان العالم كلُّه قد وقف يلتقط أنفاسه، حين خُيِّل إليه أنَّ المغول سوف يعدُون إلى أوروبا فيحطمون روما.

ولمّا تمضِ إلا عقود قليلة حتى استوعب الإسلام التتار، فذابوا فيه، أما الصليبيون فقد ارتدُّوا خلال قرنين منهزمين، ليحاولوا مع الإسلام محاولة جديدة.

* * *

ملاحق البحث

أولاً: منذ أن وجَّه الرسول ﷺ القوى الإسلامية إلى موقعة مؤتة، ثم قاد عليه الصلاة والسلام الحملة التي أُطلق عليها اسم (تبوك ـ العسرة ـ)، وقد تقرَّر أن هذا المنطلق، وهو الدولة البيزنطية ـ هو أخطر المواجهات بين المسلمين وأعدائهم، ومن هنا كانت الحملة التي اختار الرسول الرفيق الأعلى ورايتُها مغروسة أمام مسجد المدينة، بقيادة أسامة بن زيد؛ علامةً على الطريق الذي سلكه المسلمون بعد ذلك.

وقد انتزع المسلمون من الروم مصرَ والشامَ والمغربَ، وحاصروا القسطنطينية أكثر من مرة، وأوقعوا الهزيمة بأسطول الروم في معركة ذات الصواري.

وتعدُّ معركة ذات الصواري من المعارك البحرية الحاسمة في تاريخ الدولة الإسلامية؛ إذ غيَّرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط، لأنها قضت على أسطورة ما يسمَّى بحر الروم، وصار للقوَّات البحرية العربية الإسلامية فيه الكلمة العليا، كما أنَّ الأباطرة الرومان أدركوا أنَّ الأسطول الإسلامي صار قوَّة ضاربة في البحر المتوسط، وأنَّ دولة الروم لا تستطيع إخراج العرب من البلاد التي تملَّكوها على شواطئ هذا البحر.

ويرى المؤرخون أن هذا الانتصار يشبه انتصار معركة اليرموك؛ لأنه كان إيذاناً ببداية السيادة البحرية الإسلامية، ونهاية السيادة الرومانية، كما أنَّ الروم لم تقم لهم بعد هذه الغزوة في البحر قائمة.

وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس الأسطول الإسلامي الذي اشتبك مع الروم (٣٤هـ / ٦٥٤م)، وأوقع الهزيمة بأسطولهم الذي

كان يقوده الإمبراطور قسطنطين الثاني، وتولَّى حصار القسطنطينية، كما غزا معاوية القسطنطينية ووصل إلى أسوارها، ثم أرسل حملات بريَّة وبحرية متوالية، واستمرَّت حتى رفع الحصار عمر بن عبد العزيز (٦٩هـ/ ٧٧١م).

ثانياً: أما هارون الرشيد (في العصر العباسي) فكان له دور طويل مع البيزنطيين، بدأ بهدنة وجزية مفروضة على حاكمة هذه البلاد (إيريني) وعندما تولَّى (نقفور) أرسل إلى هارون الرشيد (١٨٧هـ) كتاباً ينقض فيه الهدنة، ويطالب بإعادة الجزية التي دفعتها الإمبراطورة!.

وكتب يقول: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب: أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخّ، وأقامت نفسها مكان البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كانت خليقاً بحمل أمثالها اليوم، ولكن ذلك من حمق النساء وضعفهنّ، فإن قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافقد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

وردَّ الرشيد بكلمات: «من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام».

ثم خرج لمحاربة نقفور؛ فسار يقود جيوشه الجرَّارة، فاخترق آسيا الصغرى، حتى تمكَّن من كسر كبرياء هذا الإمبراطور، وأخيراً عقد صلحاً أرغم فيه الإمبراطور على دفع الجزية من جديد.

هذا هارون الرشيد الذي طالما شوَّه شخصيته المستشرقون وأذنابهم في البلاد الإسلامية، ولكن ذلك لن يضيره.

ثالثاً: وشبيه بهذا موقف المعتصم عندما بلغه خبر المرأة المسلمة التي لطمها سيدها الرومي على وجهها الحرّ الكريم، ونادت: «وا معتصماه».

فلما بلغه أمرها قال: «لبيك يا ابنة الكرام، لبَّيكِ لبَّيكِ.. هذا المعتصم بالله أجابك».

وتجهَّز من فوره في اثني عشر ألف فرس أبلق، تطوي سنابكها الأرض طيّاً ليغيث الملهوف.

وكانت عمُّورية مدينة قد أُحكم تحصينها، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً أو يزيدون، فحاصرهم المعتصم، وطال حصاره لها، وأجهد العدوَّ الحصارُ، وسرعان ما اقتحم أسوارها وشدَّ على المدينة، فدكَّ أسوارها وأشعل النار فيها. وقيل إنه عندما بلغه الخبر كان في يده كأس ماء فلم يشربها، ووقف ولم يقعد.

رابعاً: كانت معركة (ملاذكرد) هي مقدمة الحروب الصليبية، فقد قادها الملك السلجوقي ألب أرسلان (٤٦٤هـ ـ ١٠٧١م) ضدَّ بيزنطة وحقَّق فيها نصراً كاسحاً، وقتل فيها الإمبراطور البيزنطي رومانوس، وأحسَّ الغرب كله أنَّ دولة الروم لم تعد قادرة على حماية وجودها، ومن هنا نشأت فكرة الغزو الخارجي الذي حشدت له الكنيسة وأوروبا كلَّ القوى المدفوعة بإغراء كاذب؛ وهو تخليص قبر المسيح، الذي كان في أمان، ولكنها مؤامرة الغرب على الإسلام.

خامساً: دفعت فريضة الجهاد بالآلاف من المتطوّعين المسلمين في كل عام إلى خوض غمار الحرب ضدَّ البيزنطيين والصليبيين من بعدهم، والذين هدَّدوا حدود العالم الإسلامي، وكانت (الرُّبَط) وهي الأماكن التي رابط فيها المتطوّعة على الحدود ليست مثابةً للحرب فحسب، بل والتعلُّم أيضاً في أوقات السلم، كانوا يفدون إلى بغداد وإلى دمشق من كل صوب للالتحاق بالجبهة.

سادساً: قال بيرس سميث في كتابه عن سيرة المسيح:

«إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها».

سابعاً: عندما دخلت القوات الصليبية (١٠٩٩م) في الحملة الأولى إلى سواحل الشام ولبنان رحَّبت بها المارونية، وتعاونت معها للقضاء على الإسلام وتدمير القدس وفلسطين، ويقول النص التاريخي:

«حتى إذا أطلَّت طلائع الصليبيين على لبنان أمكن الموارنة من أن يمدُّوهم بثلاثين ألف نبَّال، أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم».

ثامناً: ومن أجل موقف هارون الرشيد تعرَّضت شخصيّته إلى حملات قاسية من المستشرقين الغربيين ليصوِّروه بصورة مزرية، وكان هارون الرشيد يحجُّ عاماً ويغزو عاماً، ويبدو أنَّ المؤامرة كانت خبيثة إلى الحدِّ الذي جعل هؤلاء الشائنين يدسُّون مفترياتهم في ثنايا وحواشي السِّيَر الشعبية، تلك التي أتى عليها حين من الدهر، فكان لها أن تنتشر، وأن يكون لها من الذيوع ما لأجهزة الإعلام الحديثة الآن.

* * *

ب ـ مراجعات حول الحملات الصليبية

أولاً: كانت الحملات الصليبية حرباً دينية من أَلِفها إلى يائها، على غير ما يلقِّنون أبناءنا في المدارس، أعلنها البابا أوريان الثاني في خطبته التي ألقاها ذات يوم من خريف (١٠٩٥م):

«اذهبوا دفاعاً عن المسيح، حاربوا الكفَّار، تحرَّكوا نحو القبر المقدَّس، انتزعوا تلك الأرض من سلطان الجنس الملعون، واحتفظوا بها لأنفسكم، وفي تلك الأرض يُعتَصر اللبن والعسل، فأورشليم أرض الله من أخصب الأراضي، وسوف تنتزعون من عدوكم ثرواتٍ أعظم وأضخم».

وهكذا استطاع البابا أن يوجِّه شعوب الغرب الأوروبي نحو غاية واحدة، رغم اختلاف تلك الشعوب جنساً ولغة وعادات واهتمامات، جمعهم تحت راية الصليب.

ويردُ اسم البابا أوريان على استحياء متوارياً بين أسطر، حين يتحدَّث مؤرِّخونا عن الحروب الصليبية، ولكن أحداً من المسلمين لم يدرسه أو يؤرِّخ له، والـخُبطة لم تترجم إلى لغتنا، وما نعرفه منها هو ما قدَّمه لنا الأوروبيون أنفسهم، ولم تنسَ أوروبا هذه الحرب، إنما تدرسها جيّداً وفي عمق، لتأخذ منها العبرة في سياستها الآنيّة والقابلة، حيث تبلغ مصادر الحروب الصليبية في الغرب ستة وعشرين مجلّداً ضخماً.

وفيما قبل الحروب الصليبية بثلاثين عاماً منح البابا إسكندر الثاني المحاربين الكاثوليك الذين يقاتلون مسلمي الأندلس غفراناً، وأعفاهم من التوبة، واعتبر قتالهم المسلمين تكفيراً عن خطاياهم.

ثانياً: يقرّر كثير من الباحثين أنَّ السبب الرئيس في وقوع الغزو الصليبي هو: تفرُّق المسلمين، والمنازعات التي كانت قائمة بين المسيطرين على دُوَلها، والفوضى المحزنة التي عمَّت بلاد الشام نتيجةً لهذه الخلافات والمنازعات.

ويقول الدكتور حسين مؤنس: «وكان بطرس الناسك قد قام برحلة الحجّ إلى بيت المقدس، وأدهشه ما رآه من ضعف بلاد المسلمين، فعاد إلى الغرب وزار روما، ونبَّه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة، فإنَّ بلاد المسلمين في حالة يُرثى لها من الضعف، ولا بدَّ من الإسراع بحملات عسكرية لاستخلاص الأراضي المقدَّسة من أيديهم، وطاف بالبلاد داعياً في حماسٍ شديد إلى الإسراع بحرب المسلمين.

وكانت خُطبة البابا أوريان الثاني في نوفمبر ١٠٩٥م:

«سيروا نحو القبر المقدَّس، وخلِّصوا الأرض المقدَّسة من أيدي الغاصبين».

وقد كان ذلك مطابقاً لرغبة الكنيسة الكاثوليكية في تحقيق ما كانت تطمع فيه من سيادة العالم المسيحي، بتوجُّهها نحو حركة واسعة يشرف عليها رجل الكنيسة.

وكان خوف الروم ـ البيزنطيين ـ من تقدُّم السلاجقة المطَّرد في آسيا الصغرى، وتهديدهم الدولة المسيحية البيزنطية بالزوال، مما دفع الغرب المسيحي إلى الإسراع لإنقاذ ذلك البلد المسيحي، وقد تمكَّنت الكنيسة من قيادة أوروبا وتوجيهها نحو حرب المسلمين في الأندلس والشام وحوض البحر الأبيض المتوسط، ويطالب بالحقّ في سيادة العالم المسيحي.

وقد أنشأ الصليبيُّون ثلاث إمارات؛ في أنطاكية وطرابلس والرها؛ وأقاموا مملكة بيت المقدس.

* * *

جـ ـ دور السلاجقة في المقاومة الإسلامية

يقول الدكتور حسن حبشي: «إن ظهور الإسلام على مسرح التاريخ يعدُّ نقطة انتقال هامَّة في التاريخ الإسلامي، فقد نشأت عدّة دويلات من هذه الزمرة الصغيرة التي خرجت من بخارى، يقودها مسلمون ويدفعها حبها للمخاطرة، أما من الناحية الدينية فقد كانوا حماة الإسلام يذبُّون عن بَيضته وينافحون عنه، ونبغ فيهم رجال نصروا الحنيفية السمحة، كما ظهر في أيامهم أئمة أُدرجوا في عداد المجتهدين».

وحسبنا أن نذكر عن هؤلاء حُجّة الإسلام الغزالي.

قال هربرت لوي: «إنه لا يعزى إليهم فحسب ما مني به الصليبيون من فشل ذريع، بل يرجع إليهم كذلك .الأثر المباشر للشرق على الغرب، ذلك الأثر العظيم عن الاختلاط الذي كان بين الفرنجة والمسلمين في الحروب المقدَّسة، فقد كان ظهور شأن السلاجقة مقوِّياً للمذهب السنّي، كما يرجع إليهم الفضل في إعادة الوحدة إلى الإمارات الإسلامية الممزَّقة، كما أنهم وضعوا أساس الإمبراطورية العثمانية في القسطنطينية، فهم مسلمون هاجروا من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر، ويرجع ظهور سطوتهم إلى هذه الهجرة وإلى اعتناقهم الإسلام، فأصبحوا دعاة المذهب السنّي على عكس الفرس الذين سايروا المذهب الشيعي».

ظهر السلاجقة في وقت كانت عوامل الضعف والانحطاط تعمل في جسم الخلافة العباسية، وقد أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بالحرس التركي، وقد كانت الدولة العباسية يُودى بها لولا أن قيَّض الله لها

السلاجقة فأنقذوا الإسلام، كما أنَّ شموخهم في وجه الغرب أضاف عنصراً جديداً إلى الإسلام مكَّن المسلمين من الوقوف ضدَّ الغزاة الأوروبيين.

وقد وحَّدوا الأقاليم الممتدة من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة، وإنْ كان لفترة محدودة، وردُّوا الصليبيين والبيزنطيين، مادّين في حياة الخلافة العباسية التي ظلَّت قائمة حتى تخريب المغول لبغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

ويُعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية في مصر.

قال لين بول: «إنهم أحيَوْا عصبيّة المسلمين بعد ركودها، وأوجدوا جيلاً من المجاهدين المسلمين المتعصّبين، الذين يرجع إليهم ما مُني به الصليبيون من إخفاق مرّات عدَّة، وهذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة في التاريخ الإسلامي، ويُعدُّ أول قادتهم (طغرل بك) الذي دخل بغداد (١٠٥٥م) وخرج لغزو بلاد الموصل وديار بكر؛ ثم ألب أرسلان الذي انتصر على ملك الروم أرمانوس، وامتدَّت رقعة ملكه من أقصى بلاد ما وراء النهر إلى أبعد أطراف الشام».

ويضيف الباحثون أنَّ الدولة السلجوقية اضطلعت بأدوار مهمَّة في التاريخ الإسلامي، وفي تتريك بلاد الأناضول في أعقاب الهجرات التركية القوية من تركستان إلى الأناضول والبلقان.

وكان الإسلام قد رسم لمختلف القوميّات خطَّة التآخي والتعايُش السلمي، في إطار من العدالة والتوحيد والتعارُف وعدم التفاخُر.

وقد وجدت الخلافة العباسية أنَّ مصلحتها تقتضي الاستنجاد بالسلاجقة، الذين لم تفسدهم الشعوبية والأهواء والبدع، ولم يتسرَّب الفتور إلى حماستهم للجهاد والدين؛ لتحرير دار الخلافة من نير البويهيين الذين هانت عليهم الخلافة العباسية أي هوان.

* * *

د ـ مراجعات حول صلاح الدين الأيوبي

جاء صلاح الدين على قمّة الخطّة التي حرّرت القدس والأرض العربية من الحملات الصليبية، وكانت بداية العمل الذي حقّقه من بعده بيبرس وقلاون وغيرهم.

ولكن صلاح الدين كان مستوفياً العمل الذي مهّد له وأرساه عماد الدين زنكي ونور الدين، وقد حكم نور الدين (٥٤١هـ ـ ٥٦٩هـ) دولة امتدَّت من حدود بلاد فارس حتى صحراء ليبيا، ومن جبال الأناضول حتى النوبة واليمن، وقد أنشأ دولته في وسط تحدّيات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة (في الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين)، وكانوا لا يزاولون حتى ذلك الحين يملكون قوّتهم وحيويّتهم وقدرتهم على الامتداد.

وقد نفّذ سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية ضدّ الصليبيين وعبر المنجزات السابقة التي حقّقها قادة سابقون في مراحل البدايات من (٥٠٢هـ) وخاصة ما قام به عماد الدين زنكي والده (٥٢١هـ ـ ٥٤١هـ) وفتح الطريق لظهور القيادات، التي قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبي.

* * *

وقد استطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه وارثاً فعلياً لأملاك دولة نور الدين بعد وفاته، وأن يجعل مصر وسوريا وأعالي العراق تحت حكمه، فكان ذلك نذيراً بدنوّ ساعة الصليبيين، وكانت مصر صاحبة الزمام جغرافياً

وسياسياً واقتصادياً في تلك الإمبراطورية الصلاحية، ولم يلبث صلاح الدين أن بلغ أقصى ما تمنَّاه بعد أن شنَّ حرباً خاطفة، قضى فيها أولاً على زهرة جنود الصليبيين في حطين وقرب طبرية، وبعد أن استولى على مدينة القدس نفسها، ولم يبقَ من مملكة بيت المقدس بأيدي الصليبيين سوى مدينة صور.

وكان نصر حطين ودور مصر هو السبب في قدوم الحملة الصليبية الثالثة، لإخراج صلاح الدين من مدينة بيت المقدس على الأقلّ.. وكان إخفاقها في تحقيق ما أتت من أجله.

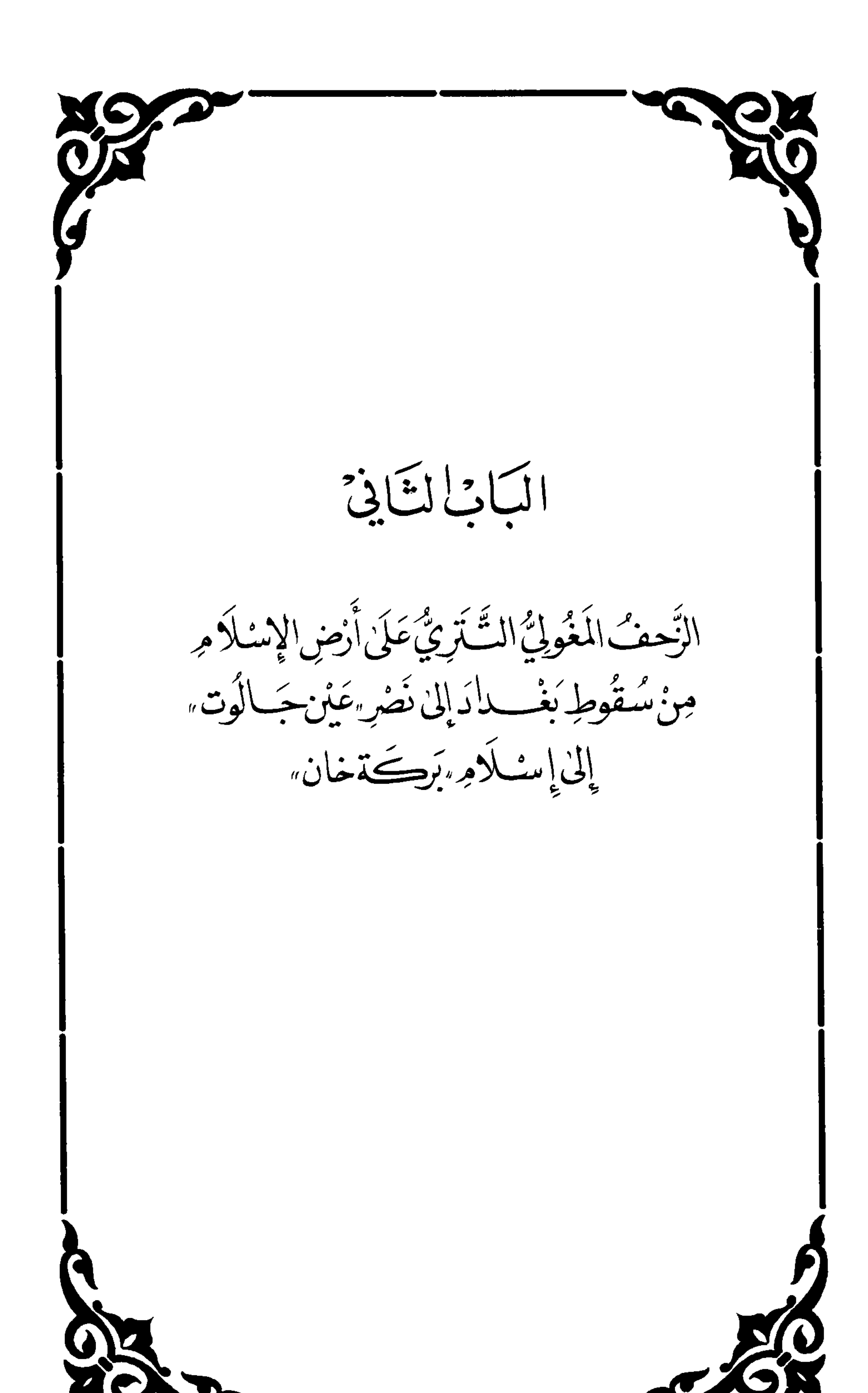
ومن هنا بدت فكرة أنَّ الطريق لاسترداد المملكة الصليبية يبدأ أولاً وقبل كلِّ شيء بالاستيلاء على مصر، ومن هنا كانت الحملة الصليبية الخامسة تتَّجه إلى مصر مباشرة، وتحتلُّ دمياط وفارسكور.

* * *

وقد وصف المؤرِّخ العالمي جيبون في كتابه (سقوط الإمبراطورية الرومانية) صلاح الدين فقال:

«كان متواضعاً لا يعرف البذخ أو الترف، ولا يرتدي سوى عباءته المصنوعة من الصوف الخشن، ولم يعرف غير الماء شراباً، وكان متديّناً قولاً وفعلاً، يشعر بالأسى لعدم تمكُّنه من أداء فريضة الحج، لأنه كان منشغلاً في الدفاع عن الدين الإسلامي، وكان يُحافظ على تأدية الصلوات الخمس في أوقاتها، فيقف خاشعاً مع أصحابه، وإذا ما اضطرَّ إلى الإفطار في رمضان فإنه يؤدّي الزكاة بسخاء بالغ، ومن شدَّة ورعه وتقواه أنه كان يقرأ القرآن وهو على صهوة جواده أثناء المعارك ووسط الجيوش المهيَّأة للقتال».

* * *



الباب الثاني

الزحف المغولي التتري على أرض الإسلام من سقوط بغداد إلى نصر «عين جالوت» إلى إسلام «بركة خان»



الزَّحفُ المَغُولِيُّ التَّتَرِيُّ عَلَى أَرْضِ الإِسْلَامِ
مِنْ سُقُوطِ بَغْدَادَ إِلَى نَصْرِ «عَيْنِ جَالُوت»
إِلَى إِسْلَامِ «بَرَكَة خان»

يقول الأسقف دي سيسل في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية: «لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، فقد هلّل لها الغرب وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحي كتبغا، الذي تعلّق أمل الغرب عليه لتحقيق القضاء على المسلمين، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم المسلمين».

* * *

وعندما هاجم التتار بغداد أو دمشق استقبل نصارى الشام ولبنان جنكيز خان خارج مدينة دمشق، وقدَّموا له الهدايا، وكان معهم صليب يحملونه على رؤوس الناس، وأيَّد المسيحيون في أوروبا حملة التتار، لأن زوجة هولاكو كانت مسيحية، وكان هذا خطوة من خطوات الحلف الذي عقده ملوك أوروبا مع التتار لتدمير البلاد العربية والإسلامية.

لقد اجتاح التتار الشرق الإسلامي بقيادة زعيمهم هولاكو، يدمِّرون مدنه وعواصمه، حتى وصلوا بغداد (٢٠ المحرم ٦٥٦هـ) ومنها إلى الجزيرة والفرات وحلب وحماة ودمشق، ولما وصل التتار إلى حلب (صفر ٦٥٨هـ) اقتحموها.

كان التحالف بين التتار والصليبيين قائماً والتنسيق بينهما متَّصلاً، وكانت ممالك الصليبيين في بلاد الشام والأناضول تعاني من هزائم متلاحقة

بعد هزيمة حطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) وبعد أن تعرَّضت حملتهم على مصر بقيادة الملك لويس التاسع إلى نهاية مروِّعة.

وقد عرض الصليبيون على المغول القيام بالالتقاء بالمسلمين، وقطع الطريق على قواتهم الزاحفة من مصر والشام للقاء التتار.

وأخذ كتبغا دمشق دون مقاومة، ودمَّر القلعة وأسوارها بالمجانيق، وأغار الصليبيون على نابلس.

وتصدَّى الشيخ العز بن عبد السلام لكشف التحالف القائم بين ملك دمشق والصليبيين، ودعا إلى الوحدة بين المسلمين ونبذ الخلاف، وجاء يعرض السلام على مصر، وانضمَّ قطز إلى جيش مصر في بداية المواجهة الحاسمة، وكان قد شارك في معركة دمياط ضدَّ الصليبيين التي أُسر فيها القدّيس لويس.

وفي معركة سقوط بغداد تحالف التتار مع الأرمن والصليبيين ضد المسلمين.

أما التتار فقد زحفوا صوب مصر بعد أن بسطوا سلطانهم على حلب وحماة وبعلبك والبقاع ودمشق، وعبروا فلسطين فوصلوا إلى غزة.

وأرسل هولاكو رسالة إلى الملك المظفَّر قطز تتضمّن إنذاراً شديد اللهجة ممزوجاً بالاستعلاء والاستكبار والوعيد.

وعقد قطز اجتماعاً بالأمراء والأعيان، ووقف الشيخ العز بن عبد السلام يحثُّ على فضائل الجهاد، وتطوَّع الشباب للقتال من الصعيد والدلتا، واستجاب المماليك لصيحة العلماء بالتنازُل عمَّا عندهم من النفائس والحليّ والجواهر، وحسم السلطان قطز الأمر حين أوفد رجاله إلى قصور المماليك يحضرون صناديقهم إلى الديوان.

وأعدَّ قطز عشرات المراكب والمجانيق، وتدفَّق السلاح إلى القاهرة. وكان جيش التتار بقيادة كتبغا في عشرة آلاف مقاتل، وقد عمل على استمالة

الصليبيين بالساحل السوري إلى صفّه، في الوقت الذي تقدَّم فيه جيش المسلمين بقيادة الأمير بيبرس البندقداري نحو غزة، واختار شهر رمضان وذكرى غزوة بدر وغزوة الفتح موعداً للمعركة، وأخفى قطز معظم جيشه في الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت، بعد أن اتَّـجه من عكا نحو الأردن، وعبر الخليل بين نابلس وبيسان، وقتل المسلمون كتبغا قائد الجيش، وتحطَّمت جبهة العدوان وتمزَّقت أسطورة العدو الذي لا يُقهر؛ ولاحق المسلمون فلول التتار.

وبعث بركة خان رسالة إلى الظاهر بيبرس عبَّـر فيها عن تعصّبه للإسلام، وحربه للتتار وقال:

«لقد حاربت هولاكو وهو أخي من لحمي ودمي إعلاءً لكلمة الله وتعصُّباً لدين الإسلام».

* * *

كانت (عين جالوت) في تقدير مؤرّخي الغرب أعظم معركة حافظت على الحضارة الإنسانية كلّها في العالمين الإسلامي والأوروبي، بكل ما عندهما من تراث عظيم، وفيها انتصر جيش مصر الإسلامية على جحافل التتار عام (٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م)، فكسر شوكتهم وحمى البشرية من أخطارهم.

وكان لهذه المعركة ـ كما يقول الدكتور محمد نايل ـ وجهان مضيئان:

١ ـ الوجه العسكري. ٢ ـ الوجه الشعبي.

ولكلٍّ منهما ملامحه وآثاره الواضحة.

وقد حفظ التاريخ بأمانة وصدق دور كل منهما في أي معركة شهدها العالم القديم والحديث، فقد كان دور القيادة العسكرية في موقعة جالوت دوراً بارزاً، فيه من البسالة والإقدام ما سجَّله التاريخ بكلّ فخار وتقدير.

وعلى الجانب الآخر دور القيادة الشعبية، قيادة العلماء.. أعظم

خطراً وأكبر أثراً؛ بحكم أن الروح المعنوية هي السلاح القوي.

لقد كان انتصار التتار في زحفهم على العواصم والحواضر الإسلامية انتصاراً بشعاً، أثار الرعب والفزع في النفوس مما كانوا يفعلون في تلك المواقع من حرق وقتل وتخريب، لم يحدث منذ عُرِف تاريخ الحروب، ولم يكن في استطاعة أي قوة في الأرض أن تواجه هؤلاء القُساة المتوحّشين، ما لم تكن على مستوى غير عادي من الإعداد الروحي المتين، الذي لا يَحْفل بالحياة ولا يهاب الموت.

ولن يستهين الناس بالموت ويتسابقوا إليه ساخرين بالحياة؛ إلا إذا كانت العقيدة هي الدافع المحرِّك، فهي وحدها القادرة المسيطرة.

ولم يكن في مقدور قطز ولا بيبرس من القادة العسكريين أن ينهض بهذه الأمة بإيقاظ الشعور الديني، وإثارة الحميّة الإسلامية للدفاع عن الدين والوطن، فتلك مهمة العلماء والدعاة في كل عصر، ولقد كان علماء الأزهر بقيادة العز بن عبد السلام على مستوى الموقف ومسؤوليته، فنهضوا إلى الموقف بحزم، وألزموا الأمراء والمماليك قبل أن يُلزموا الشعب بما عليهم من تبعات وواجبات، وأمروا المماليك ألاّ يأخذوا من الشعب شيئاً من الضرائب والمكوس التي تلزم المعركة؛ إلا بعد أن يقدّموا ما في خزائنهم من أموال وجواهر، لتكون في خدمة المعركة، وقد انصاع هؤلاء وأخرجوا كل مدَّخراتهم، وعندئذٍ اندفع الشعب يقدّم كل ما يستطيع مما يُبذل للمعركة من مال ورجال، ثم أشعلوها في قلوب الشعب ناراً تتأجَّج، لتحرق أولئك القساة، ولم يكن غير العقيدة حاسماً في المعركة، ولم يكن أمام قطز حين أحسَّ بخطورة الموقف إلا أن ينزل عن جواده ويصرخ في الجنود: «وا إسلاماه».

فكانت الفيصل، وكان النصر.

* * *

دمَّر المغول عاصمة الإسلام (بغداد) تدميراً، وقتلوا الخليفة وأهل بيته، وأعمل هولاكو السيوف في المسلمين بضعة وثلاثين يوماً، حتى بلغ عدد القتلى ثمانمئة ألف قتيل.

وكانت جموع التتار قد تحرَّكت من آسيا الوسطى في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، واستمرَّت هذه العاصفة حتى عام (١٢٦٠م) عندما أوقفها المسلمون في عين جالوت بفلسطين.

وقد تعاون الوزير العلقمي مع القوى الصليبية واليهودية على الخلافة التي كانت وصلت إلى مرحلة من الضعف.

وتروي كتب التاريخ أنَّ العلقمي وزير الخليفة كاتَبَ التتار، ودعاهم إلى دخول بغداد، ودلَّهم على عورات البلاد، وساعد على إضعاف الجيش.

وقد أجمع المؤرِّخون على أنَّ هولاكو قتل كبار بغداد بعد قتل الخليفة وحاشيته، وأن العلقمي لم يُصَب بسوء.

وقد قام التتار بأعمال تخريب ضخمة، كان أشهرها قسوةً إحراق كُتب التراث الإسلامي.

وتذكر المصادر التاريخية أنه بعد سقوط بغداد في يد المغول كانت ردود الفعل القوي تتمثَّل في الحماس الزائد لنشر الدعوة الإسلامية، درءاً للتصدُّع السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي، وظهر ذلك في اعتناق بعض مقاطعات الهند للإسلام، وانتعاش المراكز التجارية الإسلامية التي قامت في أجزاء من سواحل الملبار والكردماندل وشمال سومطرة، التي كانت محطًّاً هاماً للتجَّار المسلمين.

وقد كان لهذا الحدث الخطير نتائجه السريعة، فقد دفع المسلمين إلى كتابة الموسوعات الضخمة التي جمعوا فيها ما تفرَّق بين تراث المسلمين التاريخي والعلمي، فظهرت الموسوعات التاريخية وموسوعات التراجم والموسوعات الجغرافية والديوانية واللغوية، وبرز علم الرجال، وسجّل علم الرجال أسماء البارزين، ودار الجدل حول الإمامة والخلافة، وحمل طابع الوحدة الإسلامية، بأنَّ أمة الإسلام واحدة مع تعدُّد الشعوب المسلمة

من زنج وترك وعرب وفرس، ومغول وبربر وأرمن وهند، وتعدّد الدول وتفاوت الطبقات الاجتماعية. . . وكل هذا ينهى عنه القانون القرآني، أنّ هـذه الأمـة أمـة واحـدة ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وأن الأمة الإسلامية هي آخر الأمم، ولا أمة كبرى بعدها، وأنها آخر الأمم وخير الأمم، وأن المؤمنين إخوة، فهي خير أمة أُخرجت للناس في المعنى الأوسع، فكراً وتقاليد وأخلاقاً وموقفاً حياتياً ونظاماً في الحكم.

وقال المؤرِّخون: «إنَّ تاريخ الإسلام هو تاريخ البشرية الآخر، وإن دولة الإسلام هي الدولة العالمية الحائزة لرضا الله تبارك وتعالى».

وتحدَّث المؤرِّخون عن سقوط بغداد بيد المغول، وقالوا: «إنه لم يكن سقوطاً مادياً بقدر ما كان سقوطاً معنوياً، فتلك العاصمة التي كانت لخمس قرون سلفَت تربط عن طريق الخلافة الإسلامية الشرق الإسلامي ـ الإيراني ـ بالحوض الشرقي العربي للبحر المتوسط والبحر الأحمر، ثقافةً وسياسةً ومجتمعاً واقتصاداً، انتهت مهمّتها بسقوطها في يد المغول. وانقطع الجناح العربي من أرض الخلافة العباسية عن الجناح الشرقي، وقد هاجر هذا المركز غرباً إلى دمشق والقاهرة اللتَين تقاسمتا مركز بغداد السابق، كما توزَّعت هجرة العلماء المسلمين إليها من كل فجٍّ خلال القرنين الثامن والتاسع، فقام عصر من النهضة بُعيد عصر النهضة الإسلامية الثانية.

ولقد كان لنكبة بغداد وتنامي الشعور بالخطر على الإسلام وبلاد الإسلام بعد الحروب الصليبية، وتكرُّر هجمات المغول والتتر في الشرق، وظهور القوى الأوروبية وصراعها العدواني مع القوى الإسلامية في البحر وعلى الأطراف؛ أوجد لدى حَمَلة الثقافة العربية الإسلامية نوعاً من الخوف المصيري على الإسلام وعلى التراث، ولم يتجلَّ في التمسُّك والتشبُّث به فقط، وتناوُله بالتلخيص، ولكنه عكس كذلك في جمعه في مجموعات

شاملة واحدة لا بغية إنقاذه فقط، بل لتأكيده وتثبيته أيضاً.

وهكذا سُمِّي القرن الثامن الهجري بالقرن الموسوعي.

* * *

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ظهرت قوَّة الإسلام وقدرته على إدخال الناس في دين الله أفواجاً، ذلك الحدث الضخم عندما دخل التتار في دين الإسلام.

كانت عين جالوت عامل الإنقاذ الديني، الذي حفظ الحضارة الإسلامية، وحال بينها وبين زحف التتار الذين خرجوا قبل ذلك بأربعين عاماً (٦١٧هـ) من سهول آسيا الوسطى وأطراف الصين، فاجتازوا نهر جيحون، حيث اندفع جيش التتار لا يقف في وجهه شيء، وظلَّ يحطّم ويدمّر كل ما في طريقه، حتى وصل بغداد، فسقطت تحت سنابك الخيل عام (٦٥٦هـ).

ولكن الضربة لم تتأخَّر طويلاً حيث جاء نصر عين جالوت، فأعادت الأمور إلى نصابها، وكفَت العالم كلّه شر هذا الخطر الماحق.

ولكنَّ الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحدّ، فقد كان لمحة ضوءٍ خافتة تتحرَّك في إطار صغير لتتَّسع وتملأ الأفق، في هذه السنوات بالذات بين هزيمة بغداد ونصر عين جالوت كانت القبيلة الذهبية بقيادة بركة خان تدخل الإسلام في أعدادها الضخمة ـ إنهم مغول القفجاق، وهي البلاد الواسعة بين نهر أركش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، والتي كانت من نصيب جوهي أحد أولاد جنكيز خان وأكبر أبنائه، ولما مات جوهي ولـيَ باطوخان الذي تولَّى بعده ابنه بركة خان.

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه معركة بغداد على وشك أن تندلع؛ كان بركة خان يدعو قومه إلى الإسلام فيقبلون عليه زرافات ووحداناً، فقد كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول، ولم يكن على وفاق مع

هولاكو، فقد أعلن خصومته له نتيجة ما فعل ببلاد المسلمين، وقد أرسل يعنّفه على قتل الخليفة المستعصم، وكان من نتيجة ذلك أن منع هولاكو مغول القفجاق من غنائم الحرب، وقد كان بركة خان منذ مطالع شبابه متطلّعاً إلى طريق يهديه إلى الله تبارك وتعالى، وكان عازفاً عن وثنيّة قومه.

ويذكر الجوزجاني الذي يتحدّث عن حياة بركة خان أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته، وأنه لما شبَّ وبلغ سنّ التعليم حفظ القرآن على يد أحد علماء مدينة خوقند، ولقد كان حريصاً دائماً على أن يلتقي بالتجَّار المسلمين القادمين من بخارى، ويستمع إليهم ويناقشهم، وقد تعدَّدت خلواته معهم، وقبِل منهم واعتنق هذا الدين ودعا له القبيلة الذهبية.

وقد تدافع قوَّاده وجيشه إلى الإسلام تدافعاً كبيراً، حتى ذكر المؤرّخون أن جيشه كان مسلماً، وأن كلّ فارس منهم كان يحمل سجّادةً للصلاة، حتى إذا ما حان وقتها انشغلوا بصلاتهم، ولم يكن في جيشه من يتعاطى أي مسكر، وكانت جماعته تضمُّ مشاهير العلماء من المفسّرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام.

وهكذا اتَّسعت دائرة الضوء في نفس اللحظات الحالكةِ الظلام، وعندما كانت تتساقط أعلام الإسلام في بغداد كانت قبيلة القفجاق تهوي قلوبها إلى الإسلام، لتنصره بالقوى المقاتلة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ فقد اتَّصل بركة خان بالمسلمين في مصر، ووضع يده في أيديهم ضدّ مغول هولاكو، وجرت زيارات ومعاونات عسكرية وسياسية ضخمة، فقد واصل هولاكو التحالف مع ملك أرمينية والصليبيين، ليتقوَّى بهم ضدّ المسلمين، وظلّت إغاراتهم بعد (عين جالوت) تتوالى وتجد ردّاً حاسماً لها، وكان هذا الردُّ الحاسم من الظاهر بيبرس في مصر، ومن بركة خان، فقد دخلت القبيلة الذهبية المسلمة في حلف مع المماليك ضدَّ بني جلدتها من التتار، وكان لذلك أثر كبير في ترجيح كفة

المسلمين، وكان أيضاً من العوامل الحاسمة في دخول عديد من زعماء المغول في الإسلام، وفي مقاومة كل مؤامرة أُريد بها خلع بركة خان.

وقد كان الظاهر بيبرس عندما علم بإسلام بركة خان قد كتب إليه وربَط معه صلات الأخوة، وأغراه بقتال هولاكو، ومن ذلك الوقت أصبح بركة والظاهر في كفّة واحدة ضد عدوّهما المشترك، فقد دخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس، الذي فتح باب الودّ والصداقة مع مجموعة من جنود القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين، كانوا قد وفدوا إلى سورية، وكانت مظاهر الحفاوة والتقدير قد فتحت أمامهم باب اعتناق الإسلام، بعد أن أُتيحت لهم فرصة التعرُّف إليه والإعجاب به.

وكان نتيجة لهذه المعاملة الطيبة أن تقاطرت الوفود من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر وسورية، وكانت هذه المجموعات كلّها تدخل في الإسلام معجبة به، كذلك قدمت وفود الملك بركة خان إلى بلاط السلطان، وكانت تحمل كتاباً يقول فيه الملك بركه خان:

«فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي هو من دمي ولحمي لإعلاء كلمة الله ورسوله، وقد سيَّرتُ قصَّادي ورسلي صحبه لرسل السلطان، وقد وجَّهت ابن شهاب الدين غازي معهم، لأنه كان حاضراً الواقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعدُ من عجائب القتال».

وقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس الردّ في سبعين ورقة، وأمر الخطباء أن تدعو للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر في مكّة والمدينة والقدس والقاهرة.

وقد وصلت رسل بيبرس إلى بركة خان واحتفل بهم، وتحدَّثوا كيف وجدوا بركة خان، وله إمامه ومؤذّنه، وكيف أنَّ الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس.

* * *

وكان بركة خان قد أعدَّ جيشاً مقداره ثلاثون ألف جندي لمحاربة هولاكو، وقد قصد هذا الجيش من القفجاق قاصداً إيران، حيث اشتبك مع جيش هولاكو وانتصر عليه عام (٦٦١هـ) وقد تأثَّر هولاكو بهذا الانكسار وفكَّر في معاودة حربه. لولا أنه توفّي على أثر ذلك عام (٦٦٣هـ).

وقد حاول ابن هولاكو السير على سياسة أبيه في العداء للإسلام والتحالف مع الصليبيين، غير أن عمره لم يطلْ وخلفه أخوه (تكودان) الذي اعتنق الإسلام وتسمَّى (أحمد تكودان).

وكان قد اجتذبه إلى الإسلام جماعة من الدعاة الذين اجتذبوا بركة خان من قبل، أولئك المجاهدون المنبثُّون في كل مكان في سبيل الدعوة إلى الله لا يهابون شيئاً ولا يرجون غير رضا الله، ولما توفي أحمد تكودان وخلفه أرغون ابن أبغا حاول العودة إلى سياسة العداء للإسلام، غير أن الموقف كان قد تغيَّر تماماً، إذ كان الإسلام قد سيطر على مغول إيران ومغول جنوبي روسيا، فلما تولَّى غازان سلطاناً على إيلخانية وإيران جعل الإسلام الديانة الرسمية لمغول إيران جميعاً، وتبعوا في ذلك مغول جنوب روسيا.

وبذلك تمثَّل الإسلام من وصل إليه من المغول، وجعلهم أنصاراً له، وكان ذلك عام (٦٨٦هـ) بعد وفاة الظاهر بيبرس بسنوات سبع، وبعد سقوط بغداد بثلاثين عاماً.

قال توماس آرنولد: «لم يكن أحد يتوقَّع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة، وتنهزم البوذية والنصرانية، ويستأثر وحده بالتتار، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشدُّ على المسلمين منها على غيرهم، والفضل في ذلك لهؤلاء الدعاة المخلصين، ، الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم، وأسلوب دعوتهم ورقّة مواعظهم وتجرّدهم من الإنانية والكبرياء، فقد أسلم سلطان كاشغر (تفلق بتحونان) عام (٧٤٧هـ) على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى.

* * *

وثائق تاريخية
لها علاقة بالتحالف بين الصليبيين والتتار

١ ـ أرسل البابا أبوستد الرابع مبعوثاً من الفرنسنسكان اسمه جاير بلاتوكارينشي عام (١٢٤٥م/ ٦٤٥هـ) أي قبل سقوط بغداد بأكثر من عشرين عاماً إلى خاقان المغول في قراقورم لدعوته إلى المسيحية.

اشترط الخاقان دخول المسيحيين الغربيين تحت السيادة المغولية.

٢ ـ في عام (١٢٤٨م) جرت سفارة لعقد تحالُف عسكري بين الصليبيين والمغول ضدَّ الأيوبيين في الشام من ناحية، والخلافة العباسية في بغداد.

٣ ـ في عام (١٢٤٩م) جرت سفارة الملك لويس إلى المغول للتحالف مع النصارى ضدَّ المسلمين.

٤ ـ في عام (١٢٥٥م) عقد تحالُف أرمني مغولي لمحو الإسلام.

بين الصليبيين والتتار

ذاب المماليك تدريجياً في محيط البلاد التي استقروا فيها، وانتشر الإسلام بين التتار بصورة واضحة، وعندئذٍ أمكن عقد صلح بين الطرفين (١٣٢٠م).

ولقد كان العداء بين التتار والمسلمين مختلفاً عنه بين المسلمين والصليبيين، الذين كانوا يدَّعون أن بلاداً مثل الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس كانت بلاداً مسيحية، وكانت لها كنائس راسخة، ، فإذا بالإسلام يغلب عليها تدريجياً، ويتحوَّل معظم أهلها إلى قواعد راسخة في بناء الدولة الإسلامية.

أمَّا العداء بين التتار والمسلمين فلم يكن في جوهره عقائدياً بقدر ما كان توسُّعياً استغلالياً رغم جهود القوى المسيحية في شدّ التتار إلى دائرة المسيحية واستثارتهم ضدّ الإسلام وأهله، وتحويل هجماتهم على بلاد الإسلام إلى هجمات صليبية.

ثم إن الحروب الصليبية التي شنّها العالم المسيحي على الإسلام والمسلمين كانت أوسع نطاقاً، فقد كان شعار الكنيسة الغربية: اضربوا المسلمين حيث تعثرون عليهم؛ في الأندلس، في صقلية، في جزر البحر المتوسط، في شمال أفريقيا، في الشام ومصر، في إقليم الجزيرة وآسيا الصغرى.

بل لقد خرج الصليبيون في البحر الأحمر لضرب مقدّسات المسلمين في الحجاز، واتصلوا بالحبشة بوصفها القوّة المسيحية الكبرى في وسط أفريقيا لتطويق العالم الإسلامي من الجنوب والشمال.

وعندما استقرّ الصليبيون في بلاد الشام، وأقاموا عدّة إمارات وسط المحيط الإسلامي؛ ظلّت هذه الإمارات على اتصال مستمرّ بالعالم المسيحي الذي حرص على أن يغذّيها بالرجال والنساء وبالسلاح والمال، مما مكّن الصليبيين من الاحتفاظ بأصولهم، وساعدهم على عدم الذوبان في البيئة الجديدة، وجعل منهم ركيزة لمزيد من الحملات الصليبية، التي استمرّت طوال قرنين تخرج من الغرب الأوروبي إلى الشرق الإسلامي.

وقد كانت المعركة مع الصليبيين هي المحكّ الأول الذي أظهر فيه المماليك مقدرتهم العسكرية وشجاعتهم في الدفاع عن الإسلام على أرض المنصورة في دلتا النيل، وقد كانوا أبعد نظراً فقرّروا ألاّ يدخلوا المعركة ضد الصليبيين في وقت واحد، وكانوا قد بدؤوا بالخطر التتري لأنه كان أكثر إلحاحاً وأشدّ فتكاً وأوقع أثراً.

ولقد شنّ المماليك حرباً شعواء على الكيان الصليبي في بلاد الشام ووضعوا نصْب أعينهم هدفاً كبيراً لم يحيدوا عنه، وهو ضرورة اقتلاع ذلك الكيان من جذوره، وتطهير البلاد تماماً من الدُّخلاء الغاصبين، وهكذا ما كاد قطز يفرغ من انتصاره الخالد على التتار في عين جالوت حتى بدأ خلفه الظاهر بيبرس المعركةَ ضد الصليبيين، وهي المعركة التي توَّجها بالاستيلاء على أنطاكية (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م).

والمعروف أنَّ أنطاكية كانت أوَّل إمارة أسَّسها الصليبيون في بلاد الشام، وثاني إمارة أسَّسوها بعد الرها، ولذلك جاء سقوطها إيذاناً بتداعي بقايا البناء الصليبي، وغنِم المسلمون غنائم ضخمة، حتى قُسمت النقود بالطاسات، أما الأسرى فقد بلغ من كثرتهم أنه لم يبقَ غلام إلا وله غلام.

ولم يقف دور المماليك في الدفاع عن ديار الإسلام ضدّ الهجمات الصليبية، لم يقف عند حدّ طرد الصليبيين من بلاد الشام، وما كاد الظاهر بيبرس يسمع بحملة لويس التاسع على تونس (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) حتى أعدّ

حملة للدفاع عن هذا البلد الإسلامي، وشرع فعلاً في حفر الآبار في الصحراء في طريقهم من مصر إلى تونس.

وبعد انتهاء الحروب الصليبية لجأت البابوية ودعاة الحروب الصليبية إلى شنّ حرب بحريّة على موانئ المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط، واتخذوا من جزيرَتي قبرص ورودس مراكز لهذه العمليات الحربية، ولم يكتفِ الغرب المسيحي بفرض حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام ليحرم دولة المماليك من المورد الأساسي لثروتها وقوتها، وإنما قام ملك قبرص بحملة على الإسكندرية (١٣٦٥م) دمَّر فيها المدينة، وقد قام الأشرف برسباي بثلاث حملات بحرية على قبرص انتهت بالسيطرة على الجزيرة وأسر ملكها.

* * *

بدأت هذه الجولة بالحملات الصليبية التي احتلّت الديار الشامية وأقامت الإمارة اللاتينية عاصمتها أنطاكية، وامتدت من (١٠٩٨م - ١٢٦٨م)، وتعاقب على حكمها اثنا عشر من أمراء الإفرنج النورمان، كان أوَّلهم بوهيمون الأول وآخرهم بوهيمون السادس، وكانت هزيمة الثالث من حزيران في عهد الملوك والرؤساء والخلفاء: عهد التجزئة والانفصال والتآمر مع الأعداء، وجاء ٢٠ حزيران من عام (١٢٦٨م) حيث تبدّل الحال فلم يكن على مسرح الأحداث ملك دمشق وملك حلب وأمير الموصل وأمير حماة وأمير أنطاكية ولا الخليفة في بغداد ولا الخليفة في القاهرة.

لم يبقَ هؤلاء، وإنما جاء رجل واحد هو الظاهر بيبرس وقاد الأمّة من جديد.

«أحمد الشقيري»

* * *

ملاحق البحث

أولاً: المغول والتتر قبيلتان حملتا معاً لواء الحملة على بلاد الإسلام، وخرج منهما جنكيز خان وهولاكو، وعمل لويس التاسع وغيره من زعماء الحروب الصليبية إلى كسبهم وإقامة حلف معهم يحصر الإسلام بين دفّتيه.

خرج المغول من إقليم الهوب الواسع الذي يعرف بمنغوليا على حدود سيبيريا حوض نهر الفولجا، وتمتد منازلهم إلى ما وراء النهر مما يعرف الآن بتركستان وشمالي إيران، وقد امتزج الشعبان: التتار والمغول.

وفي عام (١٢٠٦م) عُقد لجنكيز خان اللواء، وبايعه أمراء المغول إمبراطوراً على العالم، وبعد أن ساد آسيا كلّها (عدا الهند واليابان) التفتَ إلى الغرب وانقضَّ على عالم الإسلام، وقد طرق أبواب عالم الإسلام (١٢١٥م) من إقليم خوارزم، وقد دمَّر التتار عواصم الإسلام في التركستان وإيران، وبلغوا سمرقند (١٢١٩م) ثم مرو. وتوفي جنكيز خان (١٢٢٧م).

يقول الدكتور حسين يونس: «اقتحم المغول دار الإسلام بعد مئة وخمس وعشرين سنة من حرب صليبية طاحنة مخرّبة، في السنة التي انقضَّت جحافل جنكيز خان على بلاد ما وراء النهر، وكان الصليبيون يحاصرون دمياط.

وقد استعاد صلاح الدين القدس (أكتوبر ١١٨٧م) وكان جيشه مكوَّناً من عرب وأتراك وأكراد وتركمان، وألوف من المجاهدين المتطوّعين من صوفيّة وغير صوفيّة، وقد أنشأ إمبراطورية واسعة شملت الشام ومصر والموصل والجزيرة الفراتيّة والحجاز واليمن، أما خلفاء صلاح الدين فقد منحوا بقايا الصليبيين في أنطاكية وطرابلس وعكا امتيازات جديدة.

في هذه المرحلة وأمّة العروبة والإسلام تعاني من العدوان الصليبي الذي أنهك قواها، واسترق ديارها من قرن ونيّف؛ انهال على بلادها طوفان المغول من الشرق هائلاً مخرّباً دموياً. وفي عام (١٢١٨م) ـ التي استولى فيها الصليبيون على دمياط أول مرة ـ طرقت جحافل المغول أبواب العالم الإسلامي، وسقطت في يدهم سمرقند.

ثانياً: في أواخر أيام كيوك خان ـ خليفة جنكيز خان ـ جاء لويس التاسع إلى قبرص (١٢٤٨م) ليستعدّ منها للإبحار إلى مصر لغزوها، وتقدّم إلى بلاطه راهبان نسطوريان يسمّيان مرقص وداود، وقالا إنهما رسولان من خاقان المغول لعقد اتفاق للتعاون بينه وبين الصليبيين والمغول للقضاء على الإسلام وأهله نهائياً.

وردّ لويس التاسع بالإيجاب، وأرسل وفداً من بينه الراهب أندريه لونحيمو ممثّلاً للبابوية، وانضمّ إليهم ملك الأرمن وتعطّل التحالف بعض الوقت، وأرسل هولاكو من قبل خلفاء جنكيز خان (١٢٠١م) للقضاء على الخلافة العباسية من بعد، ونشطت السفارات بين لويس التاسع وجنكيز خان، ونتيجة هذه السفارات توجّه هولاكو نحو العراق ليفرغ من أمر الخلافة العباسية، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم ـ الخليفة السابع والثلاثين ـ من خلفاء بني العباس، وكان يدبّر له الأمر وزير شيعي هو مؤيّد الدين بن العلقمي، ولا شك في أن الوزير ابن العلقمي كاتَبَ هولاكو سرّاً، وتآمر على الخليفة ظنّاً منه أنّ المغول يشكرون له هذا الصنيع.

ودخلت قوّات المغول بغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٧م) وكان في صفوفهم رجال كثيرون يمثّلون كل الجماعات المسيحيّة الغربية.

ومن الحقّ أن نقرر أن (المستعصم) رفض أن يتنازل عن سلطانه على رعاياه لملك غير مسلم هو (هولاكو).

ودمَّر المغول عاصمة الإسلام تدميراً، وقتلوا الخليفة وأهل بيته

أجمعين، وتولَّى اجتياح بلاد الشام قائد مغولي نصراني هو (كتبغا) الذي تحرَّك نحو الشام، وتولَّى هولاكو قيادة قلب الجيش، واصطحب معه زوجته المسيحية ظفر خاتون، وتُجمِع المصادر على أنَّ كتبغا وظفر خاتون اعتبرا الحملة على الشام (حملة صليبية ـ مغولية).

واستولى التتار على (نصيبين) و(حلب) و(دمشق) ثم استعدُّوا للزحف على مصر للقضاء على ما بقي من مراكز الشرق والإسلام، وكانت هزيمتهم في عين جالوت بقيادة قطز وبيبرس.

وتقرِّر المراجع أن البطل الحقيقي للمعركة كان (بيبرس) فهو الذي اجتهد في استدراج كتبغا بقوَّات لا تحصى، حتى وصل به وبجيشه إلى موقع متوسّط بين الكمائن، وهنا انقضَّت عليه كمائن المماليك فأتت عليه، وكان سيف الدين قطز هو صاحب الفضل الأول في النصر.

ثالثاً: دخل الإسلام بلاد التتار وحوَّل هذا الخصمّ الهائل إلى صفّ الدين الحقّ، وكان ذلك في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان ذلك في عهد الخليفة جعفر المقتدر بالله (٩٠٨م ـ ٩٣٣م) فقد أرسل ملك شعب البولغار، وكان يدعى بصلطيق إلى الخليفة ليطلب منه تلقين الدين الإسلامي الذي سمع عنه الكثير من المآثر الأخلاقية.

واستجاب الخليفة للطلب، ووصلت البعثة الإسلامية إلى أعالي نهر الفولجا وكان رئيسها سوسان الراسبي، وسمَّى نفسه جعفر بن عبد الله، ولايزال هذا اليوم يعتبر عندهم من أهمّ أيام السنة، وبعد مرور أقلّ من ثلاثة أشهر على اعتناق ملك البولغار الدين الإسلامي عمَّ الإسلام الشعب البلغاري بأجمعه، وانتشر كذلك في الشعوب المجاورة مثل المارين النشوفاشين.

ولما جاء التتار إلى المنطقة وكانوا قوماً ملحدين اصطدموا بالمسلمين، ولكن بعد مرور خمسين سنة على احتلالهم المنطقة اعتنقوا الإسلام، وكان أول قادتهم بركة خان (١٢٥٧/ ١٢٦٦م)، ويُقدّر عدد التتار اليوم بسبعة

ملايين، وقد قامت الحكومة السوفييتية بتذويب التتار المسلمين وتجريدهم من تراثهم الثقافي والعلمي، وفرضت الحرف اللاتيني، وتوقَّف الحرف العربي.

رابعاً: يقول الأسقف دي سيسل في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية:

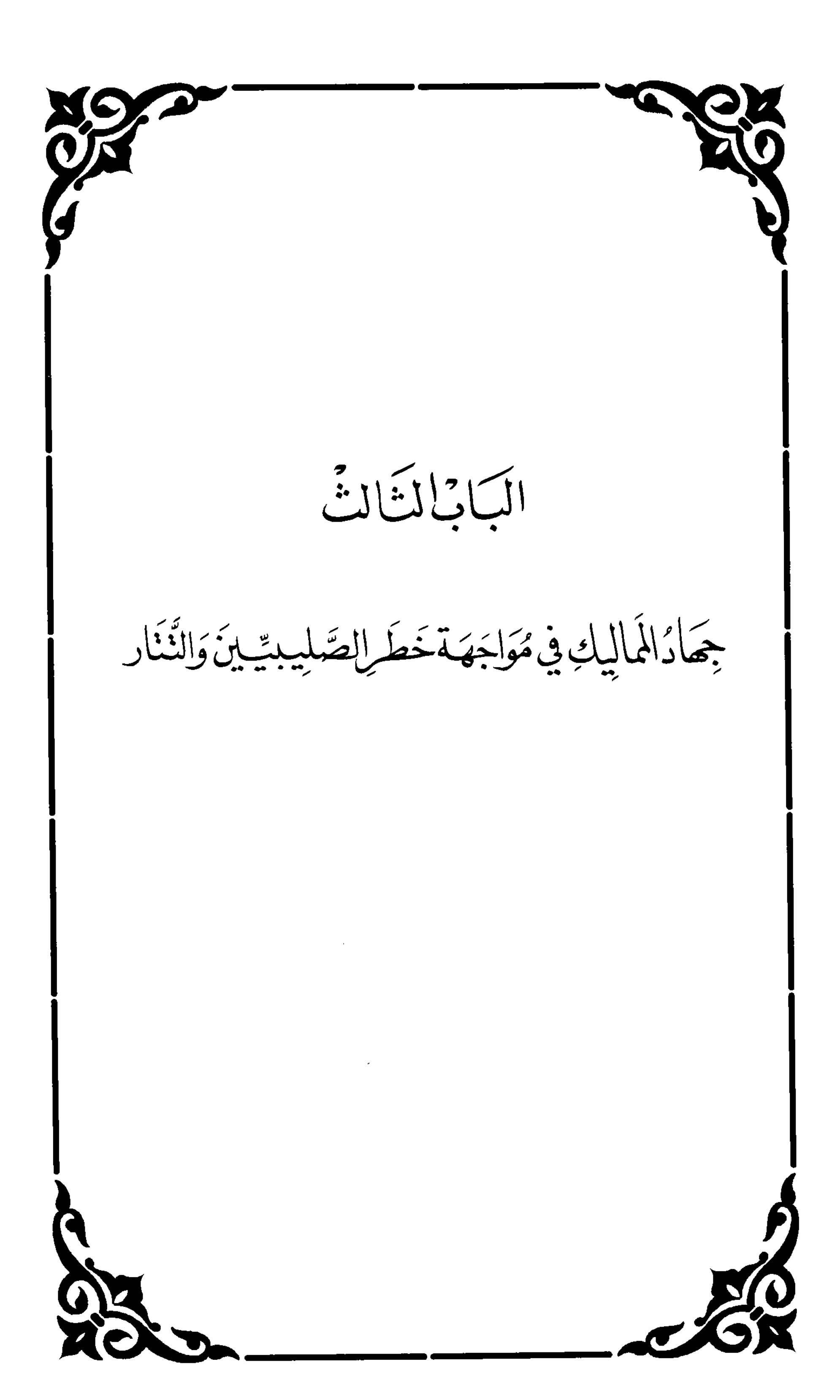
«لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، وقد هلّل لها الغرب، وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحي كتبغا، الذي تعلّق أمل الغرب عليه لتحقيق القضاء على المسلمين، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية، ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على يد التتار خصوم المسلمين».

ويقول في نص آخر:

«إنه عندما هاجم التتار دمشق (بعد بغداد) فقد استقبل نصارى الشام ولبنان جنكيز خان خارج مدينة دمشق، وقدّموا له الهدايا، وكان معهم صليب يحملونه على رؤوس الناس، ومن حاشية جنكيز خان عدد كبير من المسيحيين، ومن بينهم قائده كتبغا، وأيّد المسيحيون في أوروربا حملة التتار لأن زوجة هولاكو مسيحية، وكان هذا مقدّمة للحلف الذي عقده ملوك أوروبا مع التتار لتدمير البلاد العربية والإسلامية».

خامساً: عندما طرق التتر أبواب البلاد الإسلامية، وجمع قطز القضاة والفقهاء؛ قال عز الدين بن عبد السلام: «إنه إذا طرق العدو بلادَ الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الأدوات المذهَّبة والآلات النفيسة، ويقتصر الجند على مركوبهم وسلاحهم، أمَّا أخذ الأموال من العامَّة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا».

* * *



البَابُ الثَّالِثُ

جِهَادُ المَمَالِيكِ فِي مُوَاجَهَةِ خَطَرِ الصَّلِيبِيِّينَ وَالتَّتَار



جِهَادُ المَمَالِيكِ فِي مُوَاجَهَةِ خَطَرِ الصَّلِيبيِّينَ وَالتَّتَار

١ ـ هذه المرحلة العاصفة التي تفجَّرت فيها المؤامرات على الإسلام كشفت عن عناصر جديدة من المسلمين، حملت لواء الدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيله، والاستشهاد من أجل حماية بيضته، تتمثَّل في السلاجقة والأكراد والمماليك.

فمن السلاجقة ظهر عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، ودورهما في مواجهة الحروب الصليبية قوي وبارز.

ومن الأكراد ظهر صلاح الدين الأيوبي، الذي استردَّ بيت المقدس من أيدي الصليبيين.

ومن المماليك قطز والظاهر بيبرس وقلاون والأشرف بن قلاون.

وكان دور المماليك قوياً وممتدّاً وحاسماً، فقد استطاعوا بعزيمة جبّارة تصفية نفوذ التتار والصليبيين وتحقيق أكبر نصر في هذا المجال.

ولم يكن ذلك غريباً؛ فقد كان الإسلام هو دين كل العناصر والأجناس التي اعتنقته، وقد كان لا بدَّ عندما تراجَع العرب أن تكشف العناصر المسلمة الأخرى عن قدرتها وكفاحها، فلم يكن الإسلام ديناً مقتصراً على العرب، وإن حملوا هم لواءه وأذاعوا به إلى الآفاق.

لقد امتدّت دولة المماليك ثلاثة قرون قضاها رجالُهم في مقاومة الاحتلال الأجنبي والسيطرة الخارجية.

وليس صحيحاً أنَّ المماليك قد انتزعوا حكم البلاد من العرب، أو أنهم أسَّسوا دولتهم بالخيانة، وإنما هم مرحلة طبيعية في تاريخ الإسلام،

جاءت بعد أن وصلت مرحلة المدّ العربي إلى غايتها في أواخر الدولة العباسية، وكان لا بدّ أن ينطلق الإسلام من داخله وعلى أيدي رجاله.

وقد أثبت المماليك أنهم قادرون على الصمود في وجه هذه القوى المتصارعة، فعصر المماليك هو في تقدير كثير من المؤرّخين المنصفين هو عصر الإنقاذ:

أولاً: أنقذوا الحضارة الإسلامية من الدمار العام على أيدي المغول حين حطَّموا قوات التتار في عين جالوت.

ثانياً: أنهَوا الحكم الصليبي في بلاد الشام، وأحيَوا الخلافة الإسلامية، وجعلوا مركزها القاهرة.

ثالثاً: كان الظاهر بيبرس هو أبرز هؤلاء الأبطال، فقد قاد معركة عين جالوت مع قطز، ثم هو الذي انتزع صفد ويافا والشقيف وأنطاكية من الإفرنج.

رابعاً: أقام منهج الإصلاح الاجتماعي على شريعة القرآن؛ فأراق الخمور وهدَّد من يعتصرها، وأبطل المفسدات والانحرافات.

وبذلك دخل المجتمع الإسلامي إلى دائرة الأصالة مرة أخرى.

كذلك فقد شجَّع المماليك اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم حرصاً منهم على الاحتفاظ بالطابع الإسلامي كاملاً.

كما تميَّز عصر المماليك بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ.

وفي عهدهم ظهرت الموسوعات الآتية:

القلقشندي ـ صبح الأعشى.

ابن منظور ـ لسان العرب.

ابن تيمية ـ الفتاوى.

ابن خلّكان ـ وفيّات الأعيان.

ابن كثير ـ البداية والنهاية.

الذهبي ـ سير أعلام النبلاء.

ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة.

* * *

٢ ـ يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور:

«كادت البلاد العربية في العصور الوسطى أن تتحوّل إلى إمارات لاتينية لا عربية ولا مسلمة، لولا جهاد المماليك البحرية، الذين أنشأهم السلطان العظيم نجم الدين أيوب آخر سلاطين بني أيوب في مصر والشام، ذلك أنَّ الذين صدّوا غارات الأجانب على البلاد العربية في تلك الفترة لم يكونوا عرباً بالدم والأصل، بل كانوا أكراداً مثل صلاح الدين ونور الدين، أو تركماناً مثل قطز وبيبرس وقلاوون وابنه خليل، وهم السلاطين الأربعة المماليك الذين استردُّوا كل شبر من الأرض العربية استولى عليه الغزاة الأوروبيون، مما يعرفه التاريخ بالحروب الصليبية التي استمرَّت مئتي عام تقريباً، وأخذ فيها هؤلاء الغزاة مناطق شاسعة من سورية وفلسطين ولبنان.

وقد بقيت مدينة طرابلس ـ مثلاً ـ في أيدي الفرنجة (١٨٥ عاماً) حتى استردَّها سيف الدين قلاوون سلطان مصر، وهو السلطان العظيم الذي يتّخذ بعض الناس من اسمه مادّة للفكاهة،، وهو المملوك التركماني الذي تحرّرت على يديه وعلى يد ابنه خليل من بعده سواحل فلسطين ولبنان وسورية؛ مثل عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وطرسوس واللاذقية.

وهكذا فإنَّ المماليك الثلاثة (قطز وبيبرس وقلاوون) وأولادهم من بعدهم هم الذين حرَّروا البلاد العربية (مصر والشام) من الغزاة الأوروبيين، وأعادوا إلى كل شبر عربي وجهه العربي بعد أن طمسه الغزاة المستوطنون في تلك العصور.

وقد قضى السلطان الظاهر بيبرس حياته كلّها يحارب في جبهتين؛ إحداهما ضدّ التتار، والأخرى: ساحل فلسطين ولبنان وسورية، وعلى يديه تحرّرت يافا وصفد وطبرية، وأنطاكية التابعة الآن لتركيا.

ما صنعه المماليك التركمان أنهم استردُّوا الشام كلّه من المستوطنين الصليبيين، وأحبطوا غزواتهم لمصر، فحفظوا بذلك البلاد العربية، ويقدّر عدد الشهداء خلال مئتي عام ثلاثة ملايين شهيد».

نعتذر عن لهجة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذي لم يستوعب القصة في دائرة الغزو الأكبر ضد الإسلام أساساً وليس العرب، والتي جمعت بين الصليبيين والتتار في مخطّط واحد وفي مؤامرة مرسومة، فقد كان المماليك التركمان كما يحلو له أن يسمّيَهم مسلمين أولاً وأخيراً، وقد كانت عزيمتهم القوية لتحرير الأرض إنما هي عزيمة إيمان إسلامية أساساً، ولم تكن قضية أمة عربية أو مستوطنين أوروبيين، وإنما أكبر من ذلك بكثير.

ومن هنا نعرف مصدر الحملة الشديدة التي يوجّهها المؤرّخون الغربيون للمماليك، لأنهم هم الذين حطّموا الوجود النهائي للصليبيين في ساحل الشام، ولقد كان الدكتور سعيد عبد الفتاح من المدافعين عن المماليك بحقّ في وجه مخطَّط الحملة على المماليك والعثمانيين.

ومن ذلك قوله: «إنَّ مَن يقرأ المقريزي وابن تغري بردي من مؤرّخي المماليك يستطيع أن يعرف مَن هم المماليك، وماذا فعلوا، وكيف كانوا فئة من أبرز ما عُرف تاريخياً بطولةً وتجرُّداً وغيرةً على البلاد والعباد.

أما مَن يقرأ كتابات ابن إياس والجبرتي فإنهم يتحدّثون عن المماليك العثمانيين». اهـ.

* * *

ولقد تحدَّث الباحثون بإفاضة عن الجهود الجبّارة، التي بذلها سلاطين المماليك في سبيل توجيه القوى الإسلامية في الشام ومصر، للوقوف في وجه

أعداء الإسلام؛ المغول والصليبيين، هذه الجهود التي أثمرت طرْد المغول من بلاد الشام، وتطهير سواحله من بقايا الوجود الصليبي.

وقد جاء ذلك دعوة إلى مطالبة الأمة الإسلامية في عصرنا إلى تكرار ما فعله المماليك، من جمع الكلمة ووحدة الصفّ، وتجديد إحياء فكرة الجهاد المقدّس ضدّ أعداء الإسلام، لاستعادة المسجد الأقصى أُولى القبلتين وثالث الحرمَين الشريفين ومسرى نبيّنا محمد ﷺ.

* * *

٣ ـ يقول الدكتور عبد الله الغامدي في رسالة جهاد المماليك ضدّ المغول والصليبيين:

«إنه بعد أن حقّقت معركة عين جالوت الانتصار الحاسم على المغول وحلفائهم، والذي غيّـر موازين القوى، وما ترتّب عليه من نتائج عظيمة كان أهمها الخسائر المادية والمعنوية التي مُنيَ بها المغول، والذي انتهى بطردهم نهائياً من بلاد الشام، واكتساب دولة المماليك صفة الشرعية الكاملة، بعد أن نجح السلطان الظاهر بيبرس في إحياء مشروع الخلافة العباسية في القاهرة، فضلاً عن إضعاف مركز الإمارات الصليبية في ساحل بلاد الشام. وعندما تأكّد السلطان الظاهر بيبرس من أنَّ الأوساط المغولية والمسيحية قد أقامت حلفاً مغولياً صليبياً لمواجهة الخطر المملوكي؛ عمل بيبرس على احتواء هذا الحلف وإسقاطه حين قام بعقد معاهدات صداقة مع القوى التي كانت على عداء مع المغول والصليبيين.

ثم لم يلبث أن بدأ في تنفيذ الخطط الحربية البارعة التي بذلها للإطاحة بإمارة أنطاكية الصليبية، التي أسهمت بزعامة أميرها الصليبي (وهمند) إسهاماً فعّالاً في مساعدة المغول أثناء اكتساحهم للقوى الإسلامية في المشرق الإسلامي، وكذلك الحال بالنسبة لمملكة أرمينية الصغرى التي مارس ملكها هيوم الأول الدور نفسه في مساعدة المغول في ذلك الهجوم الكاسح، حيث

لقّنه السلطان الظاهر بيبرس درساً قاسياً لم يستطع بعده تقديم أي مساعدة تُذكر لحلفائه المغول.

ثم وقعت انتصارات بيبرس على المغول في أعالي الشام والأناضول، عندما حاولوا اكتساح مدن الشام من تلك الناحية، بعد أن عجزوا عن مهاجمتها عن طريق معابر نهر الفرات.

ثم جاء دور أسرة قلاون ضدّ المغول والصليبيين استكمالاً لدور بيبرس، حيث تحقَّق النصر العظيم على المغول في معركة حمص الشهيرة، التي أطاحت بآمال المغول في انتزاع بلاد الشام من أيدي المسلمين مرة أخرى.

ثم كان جهاد المنصور قلاون وابنه الأشرف خليل ضد الصليبيين في بلاد الشام، والخطط الحربية البارعة التي نفّذها الأوّل ضدّ الصليبيين، حتى تمكّن من السيطرة على إمارة طرابلس الصليبية، ثم شروعه في الإعداد للاستيلاء على آخر معاقل الصليبيين في الشرق الإسلامي، وهي بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية في مدينة عكا وما جاورها؛ هذه المهمة التي أكملها الأشرف خليل الذي حقَّق آمال المسلمين في اقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي.

* * *

٤ ـ دور العناصر الإسلامية غير العربية:

يؤكّد الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أنَّ القول الذي شاع وذاع بأنَّ عصور المماليك كانت كلّها عصور انحطاط؛ قول مردود، وأنَّ المؤرّخين الذين قالوا به قد ظلموا المماليك ظلماً شديداً. يقول في تحليل ما وجّه إلى المماليك:

«**أولاً**: ربّما جاء إسهام غير العرب من الشعوب التي دخلت في الإسلام في حمل الأمانة ومواصلة حركة المدّ الإسلامي دليلاً على نجاح العرب في التبشير بالإسلام وإيصاله مكتملاً إلى تلك الشعوب، والتمكين لمبادئه في قلوبهم، بحيث غدَوا في مرحلة لاحقة عدّة الإسلام وأداته في الجهاد في هذه

الشعوب؛ وعلى سبيل المثال: (البربر) الذين ما كادوا يدخلون في دين الله حتى أسهموا بقيادة زعيمهم طارق بن زياد في فتح الأندلس، وظلّ البربر طوال عدة قرون يمثّلون حرّاس الإسلام في المغرب الإسلامي، في حين غدت بلادُهم شمال أفريقية بمثابة المخزن البشري الكبير، الذي يمدّ دولة الإسلام في الأندلس بالجند والمجاهدين، كلّما اشتدَّ الضغط المسيحي عليهم.

ثانياً: من أبرز أسرار عظمة الإسلام وقدرته على الصمود في وجه الأخطار التي هدّدته أنه كان قادراً على تجديد دمائه مع الاحتفاظ بأصوله، فما كاد يضعف العنصر العربي في مدافعة أعداء الإسلام حتى برز دور الأتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ثم المماليك فالأتراك العثمانيون؛ جميعهم كانوا بمثابة دماء جديدة، زوّدت أمة الإسلام بطاقاتٍ كبرى مكّنتها من الصمود، بل التغلّب على الأخطار الكبرى التي تعرَّض لها، دون أن يتوقَّف دور العنصر العربي عن مواصلة الجهاد.

ولقد سوَّى الإسلام في جوهره وشريعته بين مختلف العناصر والأجناس والشعوب التي دخلت فيه، وجعل منها على اختلاف أصولها وتبايُن ألوانها أمة واحدة هي أمة الإسلام، الأمة التي اختارها الله تبارك وتعالى، فجعل منها خير أمّة أُخرجت للناس، هي أمة الإسلام لا أمّة العرب، ولم يجعل للعرب الوصاية أو الأسبقية، وإنما جعل لها التكريم لا التفضيل؛ الكتاب بلسانها، والنبي منها، وبيت الله الحرام في أرضها.

وقد استوعب الإسلام أجناساً كثيرة من الكرد والترك والعجم وغيرهم، فأصبح وطنهم هو كل بلاد الإسلام، وتطوّرت مهمّة الجزيرة بعد المرحلة التاريخية الأولى ـ مرحلة الفتوحات ـ فلم يعودوا هم القلّة المقاتلة والقائدة في الدولة، وامتزجت القبائل العربية بالناس جميعاً في بلاد الإسلام، وظهر المسلم مجرّداً، لا بديلاً لسَلَفه العربي بل أخاً له، وأصبح السلطان ولو كان أعجمياً هو بمنزلة السلطان العربي.

ثالثاً: أسهمت القبائل والإمارات العربية في بلاد الشام والعراق في الدفاع عن الكيان الإسلامي ضدّ الغزو الصليبي، ولكن الحقيقة التاريخية أن الصفحة المشرِّفة التي سجّلها الحمدانيون في معركة الجهاد ضد الروم؛ تعتبر بمثابة خاتمة لدور العنصر العربي في مدافعة أعداء الإسلام.

رابعاً: وجاءت المقاومة الرئيسة التي صادفها الصليبيون من جانب الأتراك السلاجقة؛ سلاجقة الروم وسلاجقة الشام وسلاجقة فارس.

وانبعثت حركة الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى من بين صفوف السلاجقة الأتراك بالذات، وقد تزعَّم هذه الحركة أتابكة البيت الزنكي بالموصل. وبفضل جهود عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود امتدَّت الجبهة الإسلامية الممتدَّة من الفرات إلى النيل، من الموصل إلى القاهرة مروراً بحلب ودمشق، ولم يكن عماد الدين وابنه نور الدين محمود عرباً.

كذلك لم تكن الجيوش التي اعتمد عليها البَطَلان مؤلَّفة في جوهرها من عناصر عربية خالصة، وإنما جمعت مجاهدين أتراك وأكراد، ألَّف الإسلام بين قلوبهم، ثم ظهر القائد الكردي شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي ورث سيّده نور الدين في دولته الواسعة، ثم في سياسته ضدّ الصليبيين.

والثابت أنَّ سلاطين بني العرب وملوكهم اعتمدوا في حركة الجهاد الواسعة التي قاموا بها ـ وخاصة في الشام ومصر ـ على جيوش مؤلّفة غالبيتها من الأتراك والأكراد ـ على قول المؤرخ أبي شامة ـ ومعها أقلّيات متعاونة من العرب والتركمان.

خامساً: ثم ظهر المماليك، وقد استُخدم المماليك في عهد الصالح نجم الدين أيوب بأعداد كبيرة، مما أنشأ طليعة ضخمة تمكّنت في نهاية الأمر من السيطرة على شؤون الحكم، وازداد نفوذهم تدريجياً بعد أن تمكَّنوا من إنزال ضربة قاصمة بـ (لويس التاسع) وحملته الصليبية على مصر، مما أضفى

عليهم هالة من المجد، وأظهرهم في صورة الأبطال القادرين على حماية الإسلام.

وقد أقاموا دولةً حكمت مصر والشام أكثر من قرنين ونصف من الزمان، ومدَّت نفوذها على بعض بلاد الشرق الأدنى.

وكان لهم دورهم الحاسم في تصفية المؤامرات الثلاث:

١ ـ الممالك اللاتينية التي أقامها الصليبيون.

٢ ـ معاقل التتار في الشام.

٣ ـ تصفية الباطنية: أتباع الحسن الصباح».

* * *

٥ ـ الدورة التاريخية:

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور:

«إن دولة واحدة على مرّ العصور لم يقدّر لها البقاء على حال واحد من الرفعة والقوة، وإنما التاريخ أيام يداولها الله تبارك وتعالى بين الناس، وفي مرحلة معيّنة خضعت الدولة الإسلامية لنظام الدورة التاريخية، فتعرَّضت للضعف والانقسام السياسي، بدأ ذلك منذ القرن الرابع الهجري، ومع ذلك بقيت الدولة متماسكة حضارياً بفضل روابط الإسلام والعروبة، وكان يمكن أن تكون الضربة التي حلّت بالإسلام وحضارته على أيدي التتار ضربة قاصمة قاضية، لولا ما اتَّصف به الإسلام من قدرة على الثبات، وتخطّي العقبات، وتعدُّد مراكز الفكر والحضارة، بحيث إذا أصيب أحدها انتقل مشعل الحضارة بسرعة ودون توقُّف إلى مركز آخر.

وحَسْب المماليك أنهم كانوا مسلمين جاهدوا في سبيل الله، ونجحوا في حماية الإسلام ـ في منطقة هي بمثابة القلب ـ من أكبر خطرين معاصرين هدَّداه، هذا إلى أنهم لم ينجحوا في حماية حضارة الإسلام وحفظ تراثه من

الضياع فحسب، بل نجحوا في إنماء هذه الحضارة حتى حقَّقت في كثير من الميادين قدراً من الازدهار لم يحقَّق في عصر آخر. وقد أثبت المماليك أنهم فرسان الإسلام المستميتون في الدفاع عن أهله وأرضه، وعندما تحوَّل أمراء الشام عن مدافعة التتار واجههم بيبرس.

* * *

ملاحق البحث

١ ـ يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور تحت عنوان: (المماليك روَّاد النهضة الثانية في الإسلام):

«اتَّصفت الدولة الإسلامية ليس بقدرتها على البقاء والحياة فحسب، بل بقدرتها على العطاء وتجديد شبابها، فقد وجدت أكثر من رئة تتنفَّس بها حضارياً (بخارى ـ أصبهان ـ غزنة ـ البصرة ـ الكوفة ـ الموصل ـ حلب ـ الفسطاط ـ القيروان ـ فارس ـ مراكش ـ غرناطة ـ إشبيلية)، وقد تفاعلت جميع مراكز الحضارة مع بعضها البعض.

وفي مرحلة معيّنة خضعت الدولة الإسلامية لنظام الدورة التاريخية، فتعرَّضت للضعف والانقسام السياسي، وأخذ ذلك يبدو واضحاً منذ القرن الرابع للهجرة، ومع ذلك بقيتْ الدولة متماسكة حضارياً بفضل روابط الإسلام والعروبة.

وقد حاول فلهوزون وتيكلسون عندما عالجا مرحلة التدهور والتفكُّك في تاريخ الدولة الإسلامية؛ الاستعانةَ بالمعايير التي وضعها (جيبون) في تدهور الإمبراطورية، ولكن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يرى أنه بالرغم من أن هناك عوامل داخلية وخارجية متشابهة إلا أن طبيعة الدولة الإسلامية من حيث النشأة والتكوين، والصفة الروحية التي اتَّسمت بها عند مولدها، وظروف الزمان والمكان وروابط الشعوب؛ جعل الفارق كبيراً في حالة المقاومة.

وإذا كان حكَّام الشام من بني أيوب قد اهتزُّوا أمام خطر التتار وقرَّروا الاستسلام، اعتقاداً منهم بأنهم أمام قوَّة يتعذَّر عليهم مواجهتها؛

فإن المماليك الذين كانوا قد استولَوا عندئذٍ على زمام الحكم في مصر أثبتوا بسرعة أنهم فرسان الإسلام الـجُدد القادرون، ليس على حماية أهله وأرضه فحسب، بل أيضاً حضارته، ولم ينجح المماليك في تخليص مصر من حملة صليبية كبرى بزعامة لويس التاسع فحسب، وإنما نجحوا أيضاً في إنزال هزيمة كبرى بالتتار في عين جالوت على أرض فلسطين، وطاردوهم حتى أجلَوهم تماماً عن بلاد الشام، وبذلك أدخلوا هذه البلاد تحت حكمهم، وأكسب دولتهم في التاريخ اسم: (دولة البرَّين والبحرين) لأنها تشمل مصر وبرّ الشام، ولسلطانها السيادة على مياه البحرين: المتوسط ـ بحر الروم ـ والأحمر ـ بحر القلزم ـ إبَّان سلطان المماليك من أواسط القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر ـ خلال ثلاثة قرون ـ تمكَّن المماليك من دحر التتار وطرد الصليبيين من بلاد الشام.

وذلك في نفس الوقت الذي أخذت الهزائم تحلُّ بالمسلمين في الأندلس وشمال أفريقيا، وأصبحت لمصر زعامة روحية كبرى جاءت نتيجةً لإحياء الخلافة العباسية فيها، وعمل سلاطين المماليك على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وحصلوا على تفويض بالحكم من الخلفاء العباسيين الجدد، وقامت في مصر مدرسة فكرية ضخمة تعبِّـر عن روح الدين الجديد (مدرسة الفسطاط).

وقد أدى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر في عصر سلاطين المماليك إلى هجرة كثير من علماء المسلمين إلى مصر بالذات، كما سيطرت دولة سلاطين المماليك على التجارة العالمية بين الشرق والغرب.

٢ ـ وقد فُتحت قبرص في عصر المماليك بعد أن اتخذها الصليبيون قاعدة رئيسية للانقضاض على سواحل الشام ومصر، بعد إخراجهم نهائياً من الشام في عهد الملك الأشرف خليل بن قلاون، ورغم توقيع عقد الصلح بين المماليك والقبارصة (٧٧٢هـ/ ١٢٧٠م) فإنَّ القبارصة لم يحترموا شروط الصلح احتراماً كلياً، واتخذت موانئ قبرص ملجأً للسفن المغيرة على

سواحل مصر والشام، كما أنَّ القبارصة أنفسهم كانوا يشاركون في هذه الغارات العدوانية، بل إنَّ ملك قبرص قام بغارة مع آخرين (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، وتوالت غاراتهم مما دفع المماليك إلى الإغارة على الجزيرة عام (٨١٣هـ ـ ٨١٤هـ)، ولكنَّهم عادوا وأغاروا على ساحل الشام جنوب بيروت (٨١٧هـ)، ولما أحسُّوا بعزم المسلمين على غزو الجزيرة سارع ملكها إلى عرض الصلح، ورغم انعقاد الصلح فإن القبارصة عادوا إلى سياستهم العدوانية في العام التالي، مما حدا بالسلطان إلى غزو الجزيرة، الذي تمَّ عام (٨٢٩هـ).

٣ ـ قال ابن تيمية عن دولة المماليك:

«إن عسكر المماليك هم كتيبة الإسلام، وعزُّهم عزُّ الإسلام، فلو استولى عليهم التتار لم يبقَ للإسلام عزّ ولا كلمة عالية، ولا طائفة تظاهرُه عالية، يخافها أهل الأرض تقاتل عنه، فهم المماليك من أحقّ الناس دولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ في قوله في الأحاديث المستفيضة عنه: «لاتزال طائفة من أمتي . . .» الحديث».

وقال ابن تيمية: «لقد كان هناكَ تحالُف تتري صليبي ضدَّ عالَم الإسلام، وكان هناك عجز عن مواجهة هذا التحدّي المدمّر في أغلب بلاد الإسلام (اليمن ـ الحجاز ـ أفريقية ـ المغرب الأقصى) ولم يكن هناك سوى فرسان المماليك مَنْ يعلّق الإسلام والمسلمون عليهم الآمال في مواجهة التحدّي التتري الصليبي، فلذلك وجبتْ نصرة المماليك».

* * *



البَابُ الرَّابِعُ

مِنَ الأَنْدلس إِلى قَلْبِ أُورُوبّا



مِنَ الأَنْدلس إلى قَلْبِ أُورُوبَّا

١ ـ انطلق الإسلام من قلب الجزيرة العربية حتى بلغ حدود دولة الروم شمالاً، ثم انطلق غرباً عن طريق الأندلس، فاقتحم أوروبا وأقام سبعة قرون، ثم تراجع ليعاود اقتحام أوروبا من ناحية المشرق، فوصل إلى قلب القسطنطينية، وجاب في أوروبا أربعمئة سنة، وصل فيها إلى أسوار فينّا.

وكان أول أعمال الغرب المسيحي في مواجهة الفتح الإسلامي الزاحف هو صدّه وإيقافه وتحطيم خطّته، التي تتمثّل في تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية، ومنذ أن دخل المسلمون الأندلس كان إيمانهم بأنهم سيصلون إلى دمشق عن طريق إيطاليا والبلقان والقسطنطينية.

ولطالما ردَّد ذلك موسى بن نصير وأعدَّ له، لولا أنَّ عوامل كثيرة حالت بين المسلمين وبين تحقيق هذا الهدف؛ في مقدّمتها خوف إمام المسلمين على المسلمين من دخول عالم ليس لهم به صلة أو علم: هو عالَـم الغرب.

ولكن المسلمين لم يتوقفوا عن الجهاد، بالرغم من تجمّع الغرب في وجههم وإيقاف تقدمهم، ومهما كانت الضربة الأولى في (بلاط الشهداء) بقيادة كارل مارتل قاسية، وقد ظنَّ الغرب أنه قد أوقف زحف القوة الإسلامية، ولكن لم يكن ذلك إلا لوقت قصير، عاود المسلمون بعده زحفهم عن طريق فرنسا وإيطاليا، حتى وصلوا إلى حدود سويسرا.

كانت الأندلس هي الجبهة الثانية في المواجهة مع الغرب، بعد الجبهة الأولى: بيزنطة.

وفي خلال أربع سنوات كانت الأندلس قد سقطت جميعها في أيدي المسلمين، الذين وصلوا إلى جبال البرانس الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا.

عبرَ طارق من نهر الزقاق عام (٩٢هـ/ ٧١١م) ونزل في البقعة التي تحمل اليوم اسمه ـ جبل طارق ـ وهزم كلَّ من تصدَّى له، وتابع سيره صوب عاصمة القوط الذين كانوا في مئة ألف، ثم أمدَّه موسى بن نصير بخمسة آلاف، وانتصر المسلمون وهُزِم القوط شرَّ هزيمة في معركة (شنونة) التي بها زالت دولة القوط.

وواصل طارق مسيره فاقتحم طليطلة عاصمة المملكة القوطية، ثم قرطبة وغرناطة والبيرة ومالطة ومرسية.

وعبرَ موسى بن نصير البحر في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، وأمكن إتمام فتح الجزيرة.

وكان موسى بن نصير يطمع في اقتحام أوروبا حتى يعود إلى الشام من القسطنطينية، غير أنَّ معاقل جلّيقية التي اعتصم بها فلول القوط لم تطهر تماماً، وكان موسى قد اخترق معظم قلاعها ومعاقلها، ومزَّق كل قوة تصدَّت لمقاومته، ولم يبقَ إلا شراذم يسيرة التفّت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو، ونفذ موسى إلى مملكة الفرنج، وغزا والي الرون حتى مدينة ليون، وقد ظلّت الأندلس ـ إسبانيا ـ بلداً إسلامياً منذ عام (٩٢هـ/ ٧١١م) إلى عام (٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م) وهو عام سقوط غرناطة التي كانت تعتبر آخر قلعة إسلامية في شبه الجزيرة الآبيرية.

وقد بلغت الأندلس أوج الازدهار عام (١٠٠٠م) حيث كانت قرطبة عاصمة الأمويين العربية معقل الثقافة في العالم وقلبها النابض، إلى الحدِّ الذي نافست فيه بغداد، بل فاقتها في كثير من النواحي.

وكان سكَّان قرطبة نصف مليون نسمة، وبها أكثر من مئة ألف منزل وبضعة مئات من المساجد، وسبعون مكتبة، وعدد من القصور والحمَّامات، وقد جعل الله تبارك وتعالى الأندلس حقلاً للحضارة الإسلامية في قلب أوروبا، فقد نقل المسلمون إليها طرق الزراعة والعلوم، وثمرات الحضارة كلها؛ الزروع والكروم والبرتقال وقصب السكر، وكان تعريب شبه الجزيرة الإبيرية من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الخامس عشر من أهمّ عوامل نهضة أوروبا الغربية.

* * *

تمَّ للمسلمين الاستيلاء على الأندلس ـ شبه الجزيرة الإبيرية ـ إلا جزءاً صغيراً في الشمال الغربي لإسبانيا، واجتازوا جبال البِرِنِيْهْ ووصلوا إلى مدينة تور في فرنسا (٧٣٢م) غير أنَّهم اضطروا إلى الانسحاب إلى جنوب فرنسا وإسبانيا، على إثر استشهاد قائدهم عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء (معركة بواتيه).

جاءت معركة بواتيه بعد مئة عام من اختيار النبي ﷺ للرفيق الأعلى، وكانت في تقدير المؤرِّخين خاتمة مطاف موقوتة، انتهت عندها الوثنية الأولى.

ففي خلال قرن من الزمان، إذا رجعنا إلى إحصاء عدد جنود المسلمين في تلك المعارك لم نجده يزيد على مئة ألف مقاتل، يفتحون هذه الدنيا الواسعة التي استقرَّ الإسلام في معظم أقطارها.

هُزِم المسلمون في معركة بلاط الشهداء لعدَّة أمور أهمّها:

أنهم بعدوا كثيراً عن مراكز تجمُّعهم الأولى والثانية في الأندلس. وثانياً لأنهم انشغلوا بحماية الغنائم عن الهدف الأساسي من الفتح، فحين استطاع (شارل مارتل) أن يفتح ثغرة في صفوف المسلمين صوب معسكر الغنائم، ارتفعت صيحة، فتركت قوة كبيرة من فرسان المسلمين المعركة، وتقهقرت للدفاع عن الغنائم، فكانت الهزيمة المرّة.

ولكن المسلمين لم يتوقّفوا إلا قليلاً فقد عبروا جبال البرانس، فنزلوا جنوب إيطاليا وأرض غاليا (فرنسا) واحتلّوا جزيرة كريت وصقلية.

٢ ـ كان استيلاء المسلمين على جزيرتي كريت وصقلية وغيرهما من جزر البحر المتوسط مرحلة تمهّد للاتساع في سهول أوروبا الواسعة، وكان الرومان قد حرصوا على احتلال صقلية، ليمارسوا الإغارات الشرسة على تونس وشمال أفريقية، فأغار المسلمون على الجزيرة في حملات متوالية، ، مما اضطرَّ بطريركها إلى عقد صلح لمدة عشر سنوات مع والي أفريقيا (إبراهيم بن الأغلب)، وعندما ضجَّ أهل الجزيرة من ظلم الحكّام الرومان، استنجدوا بحكّام تونس من قِبل العباسيين، فسيَّروا جيشاً مقداره عشرة آلاف مقاتل بقيادة القاضي أسد بن الفرات، وتوالت انتصارات الجيش الإسلامي على جحافل الرومان حتى تمَّ فتح الجزيرة.

* * *

وهكذا مضى المسلمون يقتحمون أوروبا، الذين اندفعوا إلى سويسرا رافعين أصواتهم بالتكبير على جبلٍ عُرف فيما بعد باسم جبل المغربيّين، حيث حكم المسلمون منطقة الألب السويسرية مئة وخمسين عاماً (٨٥٠هـ ـ ١٠٠٠هـ)، وإنّ آثارهم لا تزال موجودة في بعض الأماكن وبعض المؤسسات وبعض العادات واللهجات.

ومن بين الستة ملايين ونصف من سكّان سويسرا اليوم، الذين ينتمي تسعون في المئة منهم إلى البروتستانتية يوجد ما يقرب من ستة آلاف مسلم من أصل سويسري.

ويُحجم كثير من المؤرخين السويسريين المعاصرين عن إعطاء أي تفاصيل عن المرحلة الإسلامية في التاريخ السويسري في مؤلَّفاتهم، ويكتفون بالإشارة إلى الغارات العربية والغارات الهونية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وقد يعترفون أنَّ المنطقة الرياضية المشهورة عالمياً باسم (بونترلسينا) التي أُخذ اسمها من اللاتينية التي تعني (يجوز جسر العرب المسلمين) فقد

كانت معقلاً قوياً للمسلمين مثلما كانت (ساس أميحال) التي انشقّت من المعقل المجاور للمنطقة السياحية المشهورة، ويقول أحد الباحثين المعاصرين:

«إنَّ على المرء أن يرجع إلى المؤلَّفات التاريخية المتخصّصة ليكتشف حقائق مذهلة عن التاريخ العربي الإسلامي في سويسرا (٦٨٥م ـ ٧٤١م) التي ـ حسب زعم الأسطول ـ هُزم العرب هزيمة ساحقة في معركة بواتيه أو بلاط الشهداء (٧٣٢م)، حيث أن حقيقة الأمر أن المسيحيين لم يهَزموا في بلاط الشهداء (كوزر) سوى طلائع صغيرة من العرب المسلمين، بينما استمرّ التهديد الإسلامي لأوروبا أكثر من قرنين بعد ذلك التاريخ، وقد حكم المسلمون إسبانيا وجنوب إيطاليا وأجزاء كبيرة من فرنسا إلى جانب جبال الألب السويسرية، ولم يكن حكمهم بأية حال مجرَّد غارات وقطع طريق ـ كما تريد أن تقنعنا مصادر القرون الوسطى ـ وإنما كانت خطّةً إسلاميةً شاملة (استراتيجية) للسيطرة على أوروبا.

وقد كان خطر هذه الخطَّة على الأوروبيين كبيراً إلى درجة أن البابا في روما دعا عام (٨٥٠م) إلى حملات صليبية ضدّ أتباع محمد ﷺ في منطقة الألب.

غير أنَّ الخطة الإسلامية الكبرى للسيطرة على أوروبا قد فشلت لأسباب تبدو معاصرة، وهي (فرقة العرب والمسلمين في ذلك الوقت).

لقد أسهمت الصراعات السياسية داخل الصفّ الإسلامي في إضعاف طلائع الفتح الإسلامي، وتعطَّلت الإمدادات من إسبانيا وشمال أفريقيا عن المجاهدين في أوروبا، فكان مصيرهم الهلاك.

في بعض الأحيان عندما أذهب إلى الجبال السويسرية أرى كما يحلم النائم صورة الفاتحين المسلمين منقضّين عبر الحقول المكسوّة بالثلج، وهم يردّدون صيحات (الله أكبر الله أكبر) فهل ترى سيعودون يوماً ما».

« أحمد هوبر »

وتتحدَّث المصادر الإسلامية عن دخول المسلمين إلى إيطاليا أو الأرض الكبيرة كالبلاذري، وهي أرض تقابل صقلية ومدينة بارة على بحر الأدرياتيك، وكان لبني الأغلب حكام تونس أشرف الجهاد في سبيل رفع الراية الإسلامية (راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله) خفَّاقة عالية فوق قلب القارة الأوروبية.

في عام (٢٢٨م) أرسل إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب من صقلية أسطولاً قوياً، عدّةُ رجاله شديدُ إيمانهم بالله وبالإسلام، ورغبتهم في الاستشهاد في سبيل الله والجهاد في نصرة دينه، ونزل الجند الإسلامي في جنوب إيطاليا، كذلك فقد قام مسلمو جزيرة صقلية بغزو إيطاليا من جهة الشرق، ولم يتوقَّف هذا النضال سنوات طويلة.

ولم يكتفِ المسلمون بالقتال حول الأجزاء الجنوبية من إيطاليا، بل كانوا يسعون من أجل السيطرة على روما عاصمة المسيحيّة، فكانت عام (٢٣١هـ/ ٨٤٦م) وتقدَّم الأسطول الإسلامي الضخم، ففتح إمارات كارنت وبريزيزي، وهزم أسطول القسطنطينية الذي تحرَّك للدفاع عن الجنوب الإيطالي.

* * *

من فتح الأندلس إلى ما بعد سقوط غرناطة

(١)

هزّ دخول المسلمين إلى أرض الأندلس أوروبا، وأزعج القوى المسيحية والكنيسة الكاثوليكية إزعاجاً شديداً، حيث كانت ما تزال بيزنطة في الشرق مشتبكة مع الحدود العربية في طرطوس من أرض الشام، وقد تراوحت الحملات الإسلامية الطامحة إلى فتح القسطنطينية، ففي عام (٩٢هـ) فُتحت جبهة جديدة قوامها البربر والعرب سرعان ما وصلت قواهما المسلمة تحت راية لا إله إلا الله إلى قلب جزيرة إيبيريا، فاحتشد الأمراء ورؤساء الكنيسة في الغرب في تجمّع عسكري محارب، لمواجهة الدولة الإسلامية الجديدة التي قامت في الأندلس.

تركّزت نقطة البدء في تلك الجماعات التي اعتصمت بالجبال في شمال إسبانيا في السنوات الأولى للفتح، والتي تجمّعت من بعدُ للمقاومة عندما يحين الوقت المناسب، وقد ظلّت هذه القوى تناوئ الوجود الإسلامي وتتآمر عليه، وتثير الفتن والخلافات بين العرب والبربر، ومضت تعمل حتى لا تدع الدولة الإسلامية في أمن، وقد تحقق لها في الجولة الأولى إقامة إمارتين (قشتالة وليون)، وزحفت تستعيد مدائن الأندلس حتى وصلت إلى السيطرة على طليطلة، ومَن يُطالع تاريخ الأندلس في هذه الفترة لا يرى إلا معارك وفتن، وحركات عصيان وصراع وتصادم وقتال خطير بين العرب والمولّدين في عدّة أقاليم، في نفس الوقت الذي تتّسع فيه الحضارة

الإسلامية وتنمو في شتى ميادين العمران.

ولقد وجَّه ولاة الأندلس جهدهم كلّه لمحاربة الفرنج والتوغُّل في جنوب فرنسا، وأهملوا أمر العصاة من النصارى لضعف أمرهم عندئذ، ولكن ثوّار الشمال تجمَّعوا ونما شأنُهم واشتدَّ ساعدهم، حتى بدؤوا في عهد عبد الرحمن الداخل يُغيرون على الحدود الإسلامية، ولم يأتِ عبد الرحمن الناصر حتى كانت لهم ممالك وإمارات ذات قوة.

فقد كوَّن الفرنج شرق جبل البِرِنيْهْ إمارة صغيرة ونشأت مملكتا قشتالة وليون اللتان اتحدتا فيما بعد وصارتا مهد العصبية النصرانية في إسبانيا.

وقد ظلّت الدولة الإسلامية تصعد إلى العلا حتى تألَّقت في سماء المجد باسم الإسلام، ومن خلال منهجه، واجتمعت لها كلّ علوم المسلمين؛ من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة.

ولكنّ ملوك إسبانيا المسيحية بذلوا جهوداً ضخمة لتمزيق أوصال الخلافة حتى تقسَّمت إلى دول الطوائف، وخضعت هذه الدويلات للملوك المسيحيين الذين كانوا يتقاضَون من بعضها جزية باهظة.

وقد بدأت الهزيمة والاندحار عندما تمزَّقت وحدة رؤساء المسلمين واختلفوا، وغلبتهم مطامع الدنيا، وخرَّبهم الترف والانحلال، وغفلوا عن بعض العناصر التي سيطرت.

وكان تدخُّل الصقالبة في سياسة الدولة وقيادة الجيوش مصدر انهيار شديد (فقد بلغ عددهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يزيد على عشرة آلاف رجل، وصلوا إلى المراكز الرئيسة في الدولة الأموية، واعتمد عليهم الأمويون للحدّ من نفوذ الإرستقراطية العربية في الحكم وإضعاف سيطرة العرب والبربر، حتى وصلوا إلى حدّ إقامة الخلفاء وعزلهم).

ثم تقسَّمت الدولة الإسلامية الكبرى بعد ذلك إلى دويلات، وكانت هذه هي علامة الخطر.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة لسقوط الأندلس كلّها في أيدي القوى المتربِّصة والمتآمرة على الإسلام، فلم تبقَ إلا مملكة غرناطة التي استمرَّت قرنين ونصف قرن.

* * *

(٢)

اندفع المسلمون إلى الفتحِ تحدوهم روح الإيمان بالإسلام، والجهاد في سبيله، ونشر كلمته في الخافقَين، ولم يكن دافعهم هو المطمع المادي، ولم يكن قد ذلّل لهم النصر ضعف هذه الدول أو انهيارها، فقد كانت كلّها في حالات من القوة مكّنتها أن تحشد الجيوش الضخمة، ولكنها لم تكن تحمل عقيدة تستميت في سبيل حمايتها أو الدفاع عنها ـ كما يحمل المسلمون ـ فقد أصاب عقيدتها التضارُب، وقامت حضارتها على الظلم والاستبداد واسترقاق الإنسان، فضلاً عن أنها كانت قد بلغت حدّاً كبيراً من التحلُّل الـخُلقي والفساد الاجتماعي، فكان لا بدّ أن تسقط أمام قوة الحق البازغة.

وكذلك كان الموقف تماماً عندما وصلت المجتمعات الإسلامية إلى التحلُّل والضعف والفساد، فقد كان لا بدّ لها أن تنهار وتسقط وتجتاحها القوى الصليبية.

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يجعل من تجربة الأندلس درساً وعظة للمسلمين على مدى تاريخهم كلّه، فهي الأرض التي خرج المسلمون منها بعد أن أقاموا ثمانية قرون ونصف القرن، فعليهم دراسة العبرة من الحدث، حتى يزدادوا إيماناً بأنَّ الاستمساك بالمنهج الإسلامي هو وحده القادر على بقاء إرادة الحياة في يدهم، فإذا ما تهاونوا في هذه الرسالة أو ضعفوا عنها ضربهم الله بالذلّ، وسلّط عليه عدوهم ليسيطر عليهم وينتقم منهم، ، حتى يعودوا مرّة أخرى إلى الحقّ ويستمسكوا به، ويوقنوا أنه لا سبيل لهم إلا

طريق الله ـ تبارك وتعالى ـ ومنهجه.

وقد ظلَّ تاريخ الإسلام في شبه جزيرة إيبريا (الأندلس) صراعاً مستمرّاً بين قوى الحق والباطل، ولم ينْهزم الحق، وإنما أهله هم الذين تخلّوا عنه في سبيل متاع الحياة الفانية، ولذا كانت الأندلس في نظر المسلمين ثغراً للإسلام، ، وأرض جهاد ورباط، ونَعَتُوها بأوصاف تعبِّر عن شعورهم.

وكان الشعور الدائم بالخطر والترقُّب فُرض على الأندلسيين، فهم يحذِّرون أبناءهم منذ الصغر، ليكونوا على أهبة الاستعداد في كل لحظة، فكان الصبيان يدرَّبون على العمل بالسلاح، ، كما يعلّمون القرآن في الألواح، وقد مهر الأندلسيون في استعمال القوس والنشّاب وتريييش السهام، وركوب الخيل، وقوة ضربات السيوف... إلى غير ذلك من فنون القتال التي تعلَّموها منذ صغرهم.

وقد أُعِدَّ الأندلسيون ليكونوا شعباً محارباً، قد ترسَّبت في نفوسهم فكرة الجهاد حتى صارت جزءاً من كيانهم، هذه الفترة التي حقَّقوا فيها الانتصارات، وأخافوا العدو، وحفظوا أرضهم وأوطانهم.

ثم سيطروا على مفاهيم العلم، فانتقلت إلى الأندلس جامعاته وعلومه المختلفة من عواصم دمشق وبغداد والقاهرة، فأصبحت منارة مضيئة في قلب أوروبا التي كانت ما تزال غارقة في ظلمات العصور الوسطى.

لقد فتحت إسبانيا جناحيها للمسلمين، إيماناً منها بأنهم سيخلِّصونها من ظلم الرومان الطاغي الذي امتدّ ألف سنة، وكان موقفهم أشبه بموقف سكّان الشام ومصر وأفريقيا.

وكان الإسلام كريماً مع أهل إسبانيا غاية الكرم، فقد ترك لهم كنائسهم وأديرتهم وحريّتهم، كما رفع الاضطهاد عن اليهود، وما لبث

الاطمئنـان أن عاد إلى نفـوس المسـيحيين في إسـبانيا، وفضّلوا الحكم الإسلامي على الحكم القوطي.

كذلك فقد أدخل الإسلام إلى الأندلس الصناعات والزراعة، فاستثمروا أرضها الخصبة، ونقلوا إليها العلوم التجريبية، وانتقل طلّاب العلم من كل مكان في أوروبا إلى جامعات الإسلام في الأندلس خلال ثمانية قرون كاملة، ، حيث أقام المسلمون حضارة باهرة.

غير أن الخلاف ما لبث أن وقع بين القادة وأهل الحكم، واستعان كل فريق بالعدو الذي كان قد استشرى واتسع نطاق ملكه، وانتفع الإسبانيون بذلك الانقسام، فأخذوا يحرِّضون أمراء المسلمين ضدّ بعضهم بعضاً.

وبينما كانت الأندلس تموج بالصراعات بين الفئات المختلفة، كانت الحملات الصليبية قد تقدّمت من جبهة بيزنطة إلى بيت المقدس، فلم يمض على تمزُّق الخلافة الأموية وسيطرة ملوك الطوائف (٤٦٦هـ/ ١٠٨٥م) أقلّ من ثلاثين عاماً حتى كانت الحملات الصليبية قد فتحت جبهة جديدة في قلب عالم الإسلام.

* * *

(٣)

يقول الدكتور مختار العبَّادي: «لم يكن الفتح العربي لإسبانيا مجرَّد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال، ثم هبطت إلى أقصى الجنوب، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت فيه حضارات سابقة كالرومانية والقوطيّة مع حضارة جديدة لاحقة، هي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج الحضاري حضارة أندلسية مزدهرة، وصلت إلى الفكر الغربي الأوروبي المجاور وأثرت فيه، فالفتح الإسلامي لإسبانيا كان ختاماً لدور سابق وبداية لدور إسلامي لاحق، تغلغل في

الحياة الإنسانية، وترك آثاراً عميقة ما زالت معالمها واضحة حتى اليوم».

ومنذ سقطت طليطلة الإسلامية في يد الإسبان (٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م) بدأت حركة نقل العلوم الإسلامية إلى أوروبا والغرب عن طريق الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية (الإسبانية)، حيث تُرجم الطب والفلك والكيمياء والرياضة، وبقيت طليطلة على هذا الوضع طيلة ثلاثة قرون قبل خروج المسلمين من غرناطة آخر معاقلهم.

بل لقد استمرَّ الدور الإسلامي في بناء الحضارة أكثر من قرن من الزمان بعد سقوط آخر المعاقل الإسلامية، لأن الشعب المسلم كان هو الذي يضطلع بالشطر الأعظم من النشاط الحيوي في إسبانيا؛ من زراعة وصناعة وتجارة.

هذا التأثير الحضاري والثقافي الذي استمرَّ نحواً من تسعة قرون عن طريق المعابر الثلاثة:

(١) بالرمو وصقلّية.

(٢) الأندلس (طليطلة).

(٣) الحروب الصليبية.

وهذه هي عبرة انتقال المسلمين إلى أوروبا التي تتمثَّل في حمل الأمانة إلى العالم كلّه، وبعد أن اتسع نطاق الإسلام في آسيا وأفريقيا، كان لا بدّ أن يحمل رسالته إلى أوروبا المسيحية، التي كانت قد أصابها الجمود والتخلّف تحت اسم (الرهبانية) بعد تحوّلها من الوثنية اليونانية إلى المسيحية الغريبة التي تختلف تماماً عن المسيحية المنزَّلة.

كان لا بدّ للمسلمين أن يؤدّوا هذا الدور في تمدين البشرية؛ وهذا شهد به المؤرِّخون الغربيون أنفسهم الذين عارضوا موقعة بلاط الشهداء، حين ظنَّ الغرب أنه استطاع القضاء على القوة الإسلامية، وهي التي كانت تحمل له الضياء من خلال رسالة السماء الخاتمة، وتحمل له الحضارة

التي عرفتها الأندلس، وامتدّت منها خلال ثمانية قرون ونصف القرن إلى أوروبا كلّها عن طريق جامعاتها.

كانت إرادة الله تبارك وتعالى الغالبة هي التي بسطت كلمة التوحيد والإيمان في قلب أوروبا عن طريق الأندلس من ناحية، وعن طريق جزيرتَي بالرمو وصقلية.

وتشابكت عمليات الفتح الإسلامي مع عمليات التراجع، ففي الوقت الذي تراجعت فيه الحروب الصليبية كان نجم الدولة العثمانية يبزُغ، وقبل أن يؤول نجم الأندلس إلى الأفول كان فتح القسطنطينية الذي غيّر الموازين.

* * *

(٤)

بدأ الانهيار من ذلك الجيب المنعزل في الشمال الغربي من شبه الجزيرة، الذي يعرف بإقليم جليقية، والذي نبتت فيه بذور الدولة الإسبانية، حيث أخذ الإسبانيون يترقَّبونِ الفُرص لتوسيع رقعتهم، فلما وقعت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبين البربر من ناحية انتهز النصارى الفرصة، ووصلوا بمُلْكهم إلى ضفاف نهر دويرة، واحتلّوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم، وظلَّ أمرها يتَّسع رويداً رويداً في المنطقة التي خَلَتْ بنزوح البربر إلى الجنوب، أو بعودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب، حتى إذا وصلت إلى عصر مِلكهم الفونسو الثالث الملقَّب بالكبير نجد هذه الإمارة تحتلّ مدينة سمورة، وأصبحت حصن الإمارة المواجهة للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى، وقد هاجمها المسلمون وخرَّبوها مراراً حتى سمّيت عندهم (سمورة الخراب).

وقد تضامنت هذه الإمارات المسيحية في شنّ حصار لإسبانيا الإسلامية حتى لا تتوسّع من الناحية الشمالية، حيث مملكة الفرنجة،

وأيدها في ذلك العالم الكاثوليكي والبابوية.

وكانت الخطوة التالية هي الاستيلاء على طليطلة الإسلام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، حيث بدأت حركة الانقضاض على التراث الإسلامي وترجمته، مما مكّنها أن تؤدي دورها في نقل الحضارة الإسلامية إلى عالم الغرب، وفي هذه المرحلة نقلت من المشرق أمّهات الكتب إلى الأندلس، ووصلت مكتبة الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر إلى ستمئة ألف مجلّد، في حين كانت أعظم مكتبة في العالم المسيحي تضمّ مئة وخمسين مجلّداً.

وتميَّزت كُتب المسلمين بأنها حملت علوم المجريطي والزرقاني وابن البيطار، وقد نقلت إلى طليطلة مكتبة المنتصر قبل سقوطها، ومنها بدأت حركة الترجمة التي قادها (ريموندو) رئيس أساقفة طليطلة، وبدأت المرحلة الأولى في الترجمة العربية إلى اللاتينية، وتُرجم المجريطي، وكتب اليونان القديمة عن العربية، واطَّلع العالم الغربي لأول مرة على كتاب الشفاء لابن سينا.

وهكذا قام المسلمون بأداء الأمانة ونقلوا إلى الغرب نتاج علمهم وحضارتهم، وكانت طليطلة أداة وصل بين هذه الثقافة وبين الشعوب الأوروبية، ولولا الأندلس لظلّت الثقافة الإسلامية محصورة في البلاد العربية، ولما أتيح لها أن تؤدّي الدور الخطير الذي قامت به في بناء الحضارة العالمية.

* * *

(٥)

يقول الدكتور حسين مؤنس: «عندما بدأ العصر الذهبي للأندلس ابتداءً من حكم عبد الرحمن الناصر (٩١٢م) هاجر ألوف من النصارى الشماليين إلى بلاد الأندلس، لينعموا بالأمان والعدل في دولة الإسلام، وكان زحفاً بطيئاً لم يشعر به أحد، وكان أولئك المهاجرون يستقرّون في

شرق الأندلس، وكان المسلمون راضون بهذه الهجرة، لأن البلاد كانت في حاجة إلى أيدٍ عاملة، ولكنّ النتيجة كانت وبالاً في القرن التالي، عندما سقطت دولة الخلافة وانقسم الأندلس إلى ممالك الطوائف، وتبيّن أن أعداد النصارى في الأندلس كانت تزيد على أعداد المسلمين في الجملة، وكان لهذا أثره البعيد في مصير الأندلس.

* * *

(٦)

ودخلت الأندلس في مرحلة الضعف بانهيار دولة الخلافة الأمويّة، وتمزُّق الأندلس إلى ولايات صغيرة، أُطلق عليها أمراء (الطوائف) وكان ملوك النصارى في فترة ضعف خلافة قرطبة قد انتهزوا الفرصة فوسَّع كلٌّ منهم مُلكه على حساب المسلمين، فانحدرت خلافة الأندلس إلى نهر باجة (أي إن الأندلس لم تعد تشمل إلا نصف شبه الجزيرة الإيبرية)، ثم كان استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وهنا استنجد الأندلسيون بأهل المغرب، حيث كانت دولة المرابطين بقياد يوسف بن تاشفين، الذي قدم إلى الأندلس وهزم الفونسو في معركة الزلّاقة (١٠٨٩م)، ثم في معركة افليس (١١٠٨م)، ولما استولى ملك الأرجوان على الثغر الأعلى (سرقسطة) (١١١٨م) عبر الموحِّدون إلى الأندلس (١١٥٠م)، وانتصروا على النصارى في معركة الأرك (١١٩٥م)، ثم انهزموا في معركة العقاب (١٢١٢م).

وهكذا ـ كما يقول المؤرِّخون ـ إن المغرب قد أنقذ الأندلس من الفناء المحقَّق حينما اشتدَّت وطأة الجيوش النصرانية عقب سقوط طليطلة.

وحين شعر ملوك الطوائف بالكارثة، واستنجدوا بإخوانهم المرابطين فيما وراء البحر ـ سادة المغرب ـ واستجاب المرابطون وعبروا البحر إلى إسبانيا، والتقوا بالجيوش النصرانية إلى جانب الطوائف في موقعة الزلّاقة

الكبرى، وأحرزوا فيها نصرهم الباهر بسحْق الجيوش النصرانية، وأُنقِذت الأندلس بذلك من الفناء المحقَّق، وكان ذلك بقيادة يوسف بن تاشفين، ولما سقطت طليطلة ارتجّت الأندلس فرَقاً ورعباً، وبعد سقوط طليطلة ونصْـر الزلّاقة الساحق أحرز الموحِّدون بقيادة عاهلهم (أبو يعقوب المنصور) نصرهم الحاسم على إسبانيا النصرانية في موقعة الأرك الشهيرة (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) فكانت زلّاقة أخرى.

ولكن الأندلس ما لبثت أن لقيت هزائمها الحاسمة على يد إسبانيا النصرانية في موقعة (العقاب) المشؤومة (٦٠٩هـ/ ١٢٠٢م)، وكانت هزيمة العقاب هزيمة شديدة لسلطان الموحِّدين ولإسبانيا المسلمة معاً.

* * *

(٧)

كان عبور جموع البربر المسلمين إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ثم الموحِّدين من بعدهم، لإنقاذ الأندلس من خطر الفناء، ولتجديد عهد الجهاد، هذا العمل أثار القوى النصرانية، فاستصرخت أوروبا المسيحية باسم الدين، وشملت روما هذه الحركة برعايتها، وأذن البابا جريجوري السابع للمتطوعين في الحرب باسم الدين أن يحكموا الأرض المفتوحة باسم البابوية.

تلك مرحلـة الاسـتنصار بالمسلمين المغاربـة الذين عبـروا مرَّتين وجدَّدوا شـباب الأندلـس، وأعطوهـا حيـاة جديدة امتدت أربعـة قرون أخرى.

وكانت مملكة غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبالرغم من العمر الطويل الذي قدِّر لها كانت تستشعر الخطر الداهم دائماً، وتترقَّب تآمُر جارتها المملكة النصرانية الإسبانية في خوف وفزع.

وإن كانت قد لقيت من بني مرين سادة المغرب العون والإنجاد باستمرار، وترك ملوك غرناطة لبني مرين ثلاث قواعد أندلسية، لتكون مراكز الدفاع وتدفُّق قوى النجدة؛ هي جبل طارق (جبل الفتح)، وندة، والجزيرة الخضراء.

وقد أبدى بنو مرين في هذه المهمّة الدفاعية اهتماماً وإخلاصاً ومقدرة، واستعادوا جبل طارق من يد النصارى.

غير أن مملكة بني مرين ما لبثت منذ أواخر القرن الثامن الهجري أن أصابها الضعْف، ولم يعد في وسعها أن تهرع إلى نجدة شقيقتها فيما وراء البحر، وشعرت مملكة غرناطة أنه لم يبقَ في وسعها أن تعتمد على هذا الجانب الذي كان يُنجدها، وأيقنت بأنها لا بدّ أن تعتمد على نفسها.

ومضت غرناطة في الصمود لهجمات الممالك المسيحية خلال قرنين ونصف، ولكن:

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصان.

لقد تجمّع الغرب كلّه بعد أن اتّحدت مملكَتَا أرجون وقشتالة، وتزوّج ملكاهما الكاثوليكيّان: فرناند وإيزابيلا.

قال المؤرّخ باركر: «إنّ السبب في سقوط غرناطة بسهولة أمام المسيحيين بعد أن ظلّت تقاوم بنجاح سبعة قرون، يرجع إلى أنّ فرناند وإيزابيلا استطاعا إحضار قوّة تتكوَّن من مئة وثمانين مدفع من مدافع الحصار، لمقاومة حصون غرناطة، ذلك أنّ تفوُّق المدفعيّة يحسم الهجوم على الحصون القديمة حول المدن، وهذا هو الدرس الذي وعاه محمد الفاتح، ونقله عن أصحاب غرناطة؛ وبين المعركتين أربعين سنة».

* * *

(٨)

لم يسلّم الأوروبيون يوماً واحداً بالوجود الإسلامي، بالرغم من كل ما قدّمه لهم من حضارة ونظم سياسية واجتماعية، وظلّ الفرنجة يقاتلون ويتآمرون، ولم يتوقّفوا عن ذلك طوال عهد الدولة الإسلامية، ولما دخلت مرحلة الضعْف زاد تآمُرهم، وعاونتهم البابويّة وبعض ضعاف النفوس الذين وعِدوا بالمناصب، وظلّوا يقتطعون من الوطن الإسلامي قطعاً، حتى بقيت غرناطة التي صمدت أكثر من قرنين، ثم جاء دورها بعد أن بلغ الترف والفساد غايته.

وتحقَّقت الهزيمة كما جاء قانونها في القرآن الكريم، من أنّ الأمّة التي تخرج عن سنن الله وقانونه ومنهجه لا بدّ أن تنهار، وكان من أسباب الهزيمة:

١ ـ الصراع الداخلي بين القوى الإسلامية، واستعانة كل منها بالعدوّ في سبيل الانتصار على الآخر، فقد جعل الله بأسهم بينهم شديداً، ولو اتّحدت كلمتُها على مقاومة العدوّ لاستطاعت أن تقيم سدّاً منيعاً في وجه إسبانيا النصرانية، غير أنها شُغلت عن الخطر العام ـ الذي يهدّد حياتها جميعاً ـ بالمنازعات الشخصيّة والمعارك الداخلية، ولم يحجم بعضها عن أن يظاهر ملوك الشمال ضدّ إخوته في الإسلام.

٢ ـ جعلوا الدنيا ومطامعها وترفها وزخرفها هو الغاية.

٣ ـ تمزُّق الوحدة الجامعة بين المسلمين؛ عرباً وبربراً وعناصر أخرى تجمعها كلمة لا إله إلا الله.

٤ ـ لم يتمكّن المسلمون من إرساء قواعد الإيمان، وشُغِل الفاتحون بالتمتُّع بخيرات البلاد المفتوحة، وخَدَمهم أبناء الروم، وأكثروا من زواج الأجنبيات، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فنالت منهم عوامل العصبيّات القبلية والعرقية.

وظلّوا عناصر غريبة عن المجتمع الجديد لم يتذوّقهم ولم يهضموه إلى أن تمَّ إخراجهم نهائياً.

هـذا ولا يمنـع مـن أن نذكـر أنّ الفقهـاء والمجـاهدين قاومـوا واستشهدوا، ولكن غلبهم سلطان الفرد والترف والصراع بين الأخوَين.

٥ ـ ترك المسلمون تلك الثغرة القديمة حتى تجمّع حولها أعداؤنا، ومنها ضربوا كيان الدولة الإسلامية في الصميم، وكانت موضع الإغارة عليهم.

ولكن هل توقّف الأمر عند استرداد الأندلس، وتنصير المسلمين الموجودين فيها؟ لقد نفَّذت إسبانيا المسيحيّة خطّة غايةً في الانتقام من المسـلمين الذين قدّمـوا الحضـارة والعلم التجريبي لأوروبـا، والذين أخرجتهم أوروبا مقتولين أو مهاجرين، واستولت على قواعد الجامعات والحضارة والعلوم جميعاً.

لقد بدأت خطَّة الالتفاف حول العالم الإسلامي، لقد أوصت وصيّة الملك إيزابيلا الملوك والرؤساء الإسبان الذين يتعاقبون على الحكم فيما بعد: باحتلال شمال أفريقيا وإخضاعها للصليب، ومن ثمّ قامت حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا.

* * *

ملاحق البحث

أولاً: حول الإسلام في الأندلس عبر ثمانية قرون:

«أقام الإسلام في الأندلس ثمانية قرون من (٩٣هـ/ ٧١١م) إلى (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م) انتقل فيها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: حتى نهاية الخلافة الأمويّة.

المرحلة الثانية: قيام المرابطين ثم الموحِّدين بنصرة مسلمي الأندلس.

المرحلة الثالثة: مملكة غرناطة لمدَّة قرنَين من الزمان.

انتهت المرحلة الأولى أواخر القرن الرابع الهجري بوفاة الحاجب المنصور، ومنذ أوائل القرن الخامس تحوّلت الأندلس إلى دُول الطوائف، حيث لاحت الفرصة لإسبانيا النصرانية بترامي ملوكها على أعتاب بلاط قشتالة.

وكان سقوط طليطلة (٤٧٦هـ) ـ أوّل حاضرة أندلسية كبرى تسقط في أيدي النصارى ـ هو نذير الخطر الداهم على سائر مماليك الطوائف، فكانت استغاثة الطوائف بإخوانهم المسلمين وراء البحر وبعاهل المغرب وزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين، وكانت موقعة الزلّاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ثم استيلاء المرابطين على دول الطوائف، وبسْط سيادتهم على الأندلس.

ثم جاء الموحِّدون بعد ذلك، واستمرت الأندلس زُهاء قرن ونصف تحت حكم الدولتَين المغربيّتين (المرابطين والموحِّدين)، ووقعت مواقع

حاسمة بين الجيوش الإسلامية وبين الجيوش النصرانية (أفليش ـ أفراغة ـ الأرك) وفي الأرك (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) بقيادة الخليفة يعقوب المنصور، انهزمت جيوش إسبانيا النصرانية مرّة أخرى أمام المسلمين، ثم كانت هزيمة المسلمين في موقعة العقاب (٦٠٩هـ) وعلى إثرها انهار سلطان الموحِّدين بالأندلس، واضطربت بالفتن ونشبت الخلافات، واستطاعت إسبانيا النصرانية أن تنتزع القواعد الأندلسية الكبرى (قرطبة ـ بلنسية ـ شاطبة ـ مرسية ـ إشبيليّة ـ بطليوس).

ثمّ جاءت المرحلة الثالثة بقيام مملكة غرناطة لمدّة قرنين من الزمان، وكان بنو مرين في المغرب معضَدةً لغرناطة، وقامت بالدور الذي قامت به دولتا المرابطين والموحِّدين، وكانت معاونة بني مرين لمملكة غرناطة تقف عند حدٍّ الاتحاد والتحالف الأخوي، والرغبة الخالصة في الجهاد الإسلامي.

«محمد عبد الله عنان»

٢ ـ بعد سقوط غرناطة في أيدي القشتاليين، وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس، انسابت جيوش إسبانيا النصرانية وأساطيلها على الأثر على الضفّة الأخرى من البحر، لغزو الشواطئ المغربية الشمالية، والاستيلاء على معظم ثغورها في حملات صليبية بريّة وبحريّة.

وفي نفس الوقت قامت حملة إكراه للمسلمين المقيمين في الأندلس على التنصُّر بأبشع الوسائل وأفظعها، وحرمانهم من التخاطب بالعربية، والتسمّي بالأسماء العربية، ولبس الثياب العربية، ومن سائر تقاليدهم القديمة، فضلاً عما أصابهم من التعذيب والتحريق على يد محاكم التفتيش الشهيرة، التي أُنشئت للعمل على إبادة بقايا الأمّة الأندلسية، ولم يمضِ على سقوط غرناطة زهاء خمسين عاماً حتى استحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طائفة من الموريسكيين المتنصِّرة.

٣ ـ والموريسكيون هم بقايا المسلمين الذين بقوا بالأندلس بعد

زوال الدولة الإسلامية، وتعرَّضوا للاضطهاد، وحافظ قسم كبير منهم على دينه وعقيدته.

٤ ـ ظهر في غربي البحر المتوسط عنصر جديد من تطوُّر الحوادث يتمثّل في جهود البحّارة الترك، وعلى رأسهم عروج، وخير الدين، حيث تمَّ الاستيلاء على الجزائر (١٥١٧م) وعيّنه السلطانُ سليم حاكماً على تلك الأنحاء، وقام بغاراته الجريئة المثيرة على شواطئ إسبانيا الشرقية، واتّصل بالموريسكيين في بلنسية وغيرها، واستطاع أن ينقل منهم أعداداً كبيرة إلى الثغور المغربية تُقدّر بنحو سبعين ألفاً، وقد استأنفوا غاراتهم على الشواطئ الإسبانية بقيادة أمير البحر طرغود الذي خلَف خير الدين.

٥ ـ المرابطون: قوّة ناشئة خرجت من وسط أفريقيا مندفعة بحرارة إيمانها، تقطع رمال الصحراء الكبرى إلى ضفّة وادي درعة وواحات سلجماسة، فإذا وهاد المغرب ونِجَادُه تُقبل بأعناق المهارى الصب، قد تمكّنت من غواربها أجسام بشرية ملتحفة الأثواب الزرق وملثّمة بها، يلين الحديدُ ولا تلين، وتخبو النار ولا تنطفئ حرارة تلك النظرات المتّقدة بين أطباق اللثام.

أولئك هم المرابطون الذين انبعثوا ينشئون عاصمة المغرب الجديدة (مدينة مراكش) ويمدّون رواق سلطانها على طول العدوة الأفريقية ببلاد المغرب، ثم يرمون بحبل النجاة إلى العدوة الأندلسية في يوم الزلّاقة العظيم، لتقوم الشوكة وتحيا الدولة تحت ظلِّ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقد أنقذت الإسلام من الخطر الذي داهم بلاد الأندلس.

ثانياً ـ حول طارق بن زياد، وفتح الأندلس:

قام الأسطول الإسلامي زمن الفتوحات للشمال الأفريقي بدور هامّ ورئيسي، وظهرت فعّاليته في صدّ غارات الأساطيل البيزنطيّة ومواجهتها في معارك مكشوفة، مثلاً معركة ذات الصواري بالقرب من الإسكندرية

عام (٤٥هـ) وفي مهاجمة قواعد البيزنطيين البحريّة، وفتح العديد منها (قبرص ـ جربة).

وعندما فتح المسلمون تونس أسس القائد حسّان بن النعمان عام (٨٠هـ) دار صناعة لإنشاء السفن، جلب لها العُدَّة المناسبة، وأقرّ حولها ألفا قبطيٍّ بعيالهم، نقلهم من مصر بموافقة الخليفة بدمشق وتدبيره[1].

والملاحَظ ضخامة هذه القوات التي بلغ تعدادها في المدة الأولى سبعة آلاف مجاهد، ولا تذكر أمّهات المصادر شيئاً عن إحراق طارق للأسطول ولا عن الـخُطبة، ومن هذه المصادر (الواقدي) (المتوفَّى ٢٠٧هـ) ـ البلاذري (المتوفّى ٢٧٩هـ) ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) ـ الطبري (٣١٠هـ) ـ ابن القوطية الأندلسي (٣٦٧هـ).

ومن المصادر التي تعرّضت لإحراق الأسطول والخطبة: المقرّي في نفح الطيب، وقد عاش المقرّي بعد فتح الأندلس بتسعة قرون، في حين أن المؤرِّخ التونسي المعاصر له ابن أبي دينار في كتابه (المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس) لم يتعرّض لذكرهما.

ومن جهة أخرى فإن ابن عبد الحكم أكّد مدى يقظة طارق وحذَرِه قبل مهاجمة الأندلس، وأنه كان يوْلي خطَّ الرجعة اهتماماً خاصّاً، فيما لو حصل ما لا يُحمد عُقْباه، فمرّ طارق بجزيرةٍ في البحر فخلّف بها نفراً من جنده.

كما تُجمع المصادر على أنّ طارق بن زياد قد بعث يطلب النجدة بعد انتصاره الأوّل جنوب قرطبة، فأمدّه القائد موسى بن نُصير بقوّات قوامها خمسة آلاف مجاهد، تمكّن بها طارق من خوض المعركة الثانية بإقليم إشبيلية، وبلغ الخبر (لذريق) فزحف إليهم من طليطلة، فالتقوا

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية: حسن حبش.

بموضع يقال له (شدرونة) على واد، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل (لذريق) ومن معه[1].

وممّا يؤكّد انتحال الخطبة أنّ المراجع التي ذُكرت بها تختلف في رواياتها لنصِّ الخطبة، وأن بعض ما جاء فيها مخالف للأهداف الحقيقية للفتوحات الإسلامية، مثل قوله: «واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرةُ من الحور الحسان من بنات اليونان، الرّافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذي التيجان».

كما جاء في نفح الطيب للمقرّي.

ثالثاً ـ معركة بواتيه، وعبد الرحمن الغافقي:

يقول سليمان قطاية في بحث له: «حينما جاوز العرب جبال البرانس انبثّوا غرباً وشمالاً وإلى الشرق أيضاً، غرباً فاحتلُّوا كلّ الشاطئ اللازوردي الفرنسي ودخلوا إيطاليا، بل إنهم جهَّزوا حملة لاحتلال روما، وفريق منهم ذهب شمالاً حتى مقاطعة السافوا العالية على الحدود السويسرية، وغرباً في منطقة الأكسيتين واللانقدول، حيث ما تزال آثارهم في اللغة والفنون باقية، وارتقى آخرون شمالاً فاحتلّوا مدناً كثيرة حتى وصلوا بواتيه.

ويعني ذلك أنهم احتلّوا قرابة ربع مساحة فرنسا، وقطعوا من جبال البرانس حوالي (٧٠٠ كم)، وكان من عادتهم أن يصحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم، وإلى جانب بواتيه المغربية يوجد سهل كبير واسع يفصله عن المدينة نهر صفر، حيث ضرب العرب خيامهم في السهل استعداداً للمعركة، إذ بلغهم أنّ العدو قد جمَع جماعة غفيرة من عساكر القتال، وقد

---

(١) فتوح ابن عبد الحكم.

تميّز العرب ـ على قول المؤرِّخين الفرنسيين ـ باستهانتهم بالموت والجوع والعطش، وبإيمانهم بأنّ الشهادة مفتاح الجنة، كما تميّـزوا بسيوفهم الفولاذيّة وبخيولهم التي لامثيل لها.

وقد برزت شخصية عبد الرحمن الغافقي للمرّة الأولى على إثر هزيمة المسلمين أمام قوّات الفرنجة في موقعة (نولوشة) ـ تولوز الشهيرة ـ ومقتل قـائدهـم السـمح بن مالـك أميـر الأندلـس، في أواخـر (١٠٢هـ/ ٧٢١م)، وكان المسلون في ذلك الوقت قد عبروا جبال البرنيه غير مرّة، واقتحموا ولايات فرنسا الجنوبية، واحتلوا ثغر (أربونة) وعدّة مدن هامّة أخرى من ولاية سبتمانيا، واختاره الزعماء للقيادة على إثر النكبة، ثم أصبح والياً للأندلس.

وكانت مهمَّته غزو الأمم الشمالية وحمل رسالة الإسلام إليها، ولم يُيَئِّسْه أنَّ ما قام به الإسلام من دحر الفرنج قد أضحى في خطر السقوط، وكان يتوق إلى الانتقام لغزو (نولوشة) ومقتل السمح بن مالك.

وقد سار في جيش ضخم من العرب والبربر (١١٠هـ/ ٧٣٢م) إلى غاليس فرنسا واخترق جبال البرنيه، ووصل إلى فرنسا (ربيع ٧٣٢م) وزحف توّاً على إمارة أكوتين جنوب غرب فرنسا، كما استولى على بوردو، وسار الجيش شرقاً نحو الرون واخترق ولاية سرجوتن، ووصل إلى صانص التي تبعد عن باريس نحو مئة ميل فقط، ثم تحوّل غرباً إلى ضفاف نهر اللوار، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كلّه من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر.

وفي معركة بواتيه مع كارل مارتل أصابه سهم، فنشر الرعب في الجيش وتحالف الأمراء الفرنسيّون ضدّه حيث التقوا به عند مدينة (بلاط الشهداء).

رابعاً ـ يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين (بطل معركة الزلاّقة ـ تلميذ عبد الله بن ياسين):

لقد كان المرابطون يضطرمون بروح الجهاد، وهذه الروح هي التي جعلتهم ينتصرون في معركة الزلاّقة وغيرها، هذه الروح هي التي جعلت المرابطين يحرزون الانتصارات الباهرة ضدَّ إسبانيا النصرانية، ويُحافظون على الأندلس، ولم يبدأ نجمهم بالأفول إلا بعد قيام الثورات عليهم من إخوانهم في الدين، وعبور الموحِّدين إلى الأندلس.

أمَّا الموحِّدون فعلى الرغم من أنّ دافعهم للجهاد كان كدافع المرابطين، إلا أنهم لم ينالوا في حروبهم ضدّ إسبانيا النصرانية ما ناله المرابطون من نصر في الجهاد، وسبب هذا اختلال نظام الجيوش الموحِّدية وضعف قيادتها، ولم تبرز الجيوش الموحِّدية في جهادها ضدّ النصارى إلا في معركة (الأرك) العظيمة التي أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور انتصاره الباهر على القشتاليين (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)، ولكنّ هذا النصر لم يلبث أن مَحَتْ آثاره معركة (العقاب) التي انتصر فيها القشتاليّون، ولم يمضِ على هذه المعركة سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحِّدين بالأندلس.

وكان يوسف بن تاشفين أمير المغرب، وكان ملوك الأندلس قد استنجدوا به لنصرته، فكتب إليه المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية يعلِمُه بحال الأندلس، وما آل إليه أمرُها من تغلّب العدو على أكثر ثغورها وبلادها، ويسأله النصر والإعانة.

وقد جاء يوسف بن تاشفين في جيش كثيف، وكانت معركة (الزلاّقة)، هذه المعركة الحاسمة التي جرت بين المسلمين والإسبان في الأندلس، إذ قتل فيها معظم جيش العدو الذي لم يكن يقلّ عن مئة ألف شخص، وكُسرت شوكة الإسبان إلى حينٍ طويل، وأمدّ الله تبارك وتعالى

بسببها في حياة الأندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن.

وكان الإسبان قد أجمعوا أمرهم على إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية في هذه الفترة، التي بلغت فيها دولتهم منتهى الضعف تحت حكم ملوك الطوائف، ولكنّ الله خيّبَ آمالهم وأبطل تدبيرهم، وعادت لدولة الإسلام عزَّتها وصَوْلتها.

وكانت (الزلّاقة) يوم الجمعة (١١ رجب ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٤٨٦م) وفي عام (٤٨١هـ) جاز يوسف إلى الأندلس جوازه الثاني برسم الجهاد، وقد انطلقت فرسان العدو من حصن (لبسيط) المتاخِم لمملكة ابن عبّاد انتقاماً منه، لأنه كان السبب في دخول المرابطين إلى الأندلس.

وحاصر يوسف الحصن أربعة شهور، وجاء المدد إلى الحصن فأقلع عنه يوسف ورجع إلى المغرب، وقد تغيّـر على ملوك الأندلس؛ لكونهم تخلّفوا عن دعوته، ثم جاز إلى الأندلس جوازه الثالث برسم الجهاد (٤٨٣هـ)، وسار حتى نزل طليطلة وحاصرها، والفونس فيها، فهتكها وقطع ثمارها وخرّب ناحيتها، ، فلم يأبهْ أي ملك من ملوك الأندلس، فلمّا شفى غيظه من طليطلة سار إلى غرناطة، وكان ملكها المسلم قد ظاهر الفونس على يوسف، فأخذها من يده ثم ضمَّ يوسف الأندلس إلى ملكه (٤٨٤هـ) حيث استصفى ملوك الطوائف، وخضعت البلاد كلها ليوسف، ثم كان انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية (محرم ٥٠٠هـ) بعد إنقاذه الأندلس.

* * *

وكان الإسبان قد بدؤوا حملة اكتساح قويّة لبلاد المسلمين أو ما يسمّونه حرب الاسترداد، واستخفّوا كثيراً بملوك الطّوائف الذين ورثوا خلافة قرطبة، لمَّا رأوا تنازعهم وقلّة عنايتهم في الدفاع عن حَوْزتهم، حتى أنّهم رضوا بدفْع الأتاوة للعدو لقاء كفّه عن قتالهم!.

وكان الفونس السادس ملك قشتالة قد شقّ بلاد الأندلس شقّاً، وسقطت طليطلة في يده.

وهكذا استولى يوسف بن تاشفين على دول الطوائف في مدّة لا تزيد عن عشرين عاماً (٤٨٣هـ/ ٥٠٣هـ)، وبهذا أصبحت الأندلس ولاية مغربيّة تخضع لحكومة مرّاكش وتحتلّها القبائل البربريّة المغربية بعد أن كانت المغرب ولاية أندلسيّة تخضع لخلافة قرطبة الأمويّة قبل هذا التاريخ بقرن من الزمان.

وقد حكم المرابطون نصف قرن وخلفهم الموحِّدون الذين حكموها أكثر من قرن، وكان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين، وزعيم الموحِّدين عبد المؤمن بن علي، وكلا المرابطين والموحِّدين ينتمي إلى طائفة من القبائل البربريّة، وقامت كلتاهما على أسس دينيّة وعلى يد فقيه (عبد الله بن ياسين) للمرابطين، والمهدي بن نومرت للموحِّدين، وتجمعهما فكرة الجهاد وحماية الأندلس من عدوان الممالك الإسبانية النصرانية، وكانت روح الجهاد تضطرم في نفوس المرابطين، وهي التي جعلتهم ينتصرون في معركة الزلّاقة وغيرها، وهذه الروح هي التي جعلت المرابطين يحرزون الانتصارات الباهرة ضدّ إسبانيا النصرانية ويحافظون على الأندلس.

أين هذا من جنود الأندلس المترَفين، الذين نسوا مهمّة الحرب، وغرقوا في ملذّات الدنيا، حتى أنهم جاؤوا إلى الحرب بثياب حريرية، غير لائقة إلا بالنساء[١].

* * *

(١) عن محمد بن عبد الله عنان، وآخرين.

البَابُ الخَامِسُ

تَطوِيقُ عَالَمِ الإسْلَامِ



قاوم المسلمون عمليّات تنصيرهم، وصمدوا طويلاً في وجه الاجتياح، وغدرَ الحكّام الجدد، فلم ينفّذوا العهود والمواثيق التي ارتضوها بإعطاء أهالي البلاد المسلمين حقَّهم في الحياة وحريَّتهم في العبادة.

وظلّت هذه المقاومة مستمرَّة لم تتوقّف (من ١٤٩٢م إلى ١٦٠٨م) عندما قام الإسبانيّون بطردهم نهائياً، حيث جمعوا مئات الألوف منهم في عملية تهجير بشعة، حيث قذفوا بهم على الشاطئ الآخر من تطوان والجزائر وتونس، وحِيْلَ بين الآباء والأمّهات، ومُنِع كلٌّ من دون البلوغ من الهجرة لسهولة تنصير هؤلاء.

لقد كانت الخطّة خطيرة شديدة الخطر، لم تكن هي استرداد الأندلس وإخراج المسلمين والعرب بعد الاستيلاء على كلِّ مقدراتهم وجامعاتهم ومناهجهم العلميّة وحدها؛ ولكن استغلال هذه القوة كلّها في متابعتهم ومطاردتهم بعد أن يعبروا البحر إلى الساحل الآخر، والذهاب إلى أقصى الأرض في سبيل القضاء عليهم.

يقول الأستاذ محمود الغول: «كان البرتغاليون قد أخرجوا العرب من بلادهم في غرب الأندلس في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، وشُغلوا بعدها وقتاً بحروبهم مع مملكة ليون ـ إحدى مملكتي إسبانيا إذْ ذاك.

وفي مطلع القرن الخامس عشر بدؤوا يتّجهون إلى البحر، إذ أن

سبيل التوسّع في البرّ كان مسدوداً بسبب إحاطة إسبانيا بالبرتغال من سائر الجهات.

وكان البرتغاليون قد أنشؤوا أسطولاً تجارياً يتاجر مع سواحل أوروبا الغربية، ولكنّهم ابتدؤوا في القرن الخامس عشر ـ تحت قيادة الأمير هنري الملاّح ـ يبحرون حذاء ساحل أفريقيا على المحيط الأطلنطي، تدفعهم رغبة أن يصلوا مملكة القسيس يوحنّا، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على مملكة نصرانية في شرق أفريقيا، لا يعرفون حقيقتها إلى أن تبيّـن لهم فيما بعد أنها مملكة الحبشة.

كانوا يطمعون في أن يصلوا إلى هذه المملكة الغامضة، فيتَّحدون معها ويطبقون منها على المسلمين في الشرق، ومضوا يزحفون على سواحل أفريقيا الغربية على مهل، حتى بلغ بهم سعيهم إلى رأس الرجاء الصالح، أقصى نقطة جنوبية في أفريقيا عام (١٤٨٦م).

كان وصول البرتغاليين إلى رأس الرجاء الصالح لا يقلّ أهميّة عن اكتشـاف كـولمبـس لأمـريكـا عـام (١٤٩٢م) لحسـاب إسبـانيـا، فكـلا الاكتشافَين كان بعيد الأثر في تطوّر الاستعمار الغربي وتطور التاريخ الحديث، ولكنّ اكتشاف رأس الرجاء الصالح يزيد أهميّة ـ بالنسبة للعرب ـ عن عام سقوط غرناطة بالأندلس، فقد كان أمرها يكاد يكون محتوماً.

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أكبر ضربة على العرب في الشرق بعد أن تضعضع مركز العرب في الغرب، فقد كان قدوم البرتغاليين إلى المحيط الهندي فادح الأثر على العرب والإسلام في سواحل أفريقيا وجزيرة العرب والبحر الأحمر وشمال المحيط الهندي.

بل إنه هو الذي سهَّل القضاء على دولة المماليك في مصر، حين عجزت عن حماية مياه المحيط الهندي.

بدأ البرتغاليون يُعِدُّون الأساطيل للسفر إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، حيث وصل (فاسكو دي جاما) إلى مالندي وفاليقوط في الهند، وعاد إلى البرتغال من نفس الطريق، ثم عاد (١٥٠٢م) واحتلَّ زنجبار، ثم سغاله ومحباسا.

ولما احتلَّ البرتغاليون هذه البلاد نهبوها ثم أحرقوها. وتوالت الحملات إلى هذه المناطق، وقاوم أهلها مقاومة شديدة وأوقعوا بالبرتغاليّين الخسائر، ولكنّهم عجزوا آخر الأمر عن حمايتها، ومن محباسا إلى مقديشو فجزيرة سومطرة، وأقاموا فيها قاعدة العمليات الحربية البحريّة في خليج عدن والبحر الأحمر، ثم هاجموا مسقط واحتلّوا هرمز، ودمّروا أسطولاً إسلامياً كبيراً بقيادة أسطول المماليك، وساروا إلى عدن ولكنهم عجزوا عن احتلالها، ولكنَّهم استطاعوا في عشر سنوات أن يحتلّوا السواحل الأفريقية إلا مقديشو وجزر القمر ومدغشْقر.

وهكذا ضاع سلطان العرب والمسلمين على سواحل المحيط الهندي ومياهه الشرقية.

وفي هذا الوقت كان الاستعمار الأوروبي كلّه قد هبّ لاقتسام الغنيمة، فتواردت على المنطقة أساطيل الإنجليز والهولنديين، والفرنسيّين الذين حلّوا أخيراً محلَّ البرتغاليّين والإسبان.

ولقد قاوم العرب قوى البرتغاليّين مقاومة شديدة ومستمرّة، وحلّ الإنجليز مكانهم في الهند، والهولنديون في سيلان. ثم تمكّن العُمانيون من مقاومة البرتغاليين وتدمير قوتهم البحريّة وسلطانهم السياسي، وقد بلغت قوة أسطولهم في السواحل وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر مبلغاً أرهب الأوروبيين جميعاً بما فيهم الإنجليز والهولنديين، فكانوا يتجنَّبون المرور بالعُمانيين في عرض البحر، ثم تمكَّنوا من طرد البرتغاليين نهائياً.

* * *

ويمكن القول: إنه بسقوط الأندلس في أيدي الإسبان (١٤٩٢م) بدأ عصر القرنصة الأوروبيّة الخطيرة، التي حاولت ضرب مراكب المسلمين في البحر المتوسط في ثغور تونس والجزائر، وهو العصر الذي يسمّونه عصر الكشوف الجغرافية كذباً وتضليلاً، فإنّ هذه المناطق التي ذهبت إليها حملات التبشير المدجَّجة بالسلاح في قلب أفريقيا كانت كلّها معروفة للمسلمين، وقد أورد عنها تفصيلات كثير من مؤرخي الإسلام ورحّالتهم، وفي مقدمتهم ابن بطوطة.

فمصطلح الكشف(Exploration) قد أُطلق على الحملات الانتقاميّة التي شنّتها إسبانيا والبرتغال على الشاطئ الإسلامي العربي حسب الوصية التي أوصى بها متعصِّبو الفرنجة من ملوك وقُسُسٍ، وذلك في محاولة لإزالة الإسلام من حوض البحر المتوسط بدعوى الثأر من سيطرته على أملاك الدولة الرومانية، التي لم تكن إلا دولة مستعمرة لشاطئ الشام ومصر وأفريقيا، فقد كان أهل هذه المناطق كلّهم عرباً وبربراً مستعبَدين، قد تسلّطت عليهم الإمبراطورية الرومانية، ووجدوا في الإسلام مخلِّصاً لهم ومحرِّراً بعد عبوديّة الفرد وعبودية الدين.

وقد تصدَّى لهذه الحملات مجموعة من متعصّبي الفرنجة؛ أمثال ولفتسجتون وصمويل بيكر، الذين جاسوا في البلاد ودمّروا وخرّبوا.

وكان ابن بطوطة قد وصل إلى أعالي نهر النيجر وإلى تمْبكتو وسكوتو قبل أن يصل إليها الرُّواد الأوروبيّون، وأوّل من أشار إليها، وذلك قبل ثلاثة قرون من وصول البعثات التبشيريّة.

ويحاول الاستعماريّون أن يردّدوا هذه الشبهة، وأن يفرضوها على كتب المدارس في البلاد المستعمَرة مدَّعين أنهم اكتشفوا الهند، مع أن الهند كانت معروفة في القارة الأوروبية في العصور القديمة، وذلك قبل وصول ماركبولو (١٢٥٤م ـ ١٣٢٤م) الذي وصل إلى فارس وأفغانستان

وبكين والتيبت؛ أو فاسكو دي جاما الذي أبحر حول أفريقيا عام (١٤٩٧م) ومنها إلى الهند.

يضاف إلى هذا الكذب الادّعاء الذي ردّده الاستعمار من أن صمويل بيكر هو الذي اكتشف منابع النيل الأبيض، مع أنّ هذه المنابع لم تكن مجهولة في وقتٍ ما.

والواقع أنّه ما وُصف بأنه رحلات الكشف هذه لم تكن إلا خطّة الاستعمار التي فرضتْها الدول الأوروبية، وفي مقدِّمتها إسبانيا والبرتغال بعد تحرّرها من النفوذ العربي الإسلامي في الأندلس، في محاولة لتطويق عالم الإسلام.

وقد أشار ولفتسجتون في إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال: «إنَّ نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري».

فإنَّ الإرساليات التبشيرية كانت تتحرّك وراء هؤلاء الرحَّالة، الذين كانوا في الأصل دعاة ومبشِّرين.

وليس هذا استنتاجاً وإنما هو نصٌّ من مصادر تاريخيّة مدعومة بالأسانيد، حيث يقول رولاند أوليفر في كتابه (العامل التبشيري في شرق أفريقيا) ما يلي بالنص:

«ولقد أعد ولفتسجتون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل في جمعيّة التبشير اللندنيّة للاطّلاع بمشاغل التبشير الخاصة بأفريقيا الاستوائية، وبالعمل بين شعوب فطرية في بلاد لم يكن قد سكنها الأوروبيّون».

وفي عام (١٨٤١م) كان ولفتسجتون لا يزال يفكّر بطبيعة الحال في التجارة أكثر من الاستعمار، وبما أنه كان أولاً وقبل كلِّ شيء مبشّراً مسيحيّاً، فلقد اختار كعضو في هذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه إلى داخل البلاد، لقد أراد ولفتسجتون أن يستكشف طُرقاً في أفريقيا للمبشّرين لا للمدنيّة، كان ولفتسجتون مبشّراً

قبل أن يكـون رحّالـة ولم تكن رحلتـه المشـهورة إلا تمهيداً للبعثـات التبشيرية». ا هـ.

أما فاسـكو دي جاما فقد لقي في كتبنـا المدرسـيّة اهتمامـاً كبيراً، وصُوِّر بصورة البطولة، بينما تكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعماله وغيْـره من طلائع الفتح والاستعمار وما قاموا به من ظلم وبطش.

وتصفُ الكتب التاريخية الموثوق بها (ديجاما) بأنه كان من أقسى خصوم الإسلام والمسلمين، ففي رحلاته إلى آسيا ضرب بمدفعيته الثقيلة المراكب العزلاء التي تنقل الحجّاج إلى مكة، فأحرقها بعد أن نقل أموال أهليها وأمتعتهم إلى أسطوله، وبعد أن حظر على رجاله إنقاذ الغرقى، ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعاً، إلا عشرين طفلاً بعث بهم (ديجاما) إلى البرتغال حيث حُملوا على اعتناق النصرانية.

هذه حقيقة ما تصوِّره كتب التاريخ بالمكتشِف العظيم، بينما لم يكتشف شيئاً، فهو لم يصل في حياته إلى كالكوتا، ولم يستقبله الحاكم الهندي، لأن البرتغالي (بارتلمي دياز) كان قد بلغ رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودي جاما بعشر سنين، فضلاً عن أنَّ عبور المحيط الهندي من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من التجَّار العرب والهنود منذ قرون.

أما (هنري) الملاح البرتغالي (١٣٩٤م - ١٤٦٠م) فإنّ حقده على العرب والمسلمين واضح وصريح، فقد حمل في ريعان شبابه على مدينة سبتة التي انطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرُدَّ على أعقابه، وأسَّس مدرسةً بحريّة ضمت رجالاً حملوا لواء تجديد الحـروب الصليبيـة، وخوّلـه البابـا نيقـولا الخامـس حقّ الفتـح والاستيلاء على جميع البلاد حتى الهند.

أما الرحَّالة البوكرك فقد كتب إلى ملكه؛ يفخر بأنه ذبح جميع

مسلمي مدينة (جوا)، وجعلهم أكداساً في المساجد، ثم أحرقهم، وأنه أشعل النار في سفن المسلمين، ومع ذلك فإنَّ هذا السفاح يُذكَر في كتب التاريخ العربية على أنه فاتح منتصر!.

كان وراء عصر الكشوف الجغرافية محاولة تطويق عالم الإسلام، بقيادة القوى الكاثوليكيّة في إسبانيا والبرتغال، ومن ورائها البابوية والروح الصليبية التي كانت تهدف إلى حصار الإسلام، إن لم يكن القضاء عليه.

ويمكن القول إن إسبانيا قد اختطَّت خطّة مختلفة عن خطّة البرتغال ولكن في نفس الاتجاه، أو بدأت حرباً استمرّت ثلاثمئة سنة على الجزائر (١٤٩٢م ـ ١٧٩٢م).

يقول المؤرِّخ الجزائري أحمد توفيق المدني:

«لقد اخترمت هذه الدولة في ميادين الكفاح والجهاد ثلاثة قرون ونيّفاً، مرفوعة الرأس خفّاقة الأعلام سائرة ضمن دائرة الخلافة العثمانية نحو استكمال السيادة المطلقة وتحقيق السلام العام، حتى إذا ما ضربها الاستعمار الفرنسي حيناً من الدهر.

لقد برزت الدولة الجزائرية الأولى نتيجة لحملة صليبيّة استعماريّة هوجاء كانت أرض الجزائر بعد أرض الأندلس هدف هذه الحملة وميدان عملياتها الدامية، فالإسبان الذين تولَّوا كبْـر هذه الملحمة كانوا يمثّلون المسيحية رسمياً، ويعملون باسمها ويحملون شعارها، يؤيدهم في ذلك باباوات روما، أما الجزائريّون فقد جاء لنصرهم وجمع شملهم وتولّي قيادتهم من الأتراك، فقد كانوا يمثّلون الإسلام، ويجاهدون في سبيله، ويردّون العاديَـة عنـه، ويتقرّبون إلى الله بالاستشهاد تحت لوائه، فاقترن الدفاع عن الوطن بالدفاع عن الدين، حتى إذا ما اتخذوا مدينة الجزائر عاصمة لهذه الدولة أطلقوا عليها اسم (الجزائر دار الجهاد)، وظلّ اسمها كذلك من (١٥١٦م) إلى (١٨٣٠م).

لقد تدخَّل الأتراك في هذه المعركة الحاسمة والملابسات التي أوجدتها، وما نزال نذكر الدور البطولي الذي قام به الأتراك خلال عصر الانحلال والتدهْـور والغزو المسـيحي في قيادة الشـعب، وشدِّ أزره ضد العدو المهاجم».

ويتحدَّث الأستاذ أحمد توفيق المدني في شأن نشأة الاستعمار الغربي (إسبانيا والبرتغال) قبل أن يشتدّ ساعد الهلال الأوروبي في سماء أوروبـا: «وتنصّ معـاهدة (١٥٠٩م) على أن يكـون المغـرب الأقصى للبرتغال، ولإسبانيا المغرب الأوسط (الجزائر)، ثم انطلقتا تفتِكان بالإنسان فتكاً ذريعاً.

جاء ذلك بعد تحطيم مملكة غرناطة وقيام إسبانيا المسيحيّة الموحَّدة وإبعاد مليونين من المسلمين (١٤٩٢م).

ومن جميل صنع الله تبارك وتعالى أنه عندما كان نجم المسلمين يأفل في بلاد المغرب الإسلامي الأوروبي؛ كان هناك نجمٌ إسلامي ساطع يتألَّق نوره في بلاد المشرق الإسلامي، هو نجم الدولة التركية العثمانية، التي نمَت في أوروبا وفي بلاد الأناضول، ثم تدفَّقت سيلاً عارماً على ما يليها من أقطار أوروبّا وأفريقيا وآسيا، ثم جاء فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح.

وكانت فكرة الدولة العثمانية أنّ الإسلام كلّه في حالة حرب مستمرّة على المسيحيّة كلِّها، لا يستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة، والتي تدفع الجزية.

وقامت الدولة الجزائرية (١٥١٦م).

وقد وجّه السلاطين العثمانيون كلّ جهدهم لفتح أوروبا ونشر لواء الإسلام فيها، فدخلوا: البلقان، المجر، البلاد الروسيّة حول البحر الأسود، ووقفوا عند أسوار مدينة فينّا وأسوار مدينة البندقيّة.

وفي مواجهة القرصنة الأوروبيّة أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولاً يحارب من حارب سلطانهم، ويسالم من سالَـمَهُ، وعَظُم شأنُ هذه القرصنة الإسلامية، وقد بدأت القرصنة الإسلامية من وهران، وظهر من أبطالها عروج وخير الدين وأوقالش علي، وحوار عور، وسنان، وأضرابهم.

وجرى ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة أو الواردة.

وكان القراصنة البرتغال والإسبان يتعرَّضون في كلّ البحار للسفن الإسلامية، وخاصّة على سواحل المغرب العربي، وازدادت هذه القرصنة جرأة عندما حمّ القضاء بمسلمي الأندلس، وأخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر، فارّة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها إلى سواحل الشمال الأفريقي، فكانت سفن القراصنة الإسبان والبرتغال تستحوذ على السفن الإسلامية، وتسبي من فيها من رجال ونساء، وتأخذها مع ما فيها من متاع.

وقد اشتدّ عضد المسلمين في المغرب العربي بما جاءهم من مهاجري الأندلس العارفين بالملاحة وفنونها، الماهرين في صناعة السفن، فأخذت المدن الساحلية في المغرب تنشئ سفن القرصنة دفاعاً وتقابل العدو بالمثل، وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا ومن وهران وشرشال والجزائر وبجاية وجيجل، تخرج جريئة إلى سواحل إسبانيا تقابل فيها العدوان بمثله، فتضرب معاقل العدو، وتأخذ ما استطاعت من خيرات وأرزاق، وتسبي ما استطاعت من رجال ونساء.

وكان لمدينة وهران اثنتا عشرة سفينة قرصان، بلغ من قوتها وجرأتها أن هاجمت سواحل العدو، وأخذت منها الغنائم والأسلاب، ثم سارت إلى مرسى مدينة مالقة الإسبانية، فدخلتها وأحرقت داخلها كلّ السفن المعادية التي كانت بها.

وازدادت القرصنة الإسلامية ضراوة في الشمال الأفريقي بعد إنقاذ مسلمي إسبانيا، واضطرارهم إلى الالتجاء لهذا الشمال.

ويعتبر الوجود العسكري البرتغالي في جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، والذي امتدّ لأكثر من قرن من الزمان (١٥٠٠م ـ ١٦٣٠م) امتداداً طبيعياً للحروب الصليبية، تلك التي دعا إليها البابا إيريان الثاني عام (١٠٩٥م) فحمل الصليب ونادى: «هذه هي إرادة الله».

ومما سجّله التاريخ أن البوكرك (أحد قادة هذه الغزوة البرتغالية) وضع خططاً للهجوم على المدينة المنوّرة، ترمي إلى قيام السفن البرتغالية باحتلال ميناء (يَنْبع)، فإذا تمّ ذلك تقوم قوة من الفرسان البرتغاليين المدرَّعين بالحديد، مكوَّنة من أربعمئة رجل بقيادة البوكرك نفسه بشبه غارة ليليّة صاعقة على المدينة المنوّرة، تقتحم فيها مسجد الرسول ﷺ وتصل إلى القبر الشريف وتقوم بنبْشه، ونقل الرفات الطّاهر، والهرب عائدين إلى ينبع ثم إلى السفن، فإذا تمَّ ذلك قام البوكرك بمقايضة الرفات الطاهر بكنيسة القيامة التي كانت تحت حماية مماليك مصر، وإعادتها إلى الكنيسة المسيحية في روما.

وقد فشلت هذه الخطة ودمِّرت تدميراً، ورجع البوكرك مهزوماً.

ومما يذكر في هذا المقال أنَّ إسبانيا والبرتغال حرصتا بعد غياب شمس الأندلس الإسلامية على محو كلّ آثارها من مساجد ومدارس، كما حوّلت جامع قرطبة إلى كنيسة، والذي ما زال قائماً بأعمدته وشرفاته وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ، وذلك بالرغم من أنَّ أقدم أجنحته، وهو الجناح الذي بناه عبد الرحمن الداخل الأموي؛ قد مضى على بنائه زهاء ألف ومئة عام.

أما المسلمون فإنهم لم يقوموا عند الفتح بهدم جميع الكنائس التي كانت قائمة بالمدن المفتوحة أو تحويلها إلى مساجد، بل تركوها كما

هي، وبنوا مساجد إلى جوارها كما فعلوا في قرطبة وطليطلة، كما أنهم تركوا في نفس الوقت في سائر المدن الأندلسيّة كثيراً من الكنائس، لكي يزاول فيها النصارى شعائرهم أحراراً كإخوانهم المسلمين.

ومن دعاوى متعصِّبة الغرب أن جامع قرطبة كان كنيسة، مع أنه لا يوجد دليل واحد على أنّه كان كنيسة ذات يوم، ذلك أنّ الهندسة التي كانت تبنى عليها الكنائس تختلف وتتنافى والهندسة الإسلامية في المساجد، وجامع قرطبة مسجد خالص في بنائه وطبيعته وفي محاريبه وعدم ارتفاعه، وأشياء أخرى لا نجدها إلا في المسجد.

ولو دخل أي فرد الآن هذا المسجد القديم الذي حوِّل إلى كنيسة لعرف من اللحظة الأولى أن طبيعة الكنيسة تختلف عن طبيعة المسجد، وهذا واضح جدّاً في هذا البناء.

وبالرغم مما فعله الإسبان بالمسجد لم يتمكّنوا من تغيير محرابه العملاق العظيم لأن روعة جماله وزخرفته أخذت بألبابهم، فلم يتمكّنوا - كما يقول الدكتور حسن السايح - من أن يهدموا الحضارة المشعّة، ووقفت أيديهم عند هذا الحدّ.

وكثيرٌ مما كتبه المؤرخون الغربيون كان صادراً عن أحقادهم على انتصار المسلمين في هذه البلاد وانتشار الإسلام بها.

وكلّ الكنائس التي كانت في إسبانيا هي كنائس قديمة، احتفظت بهويتها وبُنيت المساجد الإسلامية بجانبها، ولكن العجب أنّه في حركة الاسترداد أخذ النصارى المساجد وجعلوها كنائس، كما فعلوا في إشبيلية ومناطق أخرى.

* * *

ملاحق البحث
حول الكشوف الجغرافيّة والتوسُّع البرتغالي
والجهاد البحري في مواجهة القرصنة الأوروبية

١ ـ الكشوف الجغرافيّة:

لم تكن حركة الكشوف الجغرافية سوى وسيلة من وسائل مطاردة المسلمين ومحاولة حصارهم للقضاء على الإسلام نفسه، قال المؤرِّخ البريطاني فاسكو ديكارا فللو:

«إن الواجب يحتّم على النصارى ألاَّ يتركوا المسلمين الأندلسيين ينعمون بالمقام في الشمال الأفريقي، وعليهم أن يتعقَّبوهم حيث وصلوا».

وهكذا فإنّ روح الخصومة والكراهية والحقد الكامنة في نفوس النصارى ضدّ الإسلام هي التي دفعتهم إلى إطفاء جذوة الإسلام في صدور المسلمين، بتفريغهم من الغيرة على بلادهم، ومن الجهاد، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الحفاظ على ذاتيَّتهم الخاصّة، والعمل على انهيارهم وتراخيهم، حتى يجري احتواؤهم وصهْرهم في بوتقة الأمميّة؛ وبذلك يفقدون وجودهم الحقيقي.

وقد تبيَّن من الدراسات التاريخيّة المحايدة والمنصفة أن حركة الكشوف الجغرافية لم تكن سوى محاولة للسيطرة تحت اسم الكشف عن المواقع الجغرافية والادّعاء بكشفها لأول مرة، مع أنها كانت معروفة للعرب وموجودة في كتب الرحَّالة المسلمين.

وقد لوحِظَ أن تزييفاً تاريخياً كبيراً في تاريخ العالم الإسلامي قد وقع في فترة القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وذلك عندما خطّطتْ البابوية للالتفاف حول العالم الإسلامي من الشرق، ومحاصرته من أطرافه الشرقية، ونجحت في هذا، وساهمت البرتغال وإسبانيا في هذا المخطّط.

وإن الزحف الأوروبي جاء للعمل على زلزلة العالم الإسلامي في الميادين السياسية والاقتصادية والعقائدية، وبدأت هذه الدول ذلك بحكم سيطرتها على مقدّرات بعض الدول الإسلامية، وإنه على مدى سنوات متعدّدة تغلغلت الامتيازات الأوروبية في البلاد الإسلامية، لتشجيع الغزو الفكري الغربي، الذي كان كلُّ همّه ـ ولا يزال ـ تمزيق وحدة الفكر الإسلامي، لتظهر الاحتكارات الغربية في دول إسلامية متعدّدة، ومن هنا كانت أهمية الدعوات التي كانت تدعو إلى وحدة المسلمين.

والمعروف أن الاستعمار واجه الدول الإسلامية، وعاملها دائماً باستراتيجيّة موحَّدة، استطاعت أن تتكيّف بأوضاع جائرة خاصة بعد الحرب العالمية، دون مراعاة خطورة تمزيق العناصر البشريّة الموحّدة، بل قصد إلى تمزيق العملاق الإسلامي الكبير الرابض في وسط العالم القديم من حدود الصين واليابان إلى المحيط الأطلسي.

الحقيقة أنّ الكشوف الجغرافية لم تكن إلا عنواناً كاذباً للزحف الصليبي الذي كان يطمع في البحث عن موانئ على الأنهار، ومواقع على الشواطئ، ليستطيع من خلالها نقل جيوشه كمقدّمة للغزو.

* * *

٢ ـ البرتغاليون:

إن قدوم البرتغاليين إلى الهند يعتبر بحقّ نقطة التحوّل في تاريخ تجارة الهند والصين والملايو بالنسبة للعرب، ذلك أنَّ البرتغاليين

بأساطيلهم البحرية والتجارية، وبما عرف عنهم من شراسة استعماريّة وجشع، كانوا يَنْتهجون سياسة قائمة على البطش والقتل والفتك بسفن غيرهم من التجّار، ولا سيما سفن العرب والمسلمين.

ولم يكتفوا بمطاردتهم من البحر، بل نزلوا موانيهم واحتلّوها ودمّروها، وأنشؤوا فيها القلاع منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ولا يكاد يخلو أي ميناء بحري عربي يطلّ على الخليج العربي حتى يومنا هذا من بقايا القلاع البرتغاليّة ومدافعهم النحاسيّة، التي نصبوها في تلك القلاع: (مسقط بعمان ـ المنامة بالبحرين ـ القطيف في الإحساء ـ البصرة بالعراق)، وقد اختلفت مدَّة بقاء البرتغاليين في تلك الموانئ، ولم يكسر شوكتهم غير أسطول مسقط العربي، ذلك أن العمانيّين ـ وكانوا سادة البحار عند مقدم البرتغاليين ـ قد تعلّموا صناعة السفن على الطريقة الأوروبية، التي تثبّت ألواح الخشب بمسامير حديدية قوية، بعد أن كانوا ـ حتى قدوم البرتغاليين ـ يخيطون أخشابها، ثم بعد أن تسلّحوا بمدافع من طراز مدافع البرتغال النحاسيّة، غير أنَّ اندحار البرتغاليين لم يَعْنِ بحال من الأحوال زوال الخطر الأوروبي عن تجارة الخليج، ذلك أنَّ الهولنديين كانوا قد أسهموا بدور فعّال في القضاء على نفوذ البرتغاليين في مياه الخليج، وازداد نفوذ الهولنديين في القرن السابع عشر، ثمَّ جاء النفوذ البريطاني في الخليج في القرن التاسع عشر وما انطوى عليه من احتكار كلّي شامل للتجارة[1].

* * *

٣ ـ من التوسُّع البرتغالي إلى السيطرة الهولندية:

١) كان التوسُّع البرتغالي بعد سقوط الأندلس في قبضة الغرب مرَّة

---

(١) الدكتور أحمد أبو حاكمة.

أخرى بعد ثمانمئة سنة من إسلامها، منطلقاً للثأر الخطير الذي رتبته الكنيسة والقوى المسيحية والاستعمارية الغربية لغزو شواطئ أفريقيا الإسلامية والوصول إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه النفوذ الغربي لأمرين:

١ ـ لتطويق العالم الإسلامي وحضارته توطئةً للقضاء عليه.

٢ ـ للسيطرة على موارده وتجارته وثرواته.

يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى: «كان الضغط البرتغالي تجارياً أساسه إلى حدٍّ كبير، وقد امتزج به هدف ديني خاصةً وأنَّ بابا روما كان يودُّ توجيهه لتطويق العالم الإسلامي وتوطين أقدام المسيحية في الشرق الأوسط والهند[١]».

ولقد كانت الحملات الصليبية تمثّل ردّ فعل أوروبا النصرانية ضدّ آسيا المسلمة، وهي حملات هجومية بدأت على إثر بعثة محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي، وبقيت كذلك لأكثر من ألف عام.

هذه الحملات الصليبية التي استطاعت احتلال القدس وحكمها لمدّة ثمانين سنة، ولكن القدس استُعيدت من قِبل المسلمين، وبحلول عام (١٢٩١م) استُعيدت كلُّ المدن التي كانت تحت سيطرة الصليبيين بأيدي المماليك المسلمين (وهذا هو سرُّ كراهية المستشرقين للمماليك).

وقد ظهر السلوك الصليبي على حقيقته في عهد ما يسمَّى الاستكشافات الجغرافية، وكان هو الدافع الذي قاد إلى تلك الاستكشافات في عهد الاستعمار الغربي التجاري المبكّر، كما كان واضحاً في الطريقة التي حكم الإسبان والبرتغاليون والأوروبيون والأمريكيون بها.

وقد بدأ الاستعمار الأوروبي في مجموعة الهند وجنوب شرق آسيا، وكان الإسلام قد وصل إلى جزر الفيلبين، وتغلغل في مانيلاّ شمالاً، حتى

---

(١) انظر مقاومة التوسّع البرتغالي في نهاية الباب القادم.

جاء فاسكو دي جاما ودار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل إلى الهند (١٤٩٨م)، وعندما وصل البرتغاليون إلى مانيلاّ والأنديز، شنُّوا حرباً عنيفة كالحملات الصليبيـة ضدّ الإسـلام، وبعد سنوات شرع البرتغاليـون والإسبان في نشر النصرانية بالقوة بين سكّان جزيرة الأنديز.

وكانت البرتغال قد استقلّت عن الحكم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي (١٤٦٠م)، وفي نفس الوقت أنشأ هنري الملاَّح مدرسة الملاحة، لتُتَابع الحملات الصليبية في محاولة الالتفاف حول دار الإسلام استراتيجيّاً وتجاريّاً، وإقامة الاتصالات بين النصارى الأثيوبيين (الحبشة) والإغارة معاً على المسلمين في الجنوب.

وعندما وصل فاسكو دي جاما إلى الهند وإلى الأنديز (١٤٩٨م) كان ذلك بداية الركود التجاري والاقتصادي الإسـلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط لأكثر من ثلاثمئة وخمسين سنة.

ووصل البرتغاليون إلى مداخل الخليج العربي (١٥٠٦م) والبحر الأحمر ومضيق مالاكا بين سومطرة وملايو.

واستمرّت الحملات الصليبية ضدّ مسلمي جزيرة الفيلبين حتى وصل الإسبان إليها (١٥٢٠م) بقيادة ماجلان، وأصبحت مانيلا (١٥٧٠م) مركز الحملات الصليبية ضدّ مختلف سلاطين الجزر المسلمين.

وفي القرن السابع عشر ورث الهولنديّون جزر الأنديز من البرتغاليين (١٦٤١م)، وكان الهولنديون قد طردوا الإسبان والإنجليز، واحتلّوا مدينة مالاكا.

وعندما برزت القوة العثمانيّة في شرق البحر المتوسّط بعد القرن الخامـس عشـر كان ذلك له أثـره في احتفاظ الأوروبيين بطريقـة التفكير الصليبي حتى اليوم، حيث بدأت المنافسة بين بريطانيا والنمسا وفرنسا على أرض الدولة العثمانيّة».

٢) ـ ويركّز المؤرِّخون على أنَّ التوسُّع البرتغالي كان بعيد الأثر في تراجُع التجارة الإسلامية، يقول الدكتور أحمد أبو حاكمة:

«لقد حلّت بالتجارة في الهند والصين والملايو بين التجّار العرب نكسة أصابت التجارة العربية عندما عرف الأوروبيون طريق الهند بعد أن قاد الملاَّح العربي (أحمد بن ماجد) سفن البرتغاليين من مالندي على ساحل أفريقيا الشرقية إلى الهند (أبريل ١٤٩٨م).

ذلك أنّ قدوم البرتغاليين إلى الهند يعتبر نقطة التحوّل في تجارة الهند والصين والملايو بالنسبة للعرب، ذلك أنَّ البرتغاليين بأساطيلهم البحرية التجارية والحربيّة ـ بما عرف عنهم من شراسة استعمارية وجشع ـ كانوا ينتهجون سياسة قائمة على البطش والفتك بسفن غيرهم من التجّار، ولا سيما سفن العرب المسلمين، ولم يكتفوا بمطاردتهم في البحر، بل نزلوا موانيهم واحتكروها ودمروها وأنشؤوا فيها القلاع منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ولا يكاد أي ميناء بحري يطلُّ على الخليج العربي أن يخلوا حتى يومنا هذا من بقايا القلاع البرتغالية ومدافعهم النحاسيّة التي نصبوها في تلك القلاع في (مسقط بعمان ـ المنامة بالبحرين ـ القطيف في الإحساء ـ البصرة بالعراق) وقد امتدّت مدة بقاء البرتغاليين في تلك الموانئ، ولم يكسر شوكتهم غير أسطول مسقط العربي، ذلك أن العمانيّين ـ وكانوا سادة البحار عند قدوم البرتغاليين ـ قد تعلَّموا صناعة السفن على الطريقة الأوروبية التي تثبت ألواح الخشب بمسامير حديديّة قويّة بعد أن كانوا حتى قدوم البرتغاليين يخيطون أخشابها.

وكانت السفن العربية والحالة هذه لا تستطيع الصمود أمام أيّة قنبلة من مدافع الأعداء.

ثمّ كذلك بعد أن تسلّحوا بمدافع من طراز مدافع البرتغال النحاسية، وهي إمّا مدافع غنموها في قتال أو سيّلوها بأنفسهم.

وقد شهد بداية القرن السابع عشر هزائم متعدّدة للبرتغال حتى اضطروا أخيراً إلى الجلاء عن الخليج العربي نهائياً.

غير أن اندحار البرتغاليين لم يعنِ بحال من الأحوال زوال الخطر الأوروبي على تجارة الخليج، وبالتالي سيطرة العرب عليها من جديد.

ذلك أن الهولنديين كانوا قد أسهموا بدور فعَّال في القضاء على نفوذ البرتغاليين في مياه الخليج، وبالفعل ازداد نفوذ الهولنديين التجاري في الخليج طوال القرن السابع عشر الميلادي.

ولم يزعزعهم عن مكانتهم سوى قوة أوروبية أخرى تتمثَّل في شركة الهند الشرقية الإنجليزية؛ كما ظهر الفرنسيّون في مياه المحيط الهندي والخليج العربي في هذه الفترة، غير أنَّ علاقتهم بالخليج وتجارته لم تكن كعلاقات الهولنديين والإنجليز، وبقيت الوكالات التجارية الهولنديّة والإنجليزيّة تعمل مع موانئ الخليج العربي جنباً إلى جنب إلى عام (١٧٦٥م) حين طُرد الهولنديّون من جزيرة (خارج) الواقعة في طرف الخليج العربي الشمالي الشرقي. والسِّر في تدهور سلطان الأوروبيّين التجاري على الخليج في القرن الثامن عشر مردّه أمران؛ أولهما: إفلاس الهولنديين في المنطقة في مطلع ذلك القرن وخروجهم نهائياً كتجّار من الخليج عام (١٧٦٥م). والثاني: انهماك الإنجليز في حرب استعماريّة مع الفرنسيّين.

وامتدّ النفوذ البريطاني في الخليج في القرن التاسع عشر، وما انطوى عليه من احتكار كلّي شامل لتجارة الخليج طوال القرن، وما أعقبه من احتلال مباشر أو غير مباشر لبعض أرجائه، خلال ذلك القرن ومطلع القرن العشرين».

٣) **مخطوط التاجر سليمان:** طبع في باريس (١٩٤٥م) مخطوط فريد تحت عنوان (مخطوط التاجر سليمان) يضمُّ أخباراً قديمة من الهند

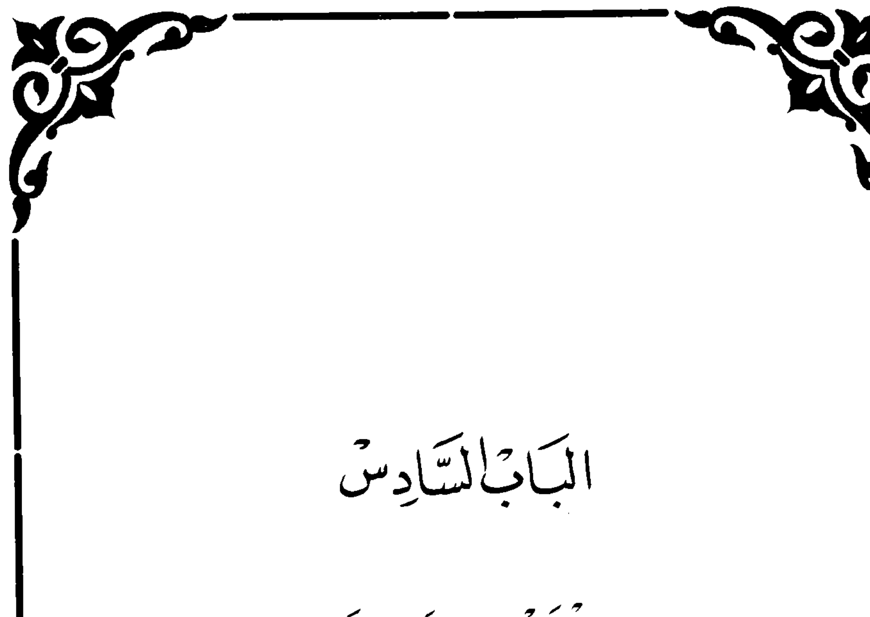
والصين، أوردها اثنان من الرحّالة العرب سافرا إلى هناك في القرن السابع عشر الميلادي، تحدّث عن أثر العرب في اكتشاف المحيط الهندي، والتعرُّف على الشعوب التي تعيش حول شواطئه.

وربما كانت هذه المذكّرات هي الأثر العربي الوحيد الذي تحدّث عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطريق الملاحي في الخليج الفارسي العربي إلى الصين على أساس الخبرة الشرقية.

وقد أورد التاجر سليمان أخبار بلاد الهند وسرنديب والملايو وأندونيسيا والصين، وفصّل عادات أهلها وملوكهم وطباعهم ومعاملاتهم، وبعد ذلك تحدّث ابن جزدازابه والاصطخري والمسعودي على أساس المعرفة الشخصيّة لبعض المواقع التي يذكرونها، فإنهم كانوا ينقلون الكثير عن الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه.

وفي منتصف القرن الرابع عشر أملى أبو عبد الله محمد المغربي الطنجي المعروف بابن بطّوطة نصّ رحلته النهائي، التي قام بها من المغرب الأقصى حتى أقاصي الصين.

* * *



البَابُ السَّادِس

مِنْ فَتْحِ القِسْطَنطِينيَّة
إلى سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ



مِنْ فَتْحِ القِسْطَنْطِينيَّة
إلى سُقُوطِ الخلافَـةِ الإسْلامِيَّةِ

١ ـ ولدت الدولة العثمانية عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، وهو تاريخ حاسم الدلالة، فقد جاء بعد نصر عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وفي خلال معارك تصفية الوجود الصليبي والتتري في البلاد العربية، حيث تحرَّر آخر جيب من جيوب الصليبيين (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) وكان بمثابة نصر جديد للإسلام.

دام حكمها ستة قرون وربع القرن، امتدّت رقعة حكمها من فيِنّا عاصمة النمسا وأوروبا الشرقية والشرق العربي إلى حدود المغرب، وظهر ملوك يفخر بهم الإسلام؛ أمثال محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينيّة، وبايزيد الذي غزا هنغاريا والنمسا حتى وصلت جيوشه إلى فيِنّا (عاصمة النمسا)؛ فدخلت تحت حكمه هنغاريا، ورومانيا، وبلغاريا، واليونان، والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود، وجزيرة كريت، وألبانيا، من البلدان الأوروبية.

وكان دخول العرب في الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر (١٥١٧م) ضرورة تاريخية حتَّمت انتقال السلطة في الوطن الإسلامي ـ وخاصة في آسيا العربية وشمال أفريقيا ـ إلى أكبر قوة

عسكرية من أبناء الإسلام، تصدّ خطر الإفناء الصليبي الذي صاحب نهضة الإفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح، وبداية ما يسمَّى عصر الكشف، وهو عصر النهب الاستعماري.

وقد دخل أمراء لبنان وشريف مكّة تحت الحكم العثماني باختيارهم، أما دخول الجزائر تحت هذا الحكم فقد تمّ دون حرب بل بمحض إرادة حاكمها خير الدين المعروف بـ (باراباروسا).

ولا ريب في تقدير أكثر المؤرِّخين العالميين إنصافاً واعتدالاً أن انضمام العرب إلى الدولة العثمانية (دولة الخلافة الإسلامية) قد أخّر سقوط البلاد العربية في قبضة الاستعمار أربعة قرون، فقد تلقَّت عن الإسلام والمسلمين ضربات دول أوروبا مجتمعة، من بريطانيا إلى روسيا، ومن النمسا إلى البرتغال، هذه الدول التي استخدمت كل أساليب التآمر والفتن وشراء الذمم والغزو المسلّح الصريح، ولم يكن هذا الانضمام استعماراً كما يدَّعي بعض تلاميذ الاستشراق (وكان المرابطون والموحِّدون والمرينيّون قد أخّروا سقوط الأندلس في قبضة النفوذ الأوروبي طيلة أربعة قرون).

ويقول جلال كشك: «استطاع الترك أن يصدّوا الخطر عن العالم الإسلامي، وأخّروا احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون، ولهم في ذلك في ذمة الإسلام والمسلمين دَيْنٌ لا ينقضه ولا يشوهه. . .».

وقد قامت الدولة العثمانية في غمرة أحداث تاريخية رهيبة لم يشهد المسلمون لها مثيلاً، بعد أن زرع المغول الصليبيون الموت والدمار في ربوع العالم الإسلامي.

وقد واجهت الدولة العثمانية وصول البرتغاليين الصليبيين إلى شرق الجزيرة العربية، ومحاولتهم مرَّتين (١٥١٧م ـ ١٥٢٠م) دخول البحر الأحمر من مَنْفذِه الحيوي للاستيلاء على جدّة، والزحف إلى مكة لهدم الكعبة المشرّفة، ويعتبر هذا الغزو أخطر غزو أوروبي صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربيّة وإسلاميّة تحت شعار الصليب أو المدفع.

لقد نشأت الدولة العثمانيّة إسلاميّة المنطلق والراية والهدف، وأوصى مؤسّسها عثمان بن أرطغرل ابنه أورخان بأن ينشر الإسلام هداية للناس، وحماية أعراض المسلمين، وأموالهم في عنقه أمانة يسأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة.

وقد تمكّنت الدولة العثمانيّة في أقل من قرنين من الزمان أن تمدَّ جناحها شرقاً وغرباً، لتصل إلى أبواب فينّا، رافعة راية الإسلام على ما يُعرف الآن بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنّمسا، كذلك امتدّت إلى شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الأفريقية وحدود المغرب الأقصى غرباً؛ كما أنها وصلت شرقاً إلى بلاد فارس وجبال كردستان.

وفي الدولة العثمانية كانت الشريعة الإسلامية هي شريعة البلاد الأولى، والقانون المدني الذي طبّق بها تحت اسم المجلّة عام (١٨٦٩م) كان عبارة عن تقنين لأحكام تلك الشريعة، أخذاً بمذهب الإمام أبي حنيفة، وكان تطبيق الأحكام على جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية، سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين.

* * *

٢ ـ يقول الدكتور محمد حرب عبد الحميد: «إن طبيعة الدولة العثمانيّة عسكريّة جهادية كما يعرفها المؤرِّخون، فقد بدأت إمارة ثغر، ثمّ تحولَّت إلى سلطة، ثمّ إلى خلافة وسلطة، وقد بدأ التاريخ العثماني في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت تسود العالم وقتئذ رهبة وذعْر من الإمبراطورية المغوليّة التي أقامها جنكيز خان، وكان هذا قد استولى على شمال الصين، ثمّ بدأ بزحفه نحو تركستان؛ والمغول على دين الشامانية، وكان سكان تركستان أتراكاً مسلمين في ذلك الوقت.

وكان السلطان علاء الدين السلجوقي حاكم قونية قد أقطع الأمير فخر الدين عثمان قطعة من الأرض على حدوده مع بيزنطة، بعد مساعدته في إحدى حروبه، وكانت إمارة الثغر هذه عسكرية جهادية، استطاع الأمير عثمان أن يوسّع ثغره على حساب القوة البيزنطية، ثمّ توالى التوسُّع حتى وصل العثمانيون إلى بلغراد، ثمّ جاء محمد الفاتح فسيطر على القسطنطينيّة.

وكان ظهور العثمانيين قد ملأ فراغاً في التاريخ والجغرافيا الإسلامية، إذ أنه قد تزامن مع ظهور وانتصار القوى الصليبيّة في غرب العالم الإسلامي حيث سقطت الأندلس، وكادت أن تتبعها بقيّة دول المغرب، ولكنه في الوقت نفسه الذي سقطت فيه حواضر المسلمين في الأندلس فتحت القسطنطينية، وفي الوقت الذي اندفع فيه صليبيو إسبانيا نحو العالم الإسلامي من الغرب اندفع فيه الفاتحون العثمانيون نحو أوروبا من الشرق، وهكذا اندفعت دماء جديدة في الشرايين الإسلامية، وبفضلها بقي الشمال الأفريقي عربيّاً مسلماً حتى الآن.

* * *

٣ ـ يقول الدكتور عبد الكريم مشهداني: «بعد قيام الدولة العثمانية تابع الأتراك جهادهم ضدّ الروم، وما لبث الأناضول أن أصبح إسلامياً خالصاً، فقد نقل الأتراك ساحة الجهاد إلى البرّ الأوروبي محقّقين للإسلام أمجاداً عظمى في ميدان الحرب والبطولة والحضارة.

وأصبحت الدولة العثمانيّة حامية حمى الإسلام، والمدافع عن شرفه ومقدّساته في البر والبحر، ومن ذلك الوقت وليس لأوروبا النصرانيّة همٌّ أو هاجس إلا دولة الخلافة العثمانيّة.

وكانت كبرى الانتصارات الإسلاميّة فتحُ القسطنطينيّة، فما أن تولّى السلطان محمد العرش (١٤٥١م) في أدرنة عاصمة الدولة العثمانية، حتى طالبه الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية بمضاعفة مبلغ الجزية السنويّة الذي كان يدفعه والده مراد الثاني للبيزنطيين، وكان ردّه على هذه المطالبة هو المبادرة بتشييد قلعة (روم ... حصار) المنيعة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية عند أضيق نقطة من البسفور، وعندها بعث الإمبراطور بسفرائه إليه للاحتجاج على هذا العمل، وكان ردُّ فعل الأمير العثماني أن قطع رؤوسهم. وكان ذلك إيذاناً بقيام الحرب.

ولم تستطع حصون العاصمة البيزنطية أن تثبت أمام هجمات جيش السلطان محمد حتى دخل القسطنطينية عام (١٤٥٣م) وهو في سنّ الرابعة والعشرين، وقد توجّه فور دخوله إلى كنيسة أياصوفيا المشهورة، فاستولى عليها باسم الإسلام وجعلها جامع العاصمة الرئيسي.

أما القبلة فقد أدخلت في قلب تصميم هذا البناء الكنسي بواسطة محراب اصطنع في وسط جناح الكنيسة الجنوبي، وأقيم المنبر عن يمين

المحراب، كما بنيت إلى الخارج مئذنة، أضاف إليها خلفاؤه ثلاث مآذن أخرى، وسرعان ما أصبحت استانبول المركز الفكري الأول للعالم الإسلامي.

وكان أهمّ أهدافه تقرير سيطرة العثمانيين على شبه جزيرة البلقان (خاصّة في الشمال) تمهيداً للانطلاق منها لحرب المجر أخطر أعدائه في أوروبا، وأقربهم إلى حدود دولته، فكان لا بدّ له من أجل ذلك أن يستولي على بلاد الصرب حتى يضمن لجيشه قاعدة ثابتة فيها، وقد تمّ له ما أراد حتى استولى عام (١٤٥٨م) على بلغراد ثمّ على ألبانيا عام (١٤٦٨م) وأرغم البندقية على عقد معاهدة معه عام (١٤٧٩م).

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يستولي محمد الفاتح على القسطنطينية (١٤٥٣م) قبل أن يستولي فرديناند وإيزابيلا على مملكة غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس (١٤٩٢م).

وقد أوصد فتح القسطنطينية المنفذ الرئيسي من أوروبا إلى الشرق في وجه الأوروبيين، وأوصد فتح مملكة غرناطة باب أوروبا من الجنوب إلى الشمال في وجه المسلمين.

وقد اصطلح المؤرِّخون المحدَثون اتخاذ فتح القسطنطينية من طرف العثمانيين (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) بداية العصر الحديث.

ومنذ أن بزغ فجر الإسلام ومدّ رواقه على المنطقة العربية، فزحف إلى العراق والشام ومصر وأفريقيا، وأنهى ألف سنة من نفوذ الإمبراطورية الرومانية وظلماتها وقساوتها؛ بدأت المعركة، فكانت منطقة طرسوس بؤرة الصراع بين بيزنطة والإسلام، وامتدّت المعركة سنوات طوالاً،

وشهدت مواقف بطولية سجَّلها المتنبّي وأبو فراس، ثمّ توالت غزوات المسلمين للسيطرة على القسطنطينية سنوات طوالاً.

حتى تحقّق ذلك بعد مئة وسبعين عاماً من قيام الدولة العثمانيّة، بقيادة السلطان محمد الفاتح، الذي اقتحم القسطنطينية، فدخلت في الإسلام وهزَّت الغرب هزّاً شديداً.

وقد مضى السلطان محمد الفاتح على سنّة الإسلام في معاملة أهل الذمة، والمحافظة على شعائرهم وشرائعهم.

ومما يدل على أنَّ السلطان محمد الفاتح كان عاقلاً حليماً، ومسلماً صادقاً؛ تركُه للنصارى المقهورين الحريّة في انتخاب بطريركهم، ولما انتخبوه ثبّته السلطان، وسلّمه عصا البطاركة وألبسه الخاتم.

وقد أشار فولتير الفيلسوف الفرنسي إلى هذا المعنى حين قال: «إنَّ الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيّين كما نعتقد نحن».

ولقد كان فتح القسطنطينية من أعفّ الفتوح وأقلّها غُرماً وأبعدها عن الفتك والفساد، شأن كل فتوح المسلمين، فقد كانوا في انتصاراتهم أشرف الناس وأميلهم إلى الرحمة.

فسقوط الخلافة في بغداد على أيدي التتار تمَّ وسط مذابح هائلة، أما سقوط القسطنطينية فلم يتجاوز القتلى فيه حدود ميدان القتال وحده.

وكانت الحملات الصليبية تهدف نحو مَحْو دين، وإبادة أتباعه جملة وتفصيلاً؛ فماذا فعل محمد الفاتح عندما استولى على عاصمة الروم؟.

يقول الشيخ محمود زيادة؛ المؤرِّخ الأزهري الدقيق: «إنه مضى

على سنَّة الإسلام في معاملة أهل الذمّة والمحافظة على شعائرهم، وما كان لأمة من الأمم المسيحيّة لتسمح أن يكون للمسلمين مسجدٌ في بلادها، أما الأتراك فإنهم سمحوا لليونان المقهورين أن تكون لهم كنائسهم».

يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن مقارنة إسقاط القسطنطينية بإسقاط بغداد يكشف عن مدى الـخُلق الإسلامي الكريم الذي رفض حرب الإبادة الشاملة، وآثر العفو والسماحة.

وخلال مرتين قابل المسلمون عدوان أهل الكتاب بالسماحة؛ في معركة حطّين وفي معركة فتح القسطنطينية.

وقد رفض عمر أن يصلّي في الكنيسة، فماذا لقي أحفاد عمر من النصارى الصليبيين بعد بضعة قرون؟ لقد جرت دماؤهم أنهاراً» ـ اهـ.

لقد أزال محمد الفاتح إمبراطورية الروم الشرقية التي دامت أحد عشر قرناً من الزمان؛ منها ثمانية قرون كانت خلالها وطوالها بمثابة العدو الرئيسي للمسلمين، وأصبحت الأستانة بمآذنها موئلاً للحضارة الإسلاميّة، وخير شاهد على مصداقية حديث رسول الله ﷺ: «ولَتفتحَنَّ القسطنطينية، فَلَنِعْمَ الأميْرُ أميرُها ولَنِعْمَ الجيْشُ ذلك الجيش»[1].

لقد كان سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك حدثاً تاريخيّاً خطيراً هزَّ أوروبا هزّاً عنيفاً، ثمَّ جاء أتاتورك الماسوني الذي أغلق مسجد أياصوفيا الجامع الكبير في الأستانة وحوّله إلى متحف.

ولقد كانت وصيّة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه ترسم منهجه:

---

(١) أخرجه أحمد والبزّار والطبراني، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ٣٢٣ رقم ١٠٣٨٤).

«ها أنذا أموت، ولكنّي غير آسف، لأني تارك خلَفاً مثلك، كن عادلاً ورحيماً بالناس، ولا تستخدم من لا يهتمّون بالدِّين، وأوسع رقعة البلاد بالجهاد، واضمن للمعوزِين قوتَهم، ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك، فإنَّ الدين غايتنا والشريعة منهجنا، حضرت إلى هذا البلد كنملة صغيرة، فأعطاني الله هذا، اعمل على تقرير الدِّين المحمّدي، وانشر الدعوة المحمَّديّة، فإنّ هذا هو أوجب واجبات الملوك اليوم».

* * *

عوامل الضعف والتراجع

بلغت الدولة العثمانيّة ذروتها ووصلت إلى قلب أوروبا، وحملت معها الإسلام إلى أسوار فيّنا واستطاعت أن تحمل لواء الأمانة الإسلاميّة أربعة قرون كاملة، كان الموقف بالنسبة للغرب والنصرانيّة بالغ الاضطراب، فقد كانت تلك القوة تتجمَّع وتخطِّط وتتآمر في سبيل صدّ هذا النفوذ الإسلامي، بعد أن وحّدت الدولة العثمانيّة ـ دولة الخلافة ـ المسلمين وجمعت كلمتهم تحت راية الإسلام.

وذلك بعد أن أقلق العثمانيّون مضاجع حكّام الغرب، بسبب ما حقّقوه من انتصارات سجّلها المؤرِّخون الصادقون.

كلٌّ ذلك كان عاملاً هاماً في تنفيذ مخطَّطات ترمي إلى إضعاف الدولة العثمانيّة وتفكيكها، ولما زادت عوامل الضعف على الدولة العثمانيّة حاولت كسب الدول.

* * *

العامل الأول:

ويردُّ كثير من الباحثين أهمّ تلك العوامل إلى منْح الدولة العثمانيّة امتيازات للدول الأجنبيّة تحت اسم التسامح الإسلامي والإيمان بالمساواة، مما مكَّن القوميَّات البلقانيّة من النموّ والتطوُّر، إلى حدٍّ امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسيَّة وجيوش وأموال القيصر، بينما استطاع الاستعمار الروسي أن يقصم ظهر الولايات الإسلاميّة، ويمتصّ

منها كل حيويَّة، وهي أعرق ثقافة وأكثر تحضُّراً من شعوب البلقان.

ويتحدَّث باول شميث في كتابه (الإسلام قوة الغد العالميَّة) كيف كانت سماحة الأتراك الدينيّة في أمور الأقليّات سبباً في ضربها من الداخل، ويرى أنّ ذلك نقض لقوانين الإسلام، وذلك السماح لكلٍّ مذهب بحريَّة ممارسة طقوسه وعباداته، وإعلان حريَّة الأديان، وإعطاء كلٍّ طائفة الحقّ في إنشاء مدارس خاصة بها، وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التي حَمَت المملكة العثمانيّة، مع الطوفان الثقافي الذي نبع في الغرب، ودفع على هيئة تيّارات قويّة عبر الممالك التي فتحتها أوروبا إلى الشرق، لقد بدأت حقيقة تاريخيّة تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعّال، الذي سيقرِّر مصير العالم الإسلامي بالنسبة لاستمرار التطوُّر، فلأول مرّة في تاريخ الإسلام يسوَّى بين المسيحي والمسلم في قانون مدني في دولة إسلامية، لقد قصد الباب العالي بهذه التسوية (١٨٥٦م) إلى أن يلعب دوراً في الأرجوحة السياسية في عالم الصراع بين القوى الكبرى، غير أنها كلّفته كثيراً، فقد انتقصت من سلطاته المطلقة فأضعفت هيبته داخل المملكة، وفي أوساط المواطنين المسلمين، ودفعتهم إلى التحرُّك، وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا.

ففي أواخر العقد الخامس فوجئ الشعب بإصلاحات في القضاء، وفي أجهزة الدولة الماليّة، ولم يتوقَّف عند هذا الحدّ، بل واصل تقدُّمه فحصل لبنان على نظام جديد منَحَ المسيحيين امتيازات جعلت كفَّتهم راجحة على كفّة غيرهم.

إن العقل الأوروبي الذي استعانت به تركيّا، ليساعدها على تنفيذ البرامج الإصلاحيّة كي تستطيع الدفاع عن نفسها، ولتتمكَّن من الوقوف ضدَّ الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلُّص منه أبداً.

فقد أعطى الامتيازات، ونال من الفرص ما يمكِّنه من تثبيت أقدامه

فوق هذه الأرض، فقد ضمنت الحكومة لكلِّ الطوائف حريَّة ممارسة شعائرها ومزاولة طقوسها: حريَّة النشر، حريّة التعليم. . ولم تلقَ هذه الإصلاحات أيَّ صدى لدى المواطنين، بل فتحت أبواباً أخرى أمام قوى البلاد الأجنبيّة، نَفَذَت من خلالها: (البرلمان ١١٦، منهم ٤٠ مسيحياً) وقد تعثَّر سير النموذج الأوروبي لعدم فهمه، فلم يستمرّ سوى سنتين فقط، حيث كانت الإصلاحات مدفوعة بمحاكاة النظم الأوروبيّة.

هكذا ثبت خطأ التجربة التي أرادها السلطان محمود بنقل الحضارة الغربيَّة إلى تركيّا، وحيث جَرَت محاولات لكسب صداقة كل القوى، عن طريق منح كل الامتيازات الممكنة للدول الأجنبيّة، ولعب حرص كلّ دولة في الحصول على امتيازات مثلَ الأخرى دوراً له وزنه في الحفاظ على الوضع القائم للدولة العثمانيّة.

* * *

العامل الثاني:

استطاع اليهود الأرمن الوصول إلى بعض المناصب عن طريق الامتيازات الأجنبية، مما مكَّنهم من إقامة المنظمات السريَّة، وهدفها الأساسي تخريب الدولة الإسلامية على أيدي الأتراك أنفسهم.

وكانت (الدونمة) وهي مجموعة اليهود المقيمين في سالونيك هم الذين أقاموا المحافل الماسونيّة، واستدعوا إليها تحت اسم الإصلاح بعض الشباب التركي، الذين شكَّلوا خلايا جمعية الاتحاد والترقِّي، وقد حملوا لواء الدعوة إلى الطورانيَّة القديمة في مواجهة الجامعة الإسلامية، وقد عمدت أوروبا المسيحيَّة إلى تغذية هذه الدعوة، فانقسم المسلمون تحت لواء الدولة العثمانيّة، واندفع الأتراك في عمليَّة فرض لغتهم وقوميَّتهم على العرب (تتريك العرب) مما دفع العرب إلى رفع راية القوميَّة العربيَّة.

* * *

العامل الثالث:

شنَّت روسيا القيصريَّة حملات ضخمة على الدولة العثمانيَّة، وكان ذلك بناءً على وصيَّة بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢م ـ ١٧٢٥م) التي جاء فيها: «من واجبنا أن نتوسّع باستمرار على طول بحر البلطيق وشواطئ البحر الأسود، إذ علينا أن ننتهز كلّ الفرص التي تمكِّننا من الزحف صوب القسطنطينية (استانبول) والهند، فمن يستطيع الاستيلاء على تلك النقاط يمكنه أن يتحكَّم بالفعل في مصير العالم.

وقد استمرت الحروب الروسيّة التركيَّة طوال قرنَين كاملين، وكانت عاملاً هاماً من عوامل القضاء على الدولة العثمانيَّة.

* * *

العامل الرابع:

ظهور مشروعات تقسيم تركيّا التي أحصى منها المؤرِّخ جوفارا مئة مشروع، تقدَّم بها ساسة وتجّار ورجال دين، بعد هزيمة تركيا أمام أسوار فينّا للمرة الثانية.

وقد استغلَّ المبشِّرون المسيحيُّون فرصة الامتيازات الأجنبية التي عقدتها تركيّا مع الدول الكبرى، فأرسلوا أعداداً ضخمة إلى عواصم الدولة العثمانيّة، وأنشؤوا الإرساليّات في بيروت والقاهرة والقسطنطينيّة.

* * *

وقد حمل لواء الدعوة إلى الطورانيّة جماعة من مثقَّفي الأتراك الذين تركوا في أحضان المحافل الماسونيّة في سالونيك، واعتنقوا أفكار الثورة الفرنسيّة، وفي مقدِّمتهم صفاء كوك ألب، وحسن أغايف، ويوسف أنشورا وغيرهم، فأخذوا يروِّجون لهذه الفكرة، وكوَّنوا رأياً عامّاً لها بثَّته حركة الاتحاد والترقِّي، التي ظلّت تنمو في الخفاء حتى سيطرت بعد ذلك

على الحكم، بعد عزل السلطان عبد الحميد.

وكان ذلك مدعاة لظهور التمزُّق بين عنصري الدولة العثمانيَّة - وهما العرب والترك - ووقوع الأزمة بينهما؛ حيث كانت الدعوة إلى الطورانيَّة هي العامل الأكبر في تدمير الوحدة الإسلاميَّة.

* * *

مشاريع صليبية ضدّ الإسلام

لقد أثار نجاح العثمانيين وتوسُّعهم حفيظة أوروبا المسيحيَّة، وعلى رأسهم البابا الذي دبَّر حملات صليبية مدمِّرة ضد الخلافة العثمانية، بغية تقويضها وردِّ المسلمين عن عقائدهم، خاصة مسلمي أوروبا في بلغاريا والمجر واليونان وألبانيا، وقد أثَّرت هذه الحروب في قوة العثمانيين إلى جوار العوامل الخفيَّة المدمِّرة، خاصة بعد ضعفهم عسكرياً وتسابق الأوروبيون إلى القوة العسكريَّة، مما أدى إلى هزيمتهم في ليبانت (١٥٧١م) وقد استغل الروس حالة الضعف التي ألمَّت بالدولة العثمانيَّة، فكالوا لها الضربات طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وقد استعملت أوروبا المسيحية كلَّ ما يُتَصور من وسائل لتحجيم الدولة العثمانيَّة والإدالة منها، انطلاقاً من طبيعة راسخة، على حدِّ تعبير جمال الدين الأفغاني حين قال: «إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد، وروح التعصُّب لم تنفكّ حيَّة معتلجة في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، فالنصرانيَّة لم يزل التعصُّب مستقراً في عناصرها، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصُّب الديني الممقوت».

ولقد تعاقدت بريطانيا وفرنسا وروسيا على ضرب الدولة العثمانيَّة، فشكَّلت هذه الدول قوة صليبيَّة دوليَّة، جدَّدت بها الحملات الصليبية التي كان قد مرَّ عليها أكثر من أربعمئة عام، لم تنس أوروبا يوماً واحداً خصومتها مع الإسلام.

لقد حاولت الدولة العثمانيَّة الوصول إلى فينّا (١٥٢٩م ـ ١٦٨٣م) ولكن لم يكلّل مسعاها بالنجاح، فكانت علامة التراجع.

ويكفي في تقرير هذه المؤامرة شهادة شاهد من أهله، ما كتبه الوزير دوجافارا في كتابه (مئة مشروع لتقسيم تركيا) حيث قال: «إن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوروبيون للأتراك، ويميلون أبداً من أجلها إلى حصرهم في آسيا؛ هي راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانيّة والإسلام».

إن المسلمين كانوا أرعبوا أوروبا، وخنعت لهم إسبانيا مع عظمتها، وفي أواخر القرن الثاني عشر امتدّ سلطان العرب من الهند إلى الأطلانتيك، وصارت حضارة بغداد والبصرة أرقى من حضارة إكس لاشابل وباريس، وكان الفرنج تحت قيادة شارل مارتل هم الذين كسروا المسلمين في (بواتيه) وأنقذوا النصرانيّة، فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوروبا إلا تحت اسم بلاد الفرنج.

وكان أول من دعا إلى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثاني، وذلك سنة ألف واثنين، ولم يتوفَّق إلى تحقيق ما أراده، ثمَّ جاء البابا غريغوريوس السابع، فاستنفر جميع ملوك أوروبا لحرب دينيّة يُصْلونها الإسلام، وذلك سنة (١٠٧٥م)، إلا أنها هذه المرة أيضاً لم تتحقّق هذه الأمنية، وتأخَّرت نحو عشرين سنة من ذلك التاريخ، ثمّ بدأت الحروب الصليبية، فأخَّرت فتح الأتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمئة وخمسين سنة، وانتهت الحروب الصليبية سنة (١١٢٧م ـ ١٢٩١م) بسقوط عكا، وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه في بلاد الإسلام مملكتين مسيحيّتين، هما: قبرص وأرمينية، ثمّ إن الأتراك دخلوا إلى أوروبا سنة(١٣٥٦م) بعبورهم مضيق الدردنيل، وافتتحوا أدرنه عام (١٣٦٠م)، وفي جميع الأزمنة ومن قبل أن يدخل الأتراك إلى أوروبا كان كتّاب النصارى والمفكّرون منهم لا يريدون أن يتعزّوا عن إخفاق الحروب الصليبية، ولا يفتؤون يهيّجون خواطر الشعوب الأوروبية، ويحرِّضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام، ولا سيّما عن فلسطين، واشتهر من بين هؤلاء المحرِّضين (بيردوبو) و(مارينو) و(سانوتو) و(هاتيون) و(ريموند

لول) و(غليوم دو نو غاري) وكذلك الشعراء مثل (بترارك) كانوا في مقدِّمة المحرِّضين على قتال المسلمين.

قال: «ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتاباً تاريخه (٢٣ أغسطس ١٢٩١م) إلى فيليب لوبيل ملك فرنسا يظهر له به ألمه، ويستنجده ليجمع كلمة ملوك النصارى، وينتقم من الإسلام، ولكن البابا مات قبل تحقيق أمله، وكان قد تلقَّى برنامجَي حرب، أحدهما من ملك صقلّية كارلوس الثاني، والثاني من راهب يقال له (فيدانس دونادو)، وكان برنامج كارلوس الثاني العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى مقاتلتهم بالتجارة، وقال: لأنهم إذا زحف الأوروبيون إلى بلادهم تركوهم يطؤون السواحل، ويعمل فيهم تأثير الإقليم فيضعفوا، فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم، وإعداد أساطيل لهذا المقصد، وتوحيد القيادة، ويسمّى هذا المشروع في حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلّية.

أما مشروع فيدانس دو بارو فلم يكن مقتصراً على حرب تجاريّة، بل كان يشير بتجريد جيش يطأ البرّ، ويكون وراءه أسطول من ثلاثين إلى خمسين بارجة حربيّة، وأن ينزل الجنود على سواحل أنطاكية، ثم يجعل الصليبيون أنطاكية معتصماً لهم وقاعدةً لغزواتهم، وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا باستحالته.

وتوالت هذه المشاريع لا تتوقّف ومنها أنَّ البابا سيفليوس كتب إلى السلطان محمد الفاتح (١٤٦٣م) يدعوه أن يتنصّر ويقول له: «بقليل من الماء على بدنِك تتعمَّد وتصير نصرانيّاً خادماً للإنجيل، فإن فعلت ذلك فلا يكون على وجه الأرض ملك يمكنه أن يفوقك في المجد والاقتدار».

وكان مشروع ريموند لول (١٣٠٦م) الفيلسوف المسيحي يقترح تجربتَين صليبيتين، إحداهما تزحف إلى مراكش فتونس فطرابلس، والثانية تزحف إلى القسطنطينية ومنها إلى سورية».

وألَّف غليوروم داران البرومنيكاني (١٣١٠م) كتاباً سماه (كيفية

استئصال شأفة المسلمين) وأشار فيه بإبحار أسطول مسيحي في خليج فارس.

ثم توقَّفت هذه المشروعات بعد فتح القسطنطينية، واستؤنفت في أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة ليبانت البحريّة الشهيرة التي هُزم فيها العثمانيون.

وتوالت الخطط، وكان من أهمها ما قام به البابا لاون العاشر (١٥١٧م) الذي أقنع الإمبراطور ماكسيميليان بلزوم محاربة الترك، وقال الإمبراطور: «إننا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيّين نفكر في حملتنا المقدّسة على الترك، التي يشترك فيها ملوك النصارى: البرتغال، وفرنسا وبولونيا والمجر».

وجاءت بعد ذلك مشروعات عديدة يعدُّها رهبان وفلاسفة، وانتهى ذلك كلُّه إلى عقد التحالُف المقدّس (٢٥ مايو ١٥٧١م) حيث احتشدت أساطيل الحلفاء (٢٢٥ سفينة) وكان الأسطول العثماني (٢٤٥ سفينة) في خليج ليبانت، ونشبت الواقعة البحريّة الشهيرة، وقضى الله تبارك وتعالى بتمحيص المسلمين، ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل، وأخذ الأوروبيون منهم (١٣٠ سفينة) وعشرة آلاف أسير، وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية، كما يشير إلى ذلك الأمير شكيب أرسلان في كتاب (حاضر العالم الإسلامي)، ولكنَّ الدولة العثمانيّة عاشت بعد ذلك ثلاثمئة سنة حامية الإسلام، بالرغم من تراجعها في أوروبا.

ولم تتوقَّف المؤامرات على الدولة العثمانية بل توالت، وازداد توغُّل القناصل في الدولة العثمانية من وراء المحافل الماسونية، والدور الذي قامت به العناصر الأجنبية (المسيحية واليهودية) ذات الجذور البعيدة في البلقان وغيرها[١].

---

(١) تقهقرت الدولة العثمانية بعد موقعة ليبانت (١٥٧١ م)، ونُزعت منها المجر (١٦٩٩ م)، والقرم (١٧٧٤ م)، واليونان (١٨٢٩ م)، وجزائر الغرب (١٨٣١ م).

وكانت هذه المخطّطات ترسم (أولاً) خطط مهاجمة الدولة العثمانية، (ثانياً) اقتسام ممتلكات السلطنة بعد الظفر بها، وكان استعادة مناطق أوروبا هو الأهم أولاً.

يقول الأمير شكيب أرسلان: «إنه من بين تسعة وأربعين مشروعاً من مشروعات تقسيم تركيا لا نجد مشروعاً واحداً يتضمّن فكرة استبقاء المسلمين، بل جميعها كانت تدابير مقصوداً بها محْو تركيا والإسلام بأسره».

يقول المسيو دجافارا: «إنه في مدّة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحيّة تهاجم الدولة العثمانيّة، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة».

فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقوَّل على سقوط آل عثمان، وكانت الدول العظام لا تفكر أنَّ هذه الأمم التي تتألف منها السلطنة العثمانيّة يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها، بل كان عندها أنَّ هذه الشعوب لم توجد إلا لتكون تحت حكم الأجنبي، وبقي هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمة إلى أيامنا هذه.

على أنَّ السلطنة العثمانيّة إن لم تكن سقطت كلُّها دفعة واحدة، فقد تساقطت قطعة بعد قطعة في مدّة هذه الأعصُر الطوال التي كانت أوروبا تناصبها فيها العداء.

فما السبب؟ الأسباب كثيرة، ومنها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى، وهو سعة الممالك المفتوحة، تلك الخارقة للعادة، واختلاف الأمم الخاضعة، واستحالة إذابتها في بوتقة واحدة، وصعوبة إعطائها كلها فكرة قوميّة متّحدة، ثمّ فساد الإدارة وارتخاء النظام وتردِّي القوة العسكريّة، أضف إلى ذلك اختلاف الأديان بين سكَّان السلطنة.

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكريّة مستندة إلى شرع سماوي، ولم يكن القرآن مانعاً من العلوم ولا من المعارف ولا من الصناعات، ولو

كان ذلك لما كانت المدنية العربية الباهرة ممكنة.

كذلك لولا التسامح الديني العظيم عند الأتراك لكان تساكُن المسيحيّين مع المسلمين متعذِّراً، ولكن الدولة العثمانيّة أعطت المسيحيين حريتهم الدينيّة التامّة، وخوَّلتهم الحريّة المدرسيّة مع حريّة التعليم، وهي التي كفلت نموَّهم وترقِّيهم، وجعلتهم يسيرون في طريق الاستقلال المطلَق، وكانت عداوة النصارى للمسلمين قائمة رغم تسامح المسلمين في الدين والحريّة الدينية التي كان يتمتَّع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية.

* * *

إنَّ (دوجوفارا) الوزير الروماني قد ركَّز على السبب الأول والحقيقي في تراجع الدولة العثمانية؛ هو الغزو الفكري الذي تمكَّن منه أهل القوميّات الأخرى، حين استطاعوا استقطاب شباب الدولة العثمانيّة في اللغات الأجنبيّة والفكر القومي والعلماني والإلحادي، واعتناق العلمانيّة والعودة إلى الفكر العرقي المتمثِّل في الدعوة الطورانيّة.

لقد كان في السلطنة العثمانيّة عشرات الملايين من المسيحيين واليهود الذين كانوا أشبه بمجنَّدين في سبيل هذه الدولة.

وكان الدونمة هم الذين صنعوا المؤامرة أساساً، وكان الاتحاديون هم الذين تولّوا تطبيقها والمضيّ بها في حماء الدول الغربية المتآمرة للوصول إلى الغاية التي وصلت إليها:

أولاً: سقوط السلطان عبد الحميد.

ثانياً: سقوط الدولة العثمانية.

ثالثاً: سقوط الخلافة الإسلامية.

* * *

المرحلة الحاسمة

وجاءت المرحلة الحاسمة حين بدأت الدعوة إلى الطورانية، وكانت المؤامرة قد رُسِمتْ في المحافل الماسونية، ووضعت خطّتها في مؤتمر بازل (١٨٩٧م) في إبان حكم السلطان عبد الحميد، الذي ظلّ قائماً حتى عُزِلَ (١٩٠٨م).

كانت الصهيونية قد رسمت مخطّطها بإسقاط الخلافة، وإقامة هيكل سليمان بعد السيطرة على فلسطين وبيت المقدس بالذات، وهذه هي القضيّة التي ما زالت مستمرّة حتى اليوم (١٩٩١م).

وقد كشفت بروتوكولات صهيون التي ظلّت خفيّة عن العرب والمسلمين سنوات طوالاً عن هذا المخطط.

وكان اليهود قد أُخرجوا من الأندلس في نهاية الحكم الإسلامي، فاختارت جماعة كبرى منهم الإقامة في الدولة العثمانية، واختاروا مدينة سالونيك بالذات، فكانوا هم حملة لواء هذه المؤامرة.

وقد ارتبطت جمعية الاتحاد والترَّقي بالماسونية العالمية، تحت أسماء برّاقة هي الحريّة والإخاء والمساواة، ليكونوا أداة في يد الصهيونية، لتنفيذ مخطّطها الذي يرمي إلى تدمير القوّة الإسلامية الممثّلة في الخلافة والدولة العثمانية، من أجْل إنفاذ مخطّط السيطرة على فلسطين، وبناء هيكل سليمان بديلاً عن بيت المقدس.

وكانت المؤامرة قد أُعِدَّت لمواجهة السلطان عبد الحميد، في

محاولة لاحتوائه والحصول على تصريح بدخول اليهود إلى فلسطين وإلى القدس، وقد حمل لواء هذه المؤامرة(هرتزل) بعد قتْل اليهود قيصرَ روسيا اسكندر الثاني (١٨٨١م) واشتدَّت الحملة عليهم، فكانت هجرتهم إلى قلب أوروبا، حيث بدأ تنفيذ مشروع توطينهم في فلسطين من خلال نصوص أوردتْها التوراة التي كتبها (عزرا) في منفى بابل.

وقد حشد هرتزل كثيراً من الوسطاء للاتصال بالسلطان، عارضاً عليه تسديد ديون الدولة العثمانية.

وقد تنبّه السلطان إلى أبعاد المؤامرة، فأغلق باب فلسطين في وجه اليهود، وأرسل إلى هرتزل خطابه التاريخي:

«أنصح الدكتور هرتزل ألاَّ يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً مربعة واحدة من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي، وقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة الدماء، وقد غذَّوها بدمائهم، وسوف نغذِّيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منّا؛ ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا ما قسّمت الإمبراطورية.فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل.

إننا لن نقسم إلا جثثنا، ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض كان».

وقد ظلّ السلطان طوال مدّة حكمه عقَبَة كأْداء في وجه المشاريع اليهوديّة، وبخاصة الصهيونية في فلسطين.

وإذ فشلت الصهيونية مع السلطان، فقد عمدت إلى خطّة لعزل السلطان عبد الحميد عن الحكم عام (١٩٠٨م) فلمّا سيطرت جمعية الاتحاد والترقّي على الحكم حقَّقت كلَّ أهداف الماسونية والصهيونية جميعاً، حيث كان كلّ عناصر الحكم من يهود الدونمة الذين تستّروا

بالإسلام، ولعبوا دوراً بارزاً في الثورة على السلطان.

وكان أربعة من يهود الدونمة يحتلّون المناصب الكبرى في الحكومة العثمانية (جاويد: وزير المالية ـ بساريا: وزير النافعة ـ نسيم مازلياج: وزير التجارة والزراعة)، ومن ثم حملت جمعيةُ الاتحاد والترّقي قيادةَ وجهة الدولة العثمانية، فأعطت طرابلس الغرب لإيطاليا، وأدخلت الدولةَ الحرب العالمية الأولى في صفّ المحْوَر الذي هُزم، وكانت هزيمتها هي ساعة تمزيق وجودها.

وقد أظهرت حكومة الاتحاديين عطفها البالغ على الحركة الصهيونية بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي، وبذلك حقّقت الماسونيّة أوّل أهدافها، وهو إسقاط السلطان عبد الحميد، الذي حمل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وسعى سَعْيَه الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية داخل الدولة العثمانية وخارجها في وجْه النفوذ الأجنبي.

ولا ريب، كان اتفاق الصهيونية العالمية مع القوى الاستعماريّة؛ كان قد رتّب من قبل، فقد كان الغرب المسيحي حريصاً على أن يتخلّص من اليهود في محاولة للسيطرة على فلسطين العربية المسلمة تحت أي عنوان، سواء أكان ذلك في سبيل إعطاء هذه المنطقة الحسّاسة لقوى مؤيِّدة، أم كان تنفيذاً لمخطّطات وضع جسم غريب في قلب المنطقة، يحول دون توحُّدها ودون استطاعتها حمل لواء النهضة الإسلامية كما ورد في تقرير.

وكان أكبر عوامل نجاح هذه القوى مجتمعة في ضرب الجامعة الإسلامية والدولة العثمانية، الجامعة لعنصرَي الترك والعرب هو: إغراء الحكّام بإقامة كيانات إقليمية لها طابع عنصري أو عرقي: أو مرتبط بتاريخ قديم سابق للإسلام، كدعوات الفرعونية والفينيقية والآشوريّة والبابليّة وغيرها.

وكانت الخطّة الأولى هي إيقاذ دعوة الطورانية في تركيا الإسلامية، ومحاولة حمل العرب عليها باسم خطّة تتريك الدولة، وهو الدور الخطر الذي قام به الاتحاديون إبّان حكمهم، بعد سقوط السلطان عبد الحميد إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩٠٨م-١٩١٦م).

وقد وُضِعَتْ خطّة المرحلة التالية في مجموعة أخرى من الاتحاديين، على رأسهم مصطفى كمال أتاتورك، لتنفّذ خطّة القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية نهائياً بعد الحرب، وقد مضى ذلك كلّه في طريقه متّسقاً مع خطّة البروتوكولات التي وضعها حكماء صهيون للسيطرة على الدولة العثمانية والبلاد العربية.

وكان اليهود قد حقّقوا خطوة واسعة بإشعال نار الثورة الفرنسية التي حقّقت لهم كسر قيود الوحدة المسيحية الأوروبية، وفتح الطريق إلى الجنس اليهودي للسيطرة على مقادير السياسة والفن والاجتماع، على النحو الذي حمَل لواء الحملة الإلحادية المدمّرة، التي شنّها اليهود والصهيونية ضدّ المسيحية والأديان، والتي قادها قبل الثورة الفرنسية فولتير وروسو وأصحاب الموسوعة، وبذلك أمكن احتواء المسيحية وتوجيهها لخدمة أهداف الصهيونية، وكان ذلك من أكبر انتصارات المحافل الماسونية.

كما انتشر بعد ذلك الأدب الإباحي وأدب الفراش واللامعقول والعبث والوجودية والحداثة، وكلّها من نتاج التوجيه الصهيوني لتدمير العالم الإسلامي.

واستطاعت الصهيونية أن تفرض على المسلمين والعرب مناهجها المدمّرة، التي ترمي إلى عدم العودة إلى الوحدة الإسلامية، وهي القومية والليبرالية والعلمانية والاشتراكية والديمقراطية.

لقد أزال اليهود مفهوم الدين الحقيقي من الغرب، لفرْض مفهومهم الذي يحقّق لهم قيام دولتهم، لقد ورثوا الحضارة الغربية وتسلّموها، ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً، ثم فرضوا أنفسهم على الفكر الغربي وسيطروا عليه سيطرة كاملة، وأباحوه للادينيّة وللاأخلاقية والإلحاد والإباحية، وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمي برّاق، ولما هدمتْ اليهوديّة الفكر الغربي أولاً سرّبت هذا الحُطام إلى العالم الإسلامي، مستهدفة من ذلك تحقيق غاياتها في إقامة الإمبراطورية اليهودية في فلسطين من النيل إلى الفرات، وإقامة هيكل سليمان بديلاً للمسجد الأقصى.

لقد حقّق اليهود الانقلاب العثماني في مراحله الثلاث (السلطان عبد الحميد ـ الدولة ـ الخلافة) هذا الانقلاب الذي رتَّب له يهود سالونيك منذ نصف قرن، حتى تمّ على أيدي مسلمين كانوا يهوداً في الأصل، فأسلموا لأجل هذه الغاية، ثم تلاه الانقلاب الروسي الهائل، وكان أنصار لينين كلّهم يهوداً.

كان إسقاطُ الدولة العثمانية وإقامة القوميات للحيلولة دون قيام وحدة المسلمين مقدّمةً للسيطرة الكاملة على المنطقة.

ولقد تجمّع العالم الغربي المسيحي كلّه لتحقيق هذه الغاية حتى وجّه أحد سفراء الغرب في الأستانة نداءً إلى حكّام أوروبا، يقول لهم بالحرف: «إنّ السلطان عبد الحميد هو من طراز السلطان محمد الفاتح الذي سبق له أن طَرَق بجيوشه أبواب أوروبا، وإن عبد الحميد يهدف إلى إعادة عظمة الدولة وإعادة مجد المسلمين، فعليكم تناسي خلافاتكم ومعرفة أي شخصيّة تواجهون».

وكان عبد الحميد بسبيل إحياء سنّة السلطان سليم بتعريب الديوان وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة، ثم السعي لتعريب الخلافة نفسها فضلاً

عن مشروعاته الكبرى لربط الدولة برباط عصري، وهو بناء سكة حديد الحجاز، وكلّ هذا مما أُسرع بإسقاطه.

قال اليهودي قره صو للسلطان عبد الحميد عندما رفض عرض هرتزل: «سترى كم يكلّفك هذا الرفض».

وفي هذا معنى الدور الذي قامت به الصهيونية لإسقاط الخلافة، وكم شَهِدَ الباحثون والمؤرِّخون لشخص السلطان عبد الحميد وحكمته وبراعته في إدارة دقّة الأمور، وفي مواجهة مؤامرات أوروبا ضدّه، وفي معرفته لخفايا الخُطَط التي رسمتها الماسونية عن طريق الاتحاديين، في سبيل اقتلاع وجوده وتدمير مشروعه الضخم بشأن وحدة المسلمين جميعاً.

ولا ننسى أن الاتحاديين بعد إسقاط عبد الحميد فرضوا سياسة ديكتاتورية متسلّطة، وتنكّروا لجميع الشعوب العربية التي تعيش في نطاق الإمبراطورية، وحاولوا عَلْمَنة وتتريك جميع العناصر، وكان من ذلك أولئك الذين علّقهم الأتراك من زعماء العرب على المشانق.

* * *

إحكام الخطّة

لقد كانت الخطّة هي الإطباق على الدولة العثمانية: دولة الخلافة بواسطة أرثوذكس روسيا وكاثوليك وبروتستانت بريطانيا، لردّها إلى الوراء بإثارة النعرة الطورانية، التي كان ينتمي إليها يهود الدونمة، وعلى رأسهم مصطفى كمال أتاتورك، ثم اتخاذ الدب الأكبر شعاراً لتركيا.

وكان الدبّ هو المعبود الذي يعبده الأتراك قبل دخولهم الإسلام.

ولقد كانت المرحلة التالية بعد إسقاط السلطان عبد الحميد هو إسقاط الدولة العثمانية، وقد جاء ذلك بإدخال الاتحاديين تركيا الحربَ العالمية الأولى، دون أن يكون لها في ذلك أي مشاركة حقيقية، ولكنّهم أرادوا ذلك حتى تنهزم، وبذلك تدخل في دائرة التقسيم الذي قام به الحلفاء للدول التي حاربت ضدّهم.

وقد فُرضتْ على الدولة العثمانية على إثر خروجها من الحرب العالمية الأولى معاهدة لوزان التي وُقّعت مع الحلفاء، وعلى هدنة رودس (١٩١٨م)، وقتها أملى الحلفاء شروطهم: فتح الدردنيل والبسفور، ونزع سلاح الجيش التركي، وتسليم البوارج الحربية التركية، واستعمال البواخر للموانئ التركية، واستسلام الحاميات التركية في الحجاز واليمن وسورية والعراق.

ثم جاءت محاولة احتلال اليونان لأزمير، وقد أقرت معاهدة الصلح مع تركيا انفصال تركيا عن الإمبراطورية (سورية والعراق)، وتنازل تركيا عن حقوقها في الأراضي الواقعة خارج الحدود (مصر والسودان وليبيا).

ثم وقَّعت الدولة العثمانية معاهدة سيفر (١٩٢٠م) التي أملاها

الحلفاء على حكومة السلطان العثمانية، وقد نصَّت على:

- الاحتفاظ بالقسطنطينية عاصمة عثمانية مع تدويل الأراضي المجاورة لها.
- إعلان كردستان دولة ذات استقلال.
- إدارة اليونان لأزمير لمدّة خمس سنوات.
- تنازُل تركيا عن بعض الأراضي والجزر لليونان وإيطاليا.
- إعلان أرمينيا دولة مستقلّة.
- اعتراف تركيا بالانتداب على سورية والعراق وفلسطين.
- استقلال الحجاز ومصر والسودان.
- تنازل تركيا عن حقوقها في قبرص ومراكش وتونس وليبيا.
- حماية الأقليّات.
- إعادة تأسيس نظام الامتيازات.

وكان واضحاً مدى الإجحاف والظلم الذي فرضه الحلفاء على الدولة العثمانية، يقول الأمير شكيب أرسلان: «لقد تحقّق تقسيم تركيّا بعد الحرب العالمية الأولى، وجاءت معاهدة سِيفر التي أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيّا على إمضائها، والتي نزعت من تركيا جميع البلدان العربية، وجعلت بلاد الأناضول مناطق مقسّمة بين دول الحلفاء، فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركيا أثراً بعد عين، ولكن الأتراك ثاروا واعتصموا بالأناضول، وجعلوا مركزهم أنقرة، وقاوموا جيش اليونان ودَحَروهم، ثم كان أن عقدت مع تركيا معاهدة لوزان، التي أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وأدرنة، وأخرجت من يدها البلاد العربية كلّها، وكل ما كان لها في أفريقيا وجزائر بحر الأرخبيل».

وهكذا تمّت تصفية الدولة العثمانية.

وقد قبلت تركيا الكمالية شروط الصلح الذي عقده الحلفاء معها في لوزان، والمعروفة بشروط كرزون الأربعة وهي:

أولاً: قطع كل صلة بالإسلام.

ثانياً: إلغاء الخلافة.

ثالثاً: إخراج أنصار الخلافة من البلاد.

رابعاً: اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيّا القديم.

* * *

وهكذا دخلت تركيا التي قادها مصطفى كمال أتاتورك إلى مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية، وبذلك يتحقق الهدف الثالث الذي رسمته مؤامرة الدول الأوروبية المسيحية بالاشتراك مع الصهيونية العالمية.

* * *

إسقاط الخلافة الإسلامية

استولى مصطفى كمال أتاتورك على مقاليد الأمور في الدولة التركية، التي رسم حدودها وأوضاعها اتفاق لوزان وسيفر، والتي قامت على أساس العلمانية، والتي حقّقت مطامع الغرب واليهود الماسون؛ في إسقاط الخلافة وتحويل وجهة الدولة العثمانية ـ التي حَمَتْ الإسلام خمسمئة عام ـ إلى دولة لا دينيّة، ثم كانت القنبلة الكمالية هي إسقاط الخلافة الإسلامية، وبذلك فتح الطريق أمام استعلاء الإقليميات والقوميات، بما يحقّق هدف الصهيونية العالمية بإقامة كيان يهودي في فلسطين، على النحو الذي تحقّق بعد الحرب العالمية مباشرة، عندما أعلنت بريطانيا وعْد بلفور (١٩١٧م) بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ولم يتوقّف الأمر عند تحجيم تركيًا بل انطلقت الدعاوى بالهدم والتدمير لتاريخها كلّه، واتّهامها بأنها سبب تأخُّر البلاد العربية.

ولقد مضى كمال أتاتورك في تحقيق هدف التغريب كاملاً:

١ ـ جعل روح القومية التركية مستقلاًّ عن الإسلام.

٢ ـ جعل التركي علمانياً أوّلاً، ومسلماً ثانياً.

٣ ـ تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

وكان أخطر ما قام به أتاتورك أنه حاول رسم منهج العلمانية للعالم الإسلامي كلّه، وقد سار على خطاه حكّام إيران وأفغانستان ومصر.

وقد أخذت تركيا الحديثة بقانون سويسرا المدني، وقانون الجزاء الإيطالي، وكلّها بعيدة عن عقيدة المسلمين وذوقهم ومنازعهم ومَشَاربهم، فالقانون المدني الأوروبي يصدر من منبعين: أحدهما روماني، والآخر

مسيحي، وليس في هذه القوانين ما يتّفق مع حاجة الزمان أو المكان، وفرقٌ في هذا بين تركيا من ناحية وبين سويسرا وإيطاليا.

ومعنى هذا أنّ النصر الذي حقّقه التغريب في تركيا الكمالية كان هزيمة كبرى على مستوى العالم الإسلامي، فقد رأى المسلمون كيف تتحطّم أمّة مسلمة، ثم لا تجد سبيلها مرة أخرى إلا بعد زمن.

وقد فرح الغربيون فرحاً شديداً للاتجاه الذي انحدرت إليه تركيا، حتى قالت جريدة التايمز (١٢ يناير ١٩٢٩م): «حان الوقت الذي تغرِبُ فيه شمس الإسلام في تركيا، لتحلَّ محلّها البروتستانتية أو أيّ مذهب قادر، إنّ الناس يتكلّمون عن قرْب اليوم الذي تُلغى فيه الديانة الإسلامية في تركيا، وأنّه لا بدّ أن يقع تغيير هام في دين تركيا في وقت ما، وإن كان غير قريب».

ومن عجبٍ أن الذي نقل هذا مسلم من تركيا هو (عمر رضا)، وقد تعالت صيحات التمجيد والاستحسان من جميع جوانب العالم الغربي للخطّة التي نفّذها مصطفى كمال أتاتورك، والتي رسمتها كلّ القوى المسيحية واليهودية، من أجل تدمير مقوّمات الأمة الإسلامية وكيانها.

وقد جاء إلغاء الخلافة الإسلامية في أعقاب رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لليهود، وتهديد الزعيم اليهودي قره صو (رئيس المحفل الماسوني في سالونيك) انتقاماً من الغرب، فقد سقطت الخلافة بعد إعلان وعد بلفور ببضع سنين.

ولقد سار مصطفى كمال بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنبيّاً عن الحكومة التركية، كما ألغى كلّ ما يُشم منه رائحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية، وأبطلَ المحاكم الشرعية، بعد أن أبطلَ العمل بالشريعة، وألغى الوزارة التي أسّستها مشيخة الإسلام، وجعل مكانها دائرة صغيرة لأمور الديانة، وحذف من دستور تركيا المادة التي فيها أنّ

الإسلام هو دين الدولة التركيّة، وأبطلَ إقامة مراسم العيدين، وكذلك ألغى الكتابة بالحروف العربية، وفيه ما فيه من إقصاء الترك عن العرب، وإبطال قراءة القرآن تدريجيّاً، وإقناع أوروبا أن تركيا قد تَفَرْنَجَتْ تماماً، وأنّه صار من العدل أن تدخل في العائلة الأوروبية.

ولهذا الغرض نفسه حمل مصطفى كمال الأتراك على لبس القبّعة، وكان تَرْكُ الحروف العربية ضربة عظيمة لتركيا في حياتها العلمية والاقتصادية.

* * *

وقد كان لحادث إلغاء الخلافة الإسلامية دويٌّ شديد في مختلف الأقطار، تساءَل الناس عن أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة على المسلمين، ومدى وقْعها على الذين استظلّوا بها، وهل هي آخر المعارك أم أولاها، حين يسقط هذا الحصن الذي كان يجمع المسلمين، ويحميهم ويردّ عنهم، ويدفعهم إلى التجمّع في وجه الحملة الكاسحة والإعصار الزاحف، الذي يعمل على تمزيق وحدة المسلمين وتَفْتيتهم.

وهل هذا الحدث الخطير نذير بحدث آخر أشدّ خطورة هو سقوط القدس مَسْرى رسول الله ﷺ في يد الصهيونية العالمية بعد ذلك بأربعين عاماً؟.

وقد أصبحت تركيا من الناحية الدستورية دولة علمانية لا دَخل للإسلام في تحديد سياستها الداخليّة والخارجيّة، وإنّ هذه العلمانية قد فرضتها عليها الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، بموجب معاهدتَي سيفر ولوزان لقاء الاعتراف بها كجمهورية قائمة على أنقاض الخلافة، لا يتعدّى سلطانُها حدود الأناضول.

ولقد كان لسقوط الخلافة وتحوّل الدولة التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك نحو العلمانية والغرب ـ أبعد الأثر في البلاد العربية،

وخاصّة في مصر، غير أنّ الباحثين والمراقبين استبعدوا سقوط البلاد العربية في هذا الاتجاه، فقد أخذت البلاد العربية تبحث في إعادة الخلافة زمناً، ثم نشأت جمعيات إسلامية كثيرة تحمل أمانةَ إعادةِ الخلافة أساساً لعملها.

وقد انطلقت الدعوة الإسلامية بعد سنوات قليلة تستقطب الشباب المسلم حول مفهوم (الإسلام دين ودولة) والعودة إلى الشريعة الإسلامية والتحرّر من نفوذ العلمانية والإقليمية والقومية والاشتراكية جميعاً.

وقد نجحت هذه الدعوات، واستطاعت أن تحقّق نتائج طيبة؛ في مقدّمتها النصّ في دساتير الدول العربية على الشريعة الإسلامية.

كما استطاعت أن تحرّر مفهوم العروبة من سموم مفهوم القوميات الغربي، وحدثت ردودُ الأفعال في تركيّا نفسها على نحوٍ أذهَلَ المراقبين، وتراجعت تركيا عن الإلحاد، وأخذت تمضي في الطريق نحو العودة إلى أحضان الإسلام.

* * *

تمزيق الوحدة الإسلامية وقيام الإقليميات

وقد كان من الضروري أن تقوم في البلاد التي انفصلت عن الدولة العثمانية نُظُمٌ سياسية غربية أو مستوحاة من الغرب، بعد أن سقطت سورية والجزائر والمغرب ولبنان في منطقة النفوذ الفرنسي، وسقطت مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين في قبضة النفوذ البريطاني.

ثم جاء وعد بلفور ليخلق تمزّقاً خطيراً يرمي إلى إعداد فلسطين للتقسيم بين العرب واليهود، مما انتهى إلى قيام كيان يهودي عام (١٩٤٨م) وجاء لورنس على خُطا هرتزل.

ففي تقرير سرّي رفعه إلى المخابرات البريطانية (كانون ثاني ١٩١٦م)، يقول: «إن أهدافنا الرئيسة هي تفتيت الوحدة الإسلامية، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقلّ وعياً للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوّامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسُك، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحَّدة ضدّ أي قوة خارجية».

لقد استطاع لورنس أن يمزّق الوحدة الإسلامية، وأن يجنّد العرب لقتال الترك، وأن يسلِّم هذه المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية إلى البريطانيين والفرنسيين، وكان يعمل طوال الوقت في سبيل الصهيونية مُخفياً وجهته، فهو قد قَدِمَ إلى المنطقة قبل الموقعة بسنوات ليدرس المواقع، وكان هدفه دراسة آثار الحروب الصليبية معلناً إعجابه بفروسية العصر الصليبي، وفي تصوّرٍ واضح بأن الحركة الصهيونية ستتّخذ نفس مسرح الحروب الصليبية في فلسطين والشام ومصر.

يقول: «كنت أؤمن بالحركة العربية (حركة الشريف حسين) إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزِّق تركيا شذر مذر»[1].

وقد انطلق لورنس ومجموعته لإذكاء نار الثورة العربية وتوجيهها ضدّ تركيا، وإثارة النعرات المختلفة داخل الدولة العثمانية، وكانت أوروبا قد بذلت المستحيل لتغذية هذه النعرات الطورانية والعربية والأرمينية، وكان سعي هرتزل الدائم لتقويض الدولة العثمانية، وقام بقيادة هذه الحركة لورنس وجلوب وفيلمي، وغيرهم من العرب، أما مصطفى كمال أتاتورك فقد أخفى أنه من يهود الدونمة، ولم يكشف أوراقه إلا في اللحظة الأخيرة، وقد أجاد استخدام الروح الإسلامية في شحْذ عزيمة جيشه، واستثمر الروح الإسلامية مرحليّاً، فانتصر بها ثم انتصر عليها.

وعندما جاء لورنس إلى المنطقة عام (١٩١٤م) جاء باسم التنقيب عن الآثار، وتحوّل إلى سيناء ورسم خريطة مساحيّة عسكرية لسيناء من العقبة حتى العريش، وقام باستطلاع رأي قادة العرب في توطين اليهود في فلسطين، والتمهيد لوعد بلفور.

وهكذا مُزِّقَت الأمة الإسلامية إلى وحدات صغيرة تحت لواء النفوذ الاستعماري.

ولكن سرعان ما تنبّه المسلمون إلى هدف تمزيق الوحدة الإسلامية وتكشّفت الحقائق، وبدأت عناصر الأمة الإسلامية تلتقي وتتجمَّع في مؤتمرات متعددة ولقاءات عامة في محاولة مستميتة لهدم كل عوائق الالتئام والتوحُّد.

---

(١) أعمدة الحكمة السبعة.

وإن كان النفوذ الأجنبي ظل قادراً على التدخُّل لهدم كل محاولة للوحدة، وكانت الخطة الخطيرة في الحيلولة دون ذلك هي قيام رأس جسد في قلب الوطن الإسلامي من جنس غريب، يتمثَّل في الكيان الإسرائيلي.

* * *

ملاحق البحث

أولاً: مقاومة التوسُّع البرتغالي، وتوسُّع الجهاد البحري ضد القرصنة الأوروبية:

١ ـ وصلت الدولة العثمانية أوجَ اتساعها وقوَّتها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠م ـ ١٥٦٦م)، الذي تولَّى عبء مواجهة التوسُّع الأوروبي، وبخاصة في البحر المتوسط وشمالي أفريقيا والمياه الشرقية، وفي عهده سيطرت البحرية العثمانية على البحر المتوسط برمّته، وحوّلته إلى بحيرة عثمانية إسلامية، وقد أولى السلطان سليمان اهتمامه لوقف التوسع البرتغالي في المحيط الهندي، وكان يعدّ العدّة للقيام بهجوم كبير يهدف إلى وقْفَ التوسّع البرتغالي في الشرق، وقد واجه المسلمون التوسُّع البرتغالي بالمقاومة.

وكان خير الدين بربروسا وإخوانه قد استقرّوا في الجزائر عام (١٥١٦م)، واتخذوها قاعدة للصراع المستمر مع قوة إسبانيا البحرية، وكان المسلمون الذين أُرغموا على الفرار من الأندلس قد جعلوا من الشمال الأفريقي قاعدة لنجدتهم من السفن والسواحل الأوروبية، مما جعل الأوروبيين يطلقون على هذه المنطقة اسم (ساحل القرصان)، وظلّت أوروبا تهاجم هذه الأوكار، بل إن الحجّة التي قدّمتها فرنسا لأوروبا حين احتلت الجزائر عام (١٨٣٠م) أنها تنقذ العالم الأوروبي من براثن هؤلاء القراصنة المسلمين.

وكانت نشاطات هؤلاء البحّارة مما يطلق عليه اسم الجهاد البحري ـ أما كلمة القرصنة فقد أطلقها الأوروبيون[1] ـ وهو جهاد استمرَّ ألف عام من كفاح المغرب ضدّ القرصنة الأوروبية في البحر المتوسط، وأصبح هولاء الذين قاوموا حملات الغرب ـ قبل استقرارها في الجزائر ـ أبطالاً قوميين: (الأخ عروج و«خير الدين» المسمى باربااروسا أو بذي اللحية الحمراء)، وقد استطاعا أن يؤسسا في (جوليتا) حلق الواد ـ بميناء تونس ـ دولة قراصنة، وأن يكسبا ولاء معظم الملاَّحين المسلمين في المنطقة على إثر قيامهما بهجمات ناجحة على الملاحة والسواحل المسيحية.

وفي خلال المعارك البحرية التي نشبت في هذه المناطق برزت زعامة عروج، وبعد استشهاده برز خير الدين الذي ولّاه السلطان على الجزائر، وأذن له بالحصول على التجارة من سواحل الأناضول.

وكان البحّارة المسلمون من أبناء سواحل الأناضول يقومون بالغارة

---

(١) مصطلح القرصنة = غزاة البحر.
إن القرصان في اللغات الأوروبية هو لصّ البحر، وهي دلالات جذرها اللغوي التسابق البحري، وقد اشتدَّت الحرب البحرية أمام الأخوَيْن عروج وخير الدين (وهي حرب يُطلَق عليها لفظ القرصنة، فكانت في الحقيقة من اختراعات الإفرنج لا العرب، وحتى الكلمة لا يوجد لها مرادف في اللغة العربية، إنما استُعربت في القرن التاسع الهجري، ويسمّى من تعاطاها قرصاناً، وهم معروفون عند ابن خلدون (بغزاة البحر).

وقد استفحلَتْ القرصنة في سواحل البحر الأبيض والمحيط الأطلنطي كردٍّ فعل لطرد الأندلسيين من مساقط رؤوسهم في الفردوس المفقود، ويستخدم الأوروبيون هذا الاسم للدلالة على نشاط الجهاد البحري الإسلامي في حوض المتوسط.
أما الرِّباط فهو فرع من الجهاد، ويعني ملازمة الثغور فيما يلي العدو، وهو أدنى صلة بموضوع الجهاد البحري.

على شبه جزيرة البلقان.

وقد قام خير الدين بسبع رحلات من الجزائر إلى ساحل الأندلس أمكنه خلالها نقل سبعين ألف مسلم، كانوا يتعرّضون لاضطهاد محاكم التفتيش، وفي مقابل ذلك أقام النصارى (فرسان القديس يوحنا) في جزيرة رودس واتّـخذوا منها قاعدة للإغارة على الملاحة الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ثم أُجلوا عنها بعد أن استولى العثمانيون على جزيرة مالطة.

واستدعى سليمان القانوني خير الدين، ونصّبه قائداً عاماً للبحرية العثمانية، وذلك عام (١٥٣٣م) وشرع في بناء أسطول جديد، يمكّنه من التصدي للقوّة النصرانية، ومن قاعدة تونس أغار على جزيرة صقلّية، وفرض النفوذ العثماني على غربي البحر المتوسط.

وفي أيام سليمان القانوني تمّ توقيع المعاهدة المعروفة باسم الامتيازات الأجنبية (١٥٣٦م) التي مكّنت رعايا فرنسا من تطبيق أحكام البابوية، وجعلهم خاضعين لأحكام ممثّلي فرنسا، وتمتّع الفرنسيّون بالحريّة الدينية داخل أملاك السلطان، وحراسة الأماكن المقدَّسة في فلسطين، وكان ذلك من أخطر التجاوزات التي فتحت الباب واسعاً للنفوذ الغربي.

وقد أمكن بفضل نفوذ خير الدين من إنقاذ الجزائر وتونس من الاستعمار الإسباني، وأصبحت البحرية العثمانية مرهوبة الجانب في البحر المتوسط الذي تحوّل إلى بحيرة عثمانية، ورفع راية الإسلام، وألقى الرعب في قلوب الإسبان وغيرهم من الأوروبيين، وقد دامت سـيطرة البحريـة الإسـلامية على البحر المتوسـط حتى معركة ليبانت

(١٥٧١م) التي دُمّر فيها نصف الأسطول العثماني، وأخذت الدول الأوروبية تسيطر بالتدريج على الملاحة في البحر المتوسط بفضل ما يأتي لها من تطوُّر في أسلحتها، إلا أنّ الملاّحين المسلمين في قواعدهم في مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ظلّوا محافظين على التقاليد التي أرساها خير الدين، فكانوا يعترضون الملاحة، ويرغمون مختلف الدول الأوروبية على أن تدفع لهم أتاوات في مقابل عدم التعرّض لسفنها.

ثانياً ـ الحبشة ومملكة القس يوحنا:

وصل البرتغاليون إلى سواحل شرق إفريقيا في أواخر القرن الخامس عشر، وكانت الدوافع الصليبية كامنة في نفوس البرتغاليين، وكانت رغبتهم الملحّة في الوصول إلى مملكة القسّ يوحنّا التي يُحتمل أن تكون هي مملكة الحبشة المسيحية، وذلك لإيجاد تحالُف وثيق معها، يكون مُوَجّهاً في الدرجة الأولى ضدّ الدول الإسلامية القائمة في المشرق، وكما تطلّع الأحباش إلى البرتغاليين تطلّعت القوى الإسلامية بدورها إلى العثمانيين، الذين أخذوا على عاتقهم عبء الدفاع عن العالم الإسلامي منذ النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، من جرّاء الأخطار الصليبية التي أخذت تجدُّ فيه من جديد، والتي تمثّلت في مطامع البرتغاليين والإسبانيين، وقد وجد العثمانيون في أمير هرر الإمام أحمد بن إبراهيم الملقّب بجرانيا ـ أي الأعسر ـ الذي استمرّت غزواته سبعة عشر عاماً (١٥٢٥م ـ ١٥٤٢م) بُغيتهم وكان لهذه الغزوات أكبر الأثر في نشر الإسلام؛ وتأجّج الحماس الديني بعد أن قام تحالُفٌ برتغالي حبشي، وأعلن الإمام أحمد بن إبراهيم ثورته على النجاشي (لبنا دنقل) والتفّ حوله مسلمو الصومال، ونجح في اكتساح أجزاء كثيرة من الهضبة الأثيوبية وإيقاع الهزيمة بجيش لبنا دنقل.

وقد سجَّل المؤرِّخ أحمد عبد القادر شهاب الدين الملقّب بعرب فقيه في كتابه (فتوح الحبشة) أن النفوذ الإسلامي وصل إلى الأراضي المتاخِمة لبحيرة تانا، وكان حماس العثمانيين ردّ فعلٍ لمساندة البرتغاليين للأحباش، بعد أن قام تحالُف برتغالي حبشي أيَّدوا فيه النجاشي بقوّات كبيرة، وقد طلب البرتغاليون من الحبشة اعتناق الكاثوليكية بدلاً من الأرثوذكسية، وشهدت البلاد نشاطاً واسعاً خلال القرن السابع عشر، حيث قامت به الجمعيات الكاثوليكية من طوائف الجنرديت والرومنيكان بهدف تحويل الحبشة العريقة في أرثوذكسيتها إلى المذهب الكاثوليكي.

ومن هنا لجأت الحبشة تستنجد بالمسلمين للتخلّص من البرتغاليين، فقد طلبت المعونة من جارتها اليمن المسلمة، وكتب النجاشي (فاسيلادس) إلى إمام اليمن يبلغه عن رغبته في فهم الدين الإسلامي، لعلّ الله يهديه إلى اعتناقه، وهكذا لم تذهب الجهود التي قام بها الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر ومِن بعده الأمير نور بن مجاهد، لم تذهب سدى بل كانت سبباً أساسياً في انتشار الإسلام في الهضبة الأثيوبية، كما اعتنق قسم كبير من قبائل أنجالا الوثنيّة الدين الإسلامي.

وقد قامت الطرق الصوفية بدور هام في الدعوة إلى الإسلام ونشره: الشاذلية والقادرية والحكمية، كما استطاع المسلمون في الحبشة أن يقيموا بينهم وبين البلدان المجاورة ـ لا سيما مصر والسودان ـ روابط ثقافية واقتصادية وثيقة.

« دكتور جمال زكريا قاسم »

ثالثاً ـ غزو القياصرة لبلاد الإسلام:

شنّ القياصرة حكّام روسيا على البلاد الإسلامية وسط آسيا في القرن الماضي حرباً صليبية مروّعة، وكان أقسى هذه الحملات: الحملة على تركستان، فقد استمات المسلمون في صدّ الجيوش الزاحفة، وأذهلت بسالتُهم المهاجمين، ولم يتخلّوا عن شبر من الأرض إلا بعد ما تركوا أثراً من دمائهم، لكنّهم عجزوا عن الصمود، وتركهم العالم الإسلامي للقياصرة المتعصّبين، فاحتُلّت أرضهم وطوي تاريخهم، وردّتهم الشيوعية بعد ثورتهم من سبعين سنة، حيث يمثّل المسلمون الآن ربع سكّان الاتحاد السوفيتي، وتبلغ الأرض المنهوبة نصف مساحة الدولة، وقد ضاعفت السلطات في آسيا الوسطى نشاطها في مراقبة المسلمين وتعقُّب حركاتهم، ولا سيّما عندما تجدَّدت ذكرى وفاة البطل المجاهد (فريان مرد هشام) وهو أحد أشجع القادة الذين قاوموا غزو القياصرة.

وقد قاد الشيخ شامل (شمويل كما اعتاد أن يوقّع رسائله) أقوى الحركات الثورية في مواجهة هجوم روسيا على القرم والقفقاس، حيث لم يتغلغل الإسلام في بلاد القفقاس إلا من نحو مئتي سنة فقط، وإن كان قد لامس هذه الجبال الوعرة منذ تقدّم آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد نحو بلاد الكرخ، وما توالى من غزوات عبّاسية بعد ذلك.

وقد توقّف الزحف الإسلامي في تلك الجبال الوعرة خلال القرون الوسطى، وبخاصة من بعد هجمات المغول والتتر، وتخريب بغداد وتحطيم الخلافة.. وتعدّ ثورة الشيخ شامل إحدى ثورات الإسلام ضدّ الطغيان الاستعماري النصراني الأرثوذكسي الروسي.

وكان الشيخ شامل ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها الدولة الأمّ للمسلمين، وينظر إلى الخليفة نظرة إجلال، لا تقلّ عن نظرته إلى الخلفاء الراشدين، وحاول شامل الاتصال بالسلطان التركي، فشعرت به روسيا القيصرية وحالت دون هذا الاتصال؛ وأرغمته على قبول القوانين الروسية في التعامل، واللغة الروسيّة، وكانت روسيا تخشى الصولة العثمانية، وتحاربُ المسلمين في التركستان وقازخستان، وفي بخارى وطشقند وسمرقند، وتعتدي على الحدود الإيرانية في غربي بحر الخزر وشرقه، وتثير المشاكل ضدّ الدولة العثمانية في البلقان والقرم والأناضول، وتحرِّض بلغاريا ورومانيا والجبل الأسود عليها، كما شجّعت اليونان على الانفصال عنها، وغذّت الثورات ضدّها.

وقد أثبتت بعضُ الوثائق أنّ روسيا اتفقت مع بريطانيا في الهدف فأثارت الأكراد والأرمن والدروز ضدّها، بل كان لها ضلع كبير في ثورة النصارى بسورية ولبنان.

وقد بقي الشيخ شامل يقاتل الروس ببسالة نحواً من ثلاثين عاماً، قضاها ثائراً في الجبال أو مهاجماً مراكز تجمُّع الجنود، يختطف سلاحهم ويقاتلهم به، والقليل مما كان يَرِدُه من الدولة العثمانية سرّاً كان يفرّقه على أتباعه، ولا يحتفظ لنفسه بشيء، ولما أعْيته الحرب تفرَّق عنه الناس بعد ثلاثين عاماً من معارك وجهود ونضال.. ركب حصانه وهاجم الجند وحده، وألقى بنفسه وبحصانه من أعلى الجبل إلى قعر الوادي، كي لا يقع أسيراً في أيدي أعدائه، وتحطّم حصانه ونجا، ولكنه حوصر وقُبض عليه، ونُقل إلى بطرسبرج انتظاراً لمحاكمته، ثم سُمِح له بالحج إلى بيت الله الحرام، ومرَّ بدمشق فاستضافه الأمير عبد القادر، وجاور في مدينة الرسول حتى توفّاه الله.

رابعاً ـ موقف الدولة العثمانية من استنجاد أهالي الأندلس المسلمين :

كان فتح القسطنطينية وانتهاء الدولة الرومانية الشرقية على يد الترك العثمانيين (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) حادثاً جَلَلاً اهتزّت له أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وكان عاملاً جديداً في إذكاء هذه الروح.

وكان افتتاح الترك للقسطنطينية ضربة شديدة للكنيسة والنصرانية، فلما استولى القشتاليون على مملكة غرناطة وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس، اعتبر الغرب ذلك تعويضاً بمعنى من المعاني عن سقوط القسطنطينية في يد الإسلام، ثم كانت الفورة الصليبية التي جاشت في إسبانيا، والتي دفعتهم إلى السيطرة على عدد من قواعد المغرب وثغوره.

ولقد تردّد القول عن تراخي موقف الدولة العثمانية بالنسبة لمسلمي الأندلس، ولكنّ المؤرِّخين المنصفين أشاروا إلى تجاوُب الدولة العثمانية مع نداءات مسلمي الأندلس بأمرين واضحين:

أوَّلهما: فتح أبواب بلادها لإيواء المهاجرين من الأندلسيين، الذين لم يطيقوا احتمال أزمة الضمير المفروضة والتعذيب والتنكيل، وازدادت هجرتهم إليها في المشرق عندما منعتهم إسبانيا من الخروج من موانئها الشرقية والجنوبية، وحوّلت طريق هجرتهم إلى الشمال، كي لا ينضمّوا إلى صفوف المغاربة القريبين، فيكونوا قوة حاقدة على مشارفها، وهكذا اتجهت جموعهم إلى ممرّات البيرنيه وموانئ الشمال، تنفذ منها إلى فرنسا ومرسيليا وإيطاليا فالبندقية وما ورائها إلى الشرق وممتلكات الدولة العثمانية.

إنّ هذه الطريق الطويلة والصعبة والشاقّة كانت من أكبر طرق الهجرة الأندلسية، وهناك عديد من الوثائق حول هذا الموضوع، أهمها ما بعث به السفير الإسباني في البندقية غارس هاند نريز إلى ملكه فيليب الثاني يُعْلمه فيها عن العدد الكبير من الموريسك الفارّين الذين نجحوا في عام (١٥٦٠م)

بخاصّة في الوصول إلى القسطنطينية عبر البندقية، وقد استخدمتهم تركيا جنوداً ومُتَرجمين، ويبدو أنهم في هجرتهم كانوا يكوّنون جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم.

وهذا لا يعني انقطاع الهجرة إلى المغرب، فطريق البحر من غرناطة وبلنسية ظلّت عاملة سرّاً، إذ لم تكن السفن الإسبانية قادرة على البقاء باستمرار قرب السواحل لمراقبتها.

والمجال الثاني الذي أظهرت الدولة العثمانية فيه تجاوبها مع صرخات المسلمين المضطهَدين هو: الغزوات البحرية التي كان يقوم بها الأسطول العثماني والجزائري التابع له على السواحل الإسبانية نفسها بالإضافة إلى غزوات بربروسا العديدة، فإن أحد قادة (غاكشيا الشيطان) ـ كما لقبّوه ـ استطاع أن يظهر أمام بلنسية أثناء ثورتها، وأن يحطِّم الأسطول الذي بعث به الإمبراطور شارلكان بسرعة من جنوة، وفي عام (١٥٤٠م) قام الأسطول الجزائري بغزو جبل طارق واستطاع (يحيى ريس) و(طرغد) أن يمزِّقا سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية عدّة مرات، وذلك على أثر احتلال المسلمين حصن الفيلنز عام (١٥٥٤م).

وقد كانت هذه الغزوات نوعاً من الجهاد المقدّس، وكان هدفها إضعاف القوة الإسبانية، والحصول على الغنائم، ولا سيما الأسرى، وتفريج كربة المسلمين، وتخليص من يريد الهجرة منهم من عذاب البقاء.

وعلى هذا يمكن القول ـ كما تقول المؤرِّخة التي نقلنا عنها هذا النصّ (الدكتورة ليلى الصبّاغ) في بحثها في الملتقى الإسلامي في تلمسان (١٩٧٥م) ـ: إنّ الدولة العثمانية كانت على اتصال دائم مع مسلمي الأندلس، عبر سلسلة من المحطّات في أوروبا وفي المغرب، وعبر أولئك النازحين المشاة المنتقلين عن طريق أوروبا، والذين لم يكن ليضنيهم السيرُ الطويل على الأقدام.

ومما لا شك فيه أن هذه الصلة وهذه الغزوات كانت دعْماً قوياً للمسلمين الغرباء المضطهَدين، وتفتيحاً لآمالهم؛ إلا أنّها بالمقابل كانت مُثيراً ملحّاً لقلق إسبانيا، مما كان يزيد من نقمتها على المسلمين في الداخل؛ فبعد كل نصر عثماني كبير على المسيحية الأوروبية كانت إسبانيا تلتفتُ إلى داخلها، فترى في المسلمين أعواناً سرِّيين لهذا النصر، ومن هنا تبيّـن توافُقٌ واضحٌ في عمليّات جَوْرها على المسلمين، وبين معارك النصر العثماني؛ وقد تعدَّدت مواقف النصر العثماني في مواجهة النفوذ الإسباني، وكانت انتصاراتها في رودس وبلغراد والمجر، وحصار مالطة، والنصر العثماني الكاسح على البندقية وغيرها.

* * *

خامساً ـ الصراع بين الصفويّين والعثمانيين:

كان هذا الصراع من أخطر ما لحِقَ بالمسلمين في الدولة العثمانية وفارس، وكلتاهما دولتان مسلمتان، وقد استطاع النفوذ الأجنبي أن يوقع بينهما من مُنْطَلَق تدمير قوّة الدولة العثمانيّة وتحجيمها، وعدم تمكينها من الوصول إلى قلب أوروبا.

يقول أحمد الخولي في كتابه (الدولة الصفوية): «لقد أقام الصفويون دولتهم، وفرضوا عليها المذهب الشيعي الإثنى عشري في أوائل القرن السادس عشر، وبعد توحيد إيران على أيديهم فإنّ أبصارهم اتّجهتْ إلى محاولة التوسُّع وبسط الهيمنة، في مواجهة الدولة العثمانيّة القويّة، التي امتدّ سلطانُها من وادي الفرات إلى قلب أوروبا، وقد قوبلت طموحات الصفويين بارتياحٍ بالغ من جانب الأوروبيين، الذين توسَّموا خيراً في تنامي قوتهم، وقدّروا أن الطموح الصفوي كفيل بإرباك العثمانيين وتشتيت قـوّتهم، وهم الذين باتـوا يشـكّلون خطراً يهدّد أوروبـا، بعد ما زحفت الجيوش العثمانية باتجاهها».

ومختلف المراجـع التي تتنـاول المرحلة الصفوية تثبت هذا البعد، وتنقل عن أحد السفراء الغربيين لدى البلاط العثماني واسمه بوسيك قوله: «إنّ الإيرانيين وحدهم هم الفاصل بيننا وبين الهلاك».

لهذا الغرض مدَّ الغربيون يد العون إلى الصفويّين، وصاروا بالتالي طرفاً مَعْنيّاً بالصراع.

ويقول الدكتور أحمد الخولي: «إنها الدولة التي ساعدت على أن يعرف الأوروبيون طريقهم إلى الخليج بخاصّة، والشرق الأوسط بعامّة، ففتحت بذلك الباب أمام عصر جديد هو عصر الاستعمار».

وقد احتلّت إيران الصفويّة بغداد عام (١٥٠٧م) ولكن العثمانيين استردُّوها وسيطروا عليها مرة أخرى (١٥٣٤م) ومنذ أوائل القرن السادس عشر.

وقد سقطت الدولـة الصفويـة عام (١٧٢٢م) وكانـت العلاقـة بين الصفويين والعثمانيين علاقة حرب ومفاوضات سلام.

وقد تناولَ هذا الموقف عدد من الباحثين، وأشاروا إلى أثر قيام الدولة الصفوية في فارس في مواجهة الدولة العثمانية، واستغلال بريطانيا للخلاف بين المذهبَيْن: السنة في تركيا، والشيعة في إيران؛ والعمل على تعميق هذا الخلاف، ومحاولة بريطانيا إعطاء هذه الدولة القوّة الخطيرة، بينما لم يكن عدد الشيعة في إيران قبل القرن الخامس عشر إلا عدداً قليلاً، وما كان من أثر ذلك على التطوّرات التاريخية في العالم الإسلامي كلّه حتى اليوم.

وقد شهدَ العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ظهور أوّل دولة تقوم على المذهب الشيعي الإثنى عشري أو الجعْفَري، وكانت هذه الدولة هي الدولة الصفوية التي أعلنها أول مؤسِّس لها، وهو الشاه إسماعيل الصفوي، وتنتسب الدولة الصفوية إلى الشيخ صفي الدين

الأربيلي، وهو أحد رجال الدين المتصوّفين الذي اتخذ من أذربيجان مقرّاً له، واستطاع حفيده إسماعيل الصفوي الاستفادة من أنصار وأتباع الطريقة، ليقيم أول دولة شيعية في التاريخ الإسلامي، واتخذ من مدينة (تبريز) الإيرانية عاصمة لها في تمام القرن الخامس عشر.

ويرى المؤرِّخون أنَّ قيام الدولة الصفوية هو الذي دفع آل عثمان إلى التحوّل صوبَ الشرق الأوسط، بعد أن كانت دولتهم قد اتّجهت منذ نشأتها إلى توسيع رقعة دار الإسلام في أوروبا.

* * *

سادساً ـ الحملة المتجدِّدة على الدولة العثمانية:

١) **فيما يتعلَّق بحقيقة الدولة العثمانية**: إنّ ظاهرة الحملة المتجدِّدة على الدولة العثمانية في هذه المرحلة من تاريخنا، وبعد تنامي الصحوة الإسلامية، إنما هو بمثابة أحد العوامل المتسلِّطة لإجهاض هذه الصحوة؛ ذلك أنَّ دعاة انتقاص هذا القطّاع الخطير من حياة الإسلام وتاريخ المسلمين إنما هو محاولة لتأكيد دعاوى العنصرية والإقليمية والقوميّة الضيّقة، التي عملت وما تزال تعمل دون التئام وحدة المسلمين مرّة أخرى بعد سقوط الخلافة، ويرجع ذلك كلّه إلى دور اليهود والماسون في إسقاط الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية، واستمرار موالاة هذا الأمر.

ومع أنّ النظرة المتحاملة على الدولة العثمانية بدأت تنحسر، فإنّ هناك قوى ما تزال تجعل من هذا الأمر منطلقاً للدعوة العصرية العلمانية الضالّة.

وإذا أضفنا هذا الدور الذي يقوم به خلفاء المبشِّرين والمستشرقين، فإنَّ مناهجنا الدراسية العربية والتعليمية تقفُ موقفاً معارضاً للحقائق التاريخية فيما يختصّ بالخليفة السلطان عبد الحميد بالذات ـ لأنه هو الذي كسر هجمة الصهيونيّة ـ وعلى الدولة العثمانية وتاريخها، وخاصّة

ما يحاولون إلصاقه بها مما يسمّونه تاريخاً احتلاليّاً استعمارياً.

ولكنّ الدولة العثمانية التي ظلمها المؤرِّخون في الغرب، واقتدى على آثارهم العرب، تستعيد الآن بعض حقائقها بظهور هذا التيّار المنصِف الذي نرى على رأسه أمثال الدكتور عبد الجليل التميمي، والدكتور محمد حرب عبد الحميد، والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، هذا التيار المنصف التجديدي الذي بدأ يتّسع ويكبر، وهو تيار يرى أنَّ الدولة العثمانية قامت بأفضل ما تستطيع عمله لمجابهة التيارات الغربية، والحفاظ على وحدة الأمة وعلى وحدة لغتها ومقدّساتها.

ومن عوامل الإنصاف وتصحيح المفاهيم أن نقول: إنّ الدولة العثمانية تعرَّضتْ إلى هزّات اقتصادية وسياسية منذ أواخر القرن الثامن عشر، ودخلت القرن التاسع عشر في صورةَ الرجل المريض بكلٍّ أبعاده، وقد انعكس هذا بالتالي على البلاد العربية، وليست الدولة العثمانية مسؤولة عن ذلك ولكنّه الإطار العام الذي كانت الدولة تعيشه.

ولم تكن البلاد العربية مهيّأة لأن تقوم بنشاط سياسي بعيداً عن الدولة العثمانية، فالجزائر سقطت (١٨٣٠م)، وفي ليبيا كانت العائلة الحسينية، ومحمد علي في مصر.. وهناك عوامل دقيقة وخطيرة جداً هي عوامل التسرُّب السياسي الغربي، وهذا التسرُّب هو الذي غذّى النزعة القومية العرقيّة نوعاً ما في الشام، وأعطى أحقّيّة التحرّك الأيدلوجي السيِّئ ضدّ الدولة العثمانية كردّ فعْل، ولكنَّ المخلصين من رجال الدولة كانوا في أواخر القرن الماضي يَروْن تقوية الرابطة الإسلامية، الأمر الذي سيعطي المدّ الحضاري العربي الإسلامي للدولة العثمانية ويجنّبها التقسيم فيما بعد.

وقد جرى تحريك النزعات القومية في أواخر القرن التاسع عشر الذي بدأ بالنزعة القومية الشوفونية في البلقان، وكان من وراء ذلك فرنسا وإنكلترا بالدرجة الأولى.

ثم جاء الدور الذي قام به اليهود الماسون في إسقاط الخلافة، وهو دور شنيع كان له أثره في تفتيت الدولة العثمانية، وفي كسب الأنصار لذلك، ولقد كان السلطان عبد الحميد أحد القلاع الأساسية والعاتية والصامدة أمام سَـرَيان توسّع النفوذ اليهودي في المنطقة، ولأجل هذا أُسقط وضُرب.

لقد كان العثمانيون يعتبرون أنفسهم محمَّلين بالرسالة وناقلين لها، ومن يدرس موقف (محمد الفاتح) يفهم أنهم كانوا رجال مسؤولية على مستوى البلاد العربية والإسلامية، لقد قاموا بما لم تقم به أيّ دولة إسلامية على الإطلاق، كان هذا قائماً منذ القرن الثامن عشر، إلا أنهم بعد ذلك أصبحوا يُدافعون عن أنفسهم، ولم يعودوا قادرين على حماية المسلمين، ولذلـك لا يمكن ـ لأسـباب عديـدة ـ تحميل الدولـة العثمانيـة إطلاقـاً مسؤولية الإضرار أو التجنّي مما يقوم به أحد الولاة.

لقد بقي الحَرَمان الشريفان محطَّ العناية الخاصّة من قِبَل الدولة العثمانية، كذلك جوانب أخرى متعلّقة بالعلم وأهله، فقد كان في دمشق وحدها أربعمئة مدرسة.

وقد تكشّفت أيضاً حقيقة موقف الدولة العثمانية من الوحدة، فإنها لم تفتح الأراضي الإسلامية للغزو الاقتصادي وإنّما حكم ذلك طبيعة التبادل، فقد كان هناك تجارة وعاملٌ اقتصادي، فقد عملت الدولة العثمانية على تقوية التبادل الاقتصادي التجاري في المنطقة العربية كلّها.

والخلاصة: إن العامل الاقتصادي لم يكن موجوداً في عملية التوسّع والفتح، وكل تفسير مادي أو اقتصادي أو متعسِّف لتلك الفتوح يسيء إلى الحقيقة، ويُجانب الصواب.

* * *

٢) فيما يتعلَّق بالجهاد البحري والصراع العثماني البرتغالي: كذلك كشفت المؤتمرات التي عقدت خلال السنوات الماضية، وآخرها (١٩٨٨م) أنه بعد السيطرة على القسطنطينية تابع العثمانيون حملاتهم الإسلامية في مشرق أوروبا وشرق المتوسط، وبعد سقوط غرناطة تابع الإسبان حملاتهم المسيحيّة على السواحل المغربية، وقد اضطر العثمانيون إلى التوقُّف بفتوحاتهم في أوروبا عند أسوار فينّا؛ لينقلوا نشاطهم إلى مواجهة المدّ الإسباني باسم المسيحية على السواحل المغربية لملاحقة المسلمين، وتوجيه ضربة إلى العالم الإسلامي من الخلْف عن طريق الالتفاف حول إفريقيا.

وقد نجح البرتغاليون في الدوران حول إفريقيا حتى وصلوا إلى المحيط الهندي، وبسطوا سلطانهم على الساحل الغربي للهند وجزر المحيط الهندي والخليج العربي، وقد اشرأبَّت أعناق البرتغاليين إلى سواحل البحر الأحمر، والتفكير في تهديم الكعبة، ونبش قبر الرسول ﷺ، وقد سجّل ذلك ابن إياس في (بدائع الزهور).

ولحِقَ بالبرتغاليين في الفترات التالية الإسبان والهولنديّون والفرنسيون والإنكليز والأمريكيون، وكلّها محاولات للالتفاف حول قوة الإسلام البرّية الخارقة في الشرق الأوسط (كما أشار إلى ذلك المؤرخ الهندي بانيكار في كتابه (آسيا والسيطرة الغربية).

هذا بالإضافة إلى رحلات البحّارة الغربيين (ماجلّان البرتغالي) الذي قتلَ مسلمي الفيلبين (١٥٢١م) وعمل على نشر المسيحية.

وقد جهّز العثمانيون حملةً في السويس، أبحرت إلى عُمان والخليج (١٥٥١م) وثانية (١٥٥٤م).

هذه مسؤولية الدولة العثمانية من ناحية المشرق، أما من ناحية المغرب فقد كان لها دور في الصراع الإسلامي المسيحي مع إسبانيا،

وكان لقصة المورسكيين (بقايا المسلمين بالأندلس) أثرها في تأجيج الصراع منذ البدء، فقد اختنق الوجود الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة، واضطرّ المضطهَدون إلى الهجرة إلى سواحل المغرب فراراً بدينهم، حتى كان الجلاء الأخير بقرار الطرد النهائي عام (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م) واندفعت إسبانيا وراء الفارّين على سواحل المغرب التي كانت تعاني ضعفاً ملحوظاً.

وتمكّن الإسبان من احتلال مليلة وبادس بالمغرب الأقصى، وبونة أو عنّابة والمرسى الكبير ووهران وبجاية بالجزائر وطرابلس وتونس، وقد أصـرَّت إسبانيا على هذا المظهر الصليبي في ملاحقتها للمسلمين في الأندلس والمغرب، وظهرت الحاجة إلى قادة بحريّين يمكنهم منازلة الأعداء والدفـاع عن السـواحل، ومن ثم نشـأت تلك القيـادة البحريـة الإسلامية، التي أمكنها مواصلة عمليّات الجهاد ضدّ القوى المعتدية.

وكان مركز العثمانيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط قد تدعّم إلى حدّ بعيد باستيلاء السلطان سليمان القانوني على جزيرة رودس (١٥٢٢م)، فقد كانت للعثمانيين من قبل شواطئ مصر والشام والأناضول والبلقان، فكانت سيطرتهم على هذا الحوض الشرقي سيطرة قويّة، أما تدخُّلهم في الحوض الغربي فقد تم نتيجةً لعدّة عوامل.

ولم تكن حركة هذا الجهاد البحري تركيّة أو عثمانيّة خالصة، وإنما كانت حركـة جهـاد إسـلامية عامـة بما انضم إليها من مسـلميْ الأندلس المطرودين ومسلمي شمال إفريقيا.

وكتب أحمد توفيق المدني دراسة موسّعة عن حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢م ـ ١٧٩٢م).

* * *

٣) فيما يتعلّق بالصراع العثماني ـ البرتغالي في الخليج العربي : كان موقف الدولة العثمانية من الزحف البرتغالي على الخليج العربي حاسماً، فقد عقد البرتغاليـون العزم على فرض سيطرتهم على منطقتَي الحجاز والبصرة، أما العثمانيـون فكانـوا مصمّمين على ردّهم عن هذه المنطقـة لحماية وحراسة الـحَرَمين الشريفَـين والحيْلولة دون وقوع طرق نقل السِّلع الشرقيّة إلى الغرب بأيدٍ غير إسلامية.

إن الموقف الحازم الذي وقفه العثمانيون حال دون وقوع الحجاز والبصرة في أيدي غير المسلمين، فبقيت تلك المناطق تحت الإشراف العثماني، فكان لهم التفوّق في البحر الأبيض المتوسط، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يحقّقوا ذلك في بحر الهند، لأن ترسانة السويس لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف، وعندما لم يتمكّنوا من إنشاء ترسانة كافية في السويس فتحوا قناة تفسح المجال أمام الأسطول العثماني في البحر المتوسط، للعبور إلى البحر الأحمر، ومنه إلى بحر الهند.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد فشلت في إبعاد البرتغاليين عن الخليج العربي والبحر الأحمر، فقد نجحت أعمالهم الحربية والسياسية في إنهاك الفرنج مادياً ومعنوياً، رغم محافظتهم على مراكزهم في الخليج العربي، كما عجز البرتغاليون عن منع تدفّق السلع الشرقية على منافذ البحر الأبيض، عبر الطريقين الغربيين، ومع إطلالة القرن السابع عشر سادت أوضاع دوليّة جديدة في بحر الهند والخليج، شكّلت خطراً على المصالح الاقتصادية العربية ومثّلت بداية الاستعمار الأوروبي، فقد جاء الإنكليز والهولنديون إلى الخليج، وتحالفوا مع شاه فارس (عبّاس الأول) وقضوا على البرتغاليين وساعدوا الشاه الفارسي على احتلال هرمز، وصفّوا مواقعهم الأخرى، كما ثبّت العثمانيون هيمنتهم على العراق، وقسّموه إلى ولايات عثمانية منها البصرة، كما قامت (عُمان) بدور أساسي في الإجهاز على المواقع البرتغالية في أراضيها.

واستمرّت الحكومة البريطانية منذ (١٨٨٢م) تراقب الأوضاع في المنطقة، وخاصة التحرُّكات العثمانية عن طريق حكومة الهند الشرقية الممثَّلة في موظَّفيها في الخليج العربي، ودخلت في مفاوضات حتى أسفرت عن توقيع اتفاقية (١٩١٣م).

* * *

٤) إنصاف الدولة العثمانية:

أولاً: لقد شكّلت الدولة العثمانية منذ ظهورها خطراً متزايداً على أوروبا، وقد واجهها الأوروبيون بسلسلة من الحملات الصليبية، وذلك بعد أن أوقع العثمانيون بهم هزائم مريرة في مواقع متعددة، وأخيراً حقّق العثمانيون حلم المسلمين القديم الخاصّ بالاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية (١٤٥٣م).

وقد ظلت الدولة العثمانية تمثل امتداداً للدول الإسلامية السابقة، واستمرَّت عدّة قرون تشكّل آخر الإمبراطوريات الإسلامية.

خاصة وأن العثمانيين لم يندمجوا في رعاياهم وجيرانهم الأوروبيين، وكانوا شديدي الحرص على دينهم الإسلامي وعلى التراث الإسلامي، ثم مضى العثمانيون في توسيع أملاكهم، فاستولوا على كلٍّ من شبه جزيرة البلقان ورودس في البحر المتوسط، وسيطروا على جنوبي روسيا، واحتلُّوا المجر (١٥٢٦م) وحاصروا فينّا (١٥٣٩م) ولم يكن هذا آخر حصار لهذه المدينة الواقعة في قلب أوروبا (والتي أصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدّسة) بل نزلت القوات العثمانية في جنوبي إيطاليا عدّة مرّات، منذ أواخر عصر السلطان محمد الفاتح، وكان هدف هذه الموجة الزَّحْف على روما والقضاء على البابوية، التي كانت تدعو الأوروبيين إلى حمل الصليب، وتدمير الدولة العثمانية، وفتح الطريق نحو بيت المقدس.

ثم سيطرت الدولة العثمانية على كل الوطن العربي باستثناء مراكش، وسدّت مداخل البحر الأحمر في وجه الحملات الصليبية البرتغالية.

ثانياً: تصدّت للوجود البرتغالي في الخليج، وفي المياه الشرقية، وساندت مسلمي الأندلس الذين تعرّضوا للاضطهاد الإسباني، وحرّرت طرابلس الغرب وتونس والجزائر من الاحتلال، وسيطرت بعض الوقت على الملاحة في البحر المتوسط.

ثالثاً: ساندت المذهب الذي قاده مارتن لوثر، بوصْفِه أقرب إلى التوحيد الإسلامي من المذهب الكاثوليكي، وأنقذته من الدمار الذي كان عُرْضَةً لأن يلحق به على يد الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، التي هجمت على إيطاليا وإسبانيا وأملاكها في العالم الجديد وألمانيا والأراضي المنخفضة، وتزعّمت الجهود التي بُذلت لمواجهة العثمانيين.

وهكذا قامت الدولة العثمانية بدور هام في تفتيت وحدة العالم الغربي، الذي انشغل بالحروب الدينية والاستعمارية: «استنجدت ملكة بريطانيا أليزابت الأولى بالسلطان في أواخر القرن السادس عشر، لكي يرسل شعبه لحماية الجزر البريطانية من الخطر الإسباني، مدّعية أنها تعتنق التوحيد».

رابعاً: كان العثمانيون مصدر رعب بالنسبة للأوروبيين الذين خشوا أن تقضي الدولة العثمانية على الدين المسيحي، لذلك دقّت أجراس الكنائس في ربوع القارة الأوروبية لدى وفاة السلطان محمد الفاتح، ثم لدى فشل حصار العثمانيين لفينّا أكثر من مرّة.

«وقد امتزجت هذه الصورة لفترة طويلة بالتراث الأوروبي الوسيط المتعلّق بالإسلام والمشرق خاصّة، وإنّ الأوروبيين خالفوا ما توصّلوا إليه من المعلومات عن العثمانيين بأشكال الفكر والتعبير، التي ارتبطت بالإسلام في العصور الوسطى».

«وهي أشكال ذات صبغة صليبية شديدة العداء للإسلام والمسلمين، لذلك العثمانيون يمثّلون بالنسبة إلى أوروبا خطراً لا يستهان به».

« أحمد عبد الرحيم مصطفى »

خامساً: لا ننسى أن الدولة العثمانية:

(١) تصدَّت للوجود البرتغالي في الخليج العربي.

(٢) ساندت مسلمي الأندلس الذين تعرّضوا للاضطهاد الإسباني.

(٣) حرَّرت طرابلس الغرب وتونس والجزائر من الاحتلال الإسباني الصليبي.

(٤) سيطرت على الملاحة في البحر المتوسّط.

سادساً:

(١) القول بأنّ دعوى الخلافة والجامعة الإسلامية إنما كانت من دعاوى السلطان عبد الحميد، لأجل كسب ودّ المسلمين وزيادة تلاحمهم معه؛ دعوى ظالمة ولا أساس لها.

(٢) فرض تدريس التركيّة في المدارس لم يحدث إلا في عهد الاتّحاديين، ولو أراد العثمانيون فرض لغتهم وأدبهم على العرب لفعلوا ذلك في البلقان، فقد بقوا هناك خمسة قرون (عشرين جيلاً).

سابعاً: تصحيح بعض الحقائق:

١ ـ التفريق بين سياسة الدولة وتصرُّفات الولاة.

٢ ـ المفاهيم القومية لم تظهر لدى الأتراك أو العثمانيين حتى بدأ القرن العشرين، وإن الفكرة العنصرية لم تكن قائمة.

٣ ـ أوروبا لم تنسَ أنّ العثمانيين هدّدوها مرّتين، ولذلك شَوَّهَتْ تاريخهم، وأغرت العداوة من الشعوب تجاههم.

٤ ـ كان للدولة العثمانية أخطاء، إلا أنها دون ريب كانت قائمة على الإسلام، وإنَّ أجيالها حاربت لذلك.

٥ ـ كانت جهود العثمانيين منصبّة على الردّ على توسُّعات البرتغاليين وسواهم، وكانت تطلب لحماية المسلمين في مناطق نفوذها، بل في بلاد بعيدة كالهند والمغرب.

٦ ـ حافظت الدولة العثمانية على وضْع المنطقة، ولم تساهم في تقسيمها، غير أنّ الضعف العام والارتباطات بالمعاهدات هي التي أرهقت كاهلها.

٧ ـ حالت الدولة العثمانية دون وقوع الحجاز والبصرة في أيدي غير المسلمين، لتفوّقهم في بحر الهند، حتى انتهت مرحلة البرتغاليين، وجاءت مرحلة الإنكليز والهولنديين.

٨ ـ إنَّ حملة مدحت باشا التي كانت مَضْرِبَ المثل لذلك، ليست إلا أحد الأخطاء في تاريخ الدولة، ولا تمثّل سياسة عامّة فيها.

٩ ـ كان دور الدولة العثمانية في الخليج هو إعلاء كلمة الله، وتوحيد كلمة المسلمين وجمع المسلمين، حيث كانت الدولة العثمانية تمثِّل تمثيلاً رسميّاً وفعليّاً الخلافة السنّية منذ أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين (١٥١٦م) بعد معركة مرج دابق.

* * *

كانت المؤامرة على الدولة العثمانية تهدف إلى أمرين:

إسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق الإمبراطورية بين دول أوروبا، وغرس هذا العنصر الغريب (الصهيونية) في قلب العالم الإسلامي.

وسار غلادستون على خُطَا البابا، وحمل المصحف في مجلس العموم البريطاني وقال: «ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض، فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل نحن على خطر منه في وجودنا نفسه».

وكان الاتحاديّون هم الأداة الأولى في تدمير الدولة، حيث أدخلوها

في أتون الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وحلفائها، وحين جاءت الهزيمة بدول الوسط ـ ومنها الدولة العثمانية ـ عُوْمِلَتْ معاملة استثنائية لم تطبّقْ على باقي الدول المنهزمة، بحيث سعى اليونان إلى بعث الدولة البيزنطية، والقضاء على الوجود التركي في أوروبا وشبه جزيرة الأناضول، ثم أقام الغرب النظام العلماني بقيادة أتاتورك، الذي وضع حدّاً نهائياً لجعل الشريعة الإسلامية الإطار العام للدولة، وساوى بين الرجل والمرأة، وأبطل استعمال الحروف العربية، ودعا إلى ارتداء القبّعة والملابس الإفرنجية، وكان فتح الباب أمام حريّة الجماعات الأجنبية في التعليم والولاء للغرب عاملاً من عوامل تَعْجيل سقوط الدولة، وكان مصدراً من مصادر تغريبها كلّية، حيث أخذت تركيا بالمفاهيم الغربية في السياسة التي قادها الاتحاديون وتلاميذ أوجست كونت، الذي استغلّه الغرب للدعوة إلى الطورانية.

* * *

من أعظم رجال تلك الحقبة رجلان، طَعَنَ فيهما الغرب، لأنهما حملا لواء المقاومة لمخطّطات أوروبا هما السلطان محمد الفاتح والسلطان عبد الحميد.

تناول الغرب السلطان محمد الفاتح بالنقد والانتقاص، وذلك بسبب الحقد عليه لأنه فتح القسطنطينية، مما أحاط سيرة هذا السلطان القائد وسمْعته بهالةٍ من الأراجيف، التي تشبه إلى حدٍّ كبير ما أشاعه الشعوبيّون والزنادقة حول سيرة هارون وبقيّة خلفاء المسلمين.

لقد حكم السلطان محمد الثاني (الفاتح) نيّفاً وثلاثين عاماً، بدأها بفتح القسطنطينية، وأنهاها بالمسير إلى فتح روما (١٤٥١م ـ ١٤٨١م) وكأنه أراد أن يحقّق الحديث النبوي الشريف؛ قال عمرو بن العاص: «كنّا عند النبي نكتب وسئل ﷺ أيّ المدينتَين تُفتح أوّلاً: القسطنطينية أم

روميّة؟ قال ﷺ: «مدينة هرقل تُفتح أوّلاً».

وقد كان سلاطين الدولة العثمانية يرون أنّ أقدامهم لن تستقرّ في أوروبا إلا إذا سيطروا على القسطنطينية وروما، وكان السلطان (بايزيد) يدرك أهمية هاتين المدينتَين وضرورة فتحهما لتأمين سلامة الدولة، فقام بحصار القسطنطينية ثم ارتدّ عنها، ولذلك كان أول عمل قام به محمد الثاني بعد وفاة أبيه مراد (١٤٥١م) وتولّيه الحكم هو حصار القسطنطينية، والعَزْم على فتحها، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة، وقد تحقّق له ذلك بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوماً، أبلى فيها المسلمون بلاءً منقطع النظير، دافع فيه الروم دفاع المستميت، ووضع محمد الفاتح نهاية الدولة الرومانية، التي كانت تسيطر على بلاد الشام، وتتحكّم في مصائر الجزيرة العربية، واصطفّت جيوشها ضدّ جيوش المسلمين في عهد رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة، وكادت في غزوة تبوك أن تصطدم مع الجيش الذي كان يقوده رسول الله ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ يدرك أهمية القسطنطينية، فوجّه اهتمام المسلمين إلى فتحها لتثبيت أقدام المسلمين في الجزيرة العربية وخارجها، فقال ﷺ: «لتفتحنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وقد توطّدت بفتح القسطنطينية أقدام الدولة العثمانية في أوروبا، حيث أخذت تطرق بابها وجنوبها الشرقي، بعد أن طَرَق المسلمون جنوبها الغربي في الأندلس.

* * *

لم يتوقف محمد الفاتح عند فتح القسطنطينية، ولكن واصل الفتوحات في شرق أوروبا، ومضى في بناء قوة الدولة الإسلامية العثمانية، وخاصّة في النواحي الاقتصادية والعسكرية والأخلاقية، ووضع

نُصْب عينيه الشاطئ الآخر من البسفور والدردنيل، وضرورة العبور إلى الناحيـة الأخرى للقضـاء على مصـادر الخطر، وهدم قـلاع الطاغـوت الأوروبي.

ولا ريب أنّ محمد الفاتح قد أنهى حقبة العصور الوسطى في أوروبا بمآسيها الدينية والدنيوية، وأمّن رواق الإسلام ليشمل معظم أوروبا من ناحية الشرق، فدخل في الإسلام: المجر ويوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا وبعض المدن الإيطالية والجزر اليونانية.

وقد لقي الله تبارك وتعالى في التاسع والأربعين من عمره (١٤٨١م) وقد احتُفل منذ وقت قريب بذكرى مرور (٥٣٦) عاماً على فتح عاصمة التاج الرومي ـ القسطنطينية.

وثيقة السلطان عبد الحميد:

«إنني كأمانة في ذمّة التاريخ لم أتخلَّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقّي المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم اضطررت وأُجبرت على ترك الخلافة.

إنّ هؤلاء الاتحاديين قد أصـرُّوا بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدّسة ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعيّة هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة ذهبية إنكليزية، فرفضتُ هذا التكليف بصورة قطعيّة أيضاً، وأجبتهم بالجواب القطعي: «إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فلن أقبل تكليفكم، لقد خدمتُ الملّة الإسلامية والأمة المحمّديّة ما يزيد على ثلاثين سنة، فكيف أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين؟ لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي». وبعد جوابي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سينقلونني إلى سلانيك، فقبلتُ التكليف وحمدت المولى

أنني لم ألطّخ وجه الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي» .
٢٢ أيلول ١٣٢٩هـ

وكان الذي بلّغ السلطان قرار الخلع (قره صو) عضو الحزب اليهودي الأصل، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا في مواجهة التحدّيات والأخطار إلى إنشاء جامعة إسلامية، توحّد بين المسلمين كافة في مشارق الأرض ومغاربها، وتعبّئ جهودهم للدفاع عن الخلافة الإسلامية في وجه أعدائها من الصليبيين على وجه الخصوص، وقد اجتمع على تأييدها أهل الفكر وروّاد الإصلاح، وفي طليعتهم جمال الدين الأفغاني، الذي أذاع الدعوة في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن كيانه، والحيلولة دون الانهيار.

وكانت النزعة الإسلامية حتى مَطَالع القرن العشرين تطغى على العصبية الجنسية والقومية والوطنية معاً، ومن أجل هذا رحّبت الشعوب الإسلامية بسلطان الخليفة التركي، وسيادة الدولة العثمانية ونفوذ الباب العالي.

لم يكن هناك خلاف بين المسلمين على تأييد الجامعة الإسلامية، وإنما نشأ الخلاف في شأن ارتباطها بالخلافة، ومدى سيادتها على الحكومات الأخرى، هذه الخلافة كان لا يرتضيها القائلون بإمامة قريش والداعون إلى استقلال العرب، ولم يجد دعاة القومية تناقضاً بين دعوتهم وتأييد الجامعة الإسلامية، وقد سبق مؤسس الوهابية في الدعوة إلى ردّ الخلافة إلى العرب، على أن تقوم على مبدأ الشورى والانتخاب والتعاون المتبادل بين الأقطار العربية.

* * *

حكم السلطان عبد الحميد أربعةً وثلاثين عاماً متّصلة، تبدأ عام (١٨٧٦م)، حتى عزلَتْه جماعة الضبّاط الشبان (١٩٠٩م)، وبقي معزولاً

حتى توفي (١٩١٨م)، وكانت جمعية تركيا الفتاة (الاتحاد والترقي) قد أخذت تعمل بموالاة النفوذ الأجنبي على قلب السلطان عبد الحميد، حتى تحقّق خلعه (١٩٠٩م) وتولّى الاتحاديّون السلطة في الدولة العثمانية بالولاء الغربي والصهيوني، وكان اليهود قد أذاعوا من قبل أنّ الطريق إلى فلسطين لا ينفتح إلا بهدم أسوار الخلافة، والقضاء على الصبغة الإسلامية للدولة العثمانية، فاستمرّت مؤامراتهم ودسائسهم ضدّ الخلافة عقوداً عديدة، وبلغت ذرْوتها أيام السلطان عبد الحميد، وقد حاولوا استعمال سلاح المال وعرضوا مبالغ مغرية لقاء السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، وقد رفض الخليفة ذلك، فكان لا بدّ من عَزْله بوسيلة أو بأخرى، وكان ذلك بالطريقة التي نظّمتها الصهيونية بواسطة الجمعيات الماسونية، التي قامت على تنفيذها بالاشتراك مع الاتحاديين، الذين كانوا قد هاجموا سياسة الجامعة الإسلامية، وأيّدوا سياسة تركيا الطورانية.



البَابُ السَّابِعُ

الآن انتهتِ الحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ



الآن انتهت الحروب الصليبية

(١)

مدَّ النفوذ الاستعماري ممثّلاً أوّلاً في إسبانيا والبرتغال، وفي إثرها بريطانيا وفرنسا وهولندا، فتمّت السيطرة على جزر الملايو التي سيطرت عليها هولندا (١٦٠١م) وقارّة الهند التي سيطرت عليها إنكلترا، بعد أن أسقطت الدولة المغوليّة الإسلامية الكبرى، التي امتدّت (٣٣١) عاماً، منذ (١٥٢٦م) إلى (١٨٥٧م)، حيث سقطت الهند في براثن الاستعمار البريطاني الذي سلّم مقاليدها للهندوس.

أما في أفريقيا فقد واجهت الحملة الفرنسية (١٨٩٧م) والتي هزمت خلال ثلاث سنوات، جاء بعدها محمد علي الذي فتح الطريق للنفوذ الفرنسي، ثم جاء إسماعيل بالاستدانة كمقدّمة لاحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢م) ثم السودان.

أما الجزائر فقد حاربت فرنسا سنوات حتى سقطت في براثن الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠م).

ثم جاء دور تونس التي سيطرت عليها فرنسا عن طريق الاستدانة (١٨٨١م) ، وجاء دور المغرب (١٩١٢م).

ثم كان تفكيك الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، مما أسقط سورية ولبنان في يد فرنسا، والعراق في يد إنكلترا، وصَدَر وعد بلفور الذي أعطى لليهود حقّ إقامة وطن قومي في فلسطين.

وهكذا تغيَّرت خريطة الأمة الإسلامية، وتحقّق للنفوذ الأجنبي السيطرة عليها، ما عدا أجزاء قليلة منها، حتى جاء اللورد اللنبي (١٩١٧م) فوقف في القدس بعد سيطرة بريطانيا عليها ليقول:

«الآن انتهت الحروب الصليبية».

نعم، الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة قوى الغرب (١٢٩١م) وانسحابها إلى بلادهم مدحورين.

أي إنّ أوروبا ظلَّت تحمل في أعماقها ذلك الحقد الأسود والتعصّب المقيت ضدّ الإسلام (٦٢٦) عاماً (أي ستة قرون ونيّف) حتى انتقمت بالسيطرة على بيت المقدس (١٩١٧م) الذي تلقّفه اليهود من بعد، وحين سلَّمته لليهود الذين كانوا الجنس الغريب العازل بين إفريقيا وآسيا، على النحو الذي أوصى به مؤتمر وزراء خارجية أوروبا بقيادة بريطانيا عام (١٩٠٧م).

* * *

وتقرير الأستاذ محمد الفرجاني في كتابه (الحرب الصليبية التاسعة):

«إن الحرب الصليبية التاسعة بدأت في مطلع القرن السابع عشر، حينما جاء الهولنديون كتجّار إلى أندونيسيا وما لبثوا أن ظلُّوا فيها مستعبدين أهلها مستنزفين ثرواتها، حتى تمّ إجلاؤهم عام (١٩٤٩م) بعد سنوات مريرة من الكفاح والجهاد، وفي القرن الثامن عشر تمكَّن الإنكليز بالوسيلة نفسها من احتلال الهند، ومن التوصّل عام (١٨٥٧م) إلى خلع

آخر أباطرة المغول المسلمين، وفي ذلك القرن نفسه استولت روسيا على (أزدف) و(شبه جزيرة القرم) من أملاك الدولة العثمانية، ثمّ على (بيسيرينا) في القرن التاسع عشر الذي احتلّ فيه الإنكليز جنوب الجزيرة العربية وساحلها الشرقي، ثمّ مصر والسودان، كما احتلّ الفرنسيّون شمال إفريقيا وبعض أواسطها.

وفي مطلع القرن العشرين استولت روسيا على الولايات العثمانية المسلمة: أذربيجان وتركمانستان وأوزبكستان وقيرغزستان وقازاخستان وداغستان، وما لبث الإنكليز أن احتلّوا فلسطين وشرقي الأردن والعراق، بينما احتلّ الفرنسيّون سورية، وأخيراً توَّج الاستعمار الصليبي الحاقد مؤامراته ضدّ الإسلام والمسلمين بإلغاء الخلافة الإسلامية في الأستانة.

وإذا كانت الحرب الصليبية التاسعة اتّـخذت هذا الطابع الاحتلالي والاستعماري فإنّ ذلك لم يدم في أكثر هذه البلاد طويلاً، فقد قامت الحركات الإسلامية تخوض معارك التحرير الكبرى».

* * *

ولقد تردّدت كلمات كتّاب الغرب بما يُفهم منها أنّ الحرب الصليبية التاسعة هي بمثابة ثأر من المسلمين ومن الدولة العثمانية، يقول بيرس سميث في كتابه عن سيرة المسيح: «إنّ هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها».

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في كلمات غلادستون رئيس وزراء بريطانيا (الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس) وقد أمسك المصحف الشريف في يده من فوق منبر مجلس العموم البريطاني ويقول: «ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا أمل لنا في السيطرة على المسلمين، بل نحن على خطر في وجودنا نفسه».

كان معنى هذا الكلام هو الفهم الواضح لدور المسلمين ومدى الحقد الذي يضمره الغرب والمسيحية واليهودية معاً، وأوروبا والنفوذ العالمي؛ عن مدى خطر هذه الأمة منذ وقت بعيد، وتخطيط هذه القوى ـ وفي مقدّمتها الصهيونية العالمية ـ في السيطرة على هذه الأمة، ووضعها بين فكّي الكمّاشة في مُعَسكَرين متضاربَيْن: الرأسمالية والماركسية، ومن خلال مفهوم العلمانيّة وإنكار الألوهية والنبوّة والغيب واليوم الآخر والجزاء الأخروي، ومن ذلك إغراق المجتمع الإسلامي بأدوات الانحلال وفرض النظام الربوي.

كان فَهْم الغرب أن عودة الإيمان بالإسلام إلى هذه الأمة بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع هو الخطر الذي يجب العمل لمقاومته.

ولقد كانت خطّة الدولة الكماليّة في تدمير الوجود الإسلامي، وإقامة النظام العلماني علامة على وجْهة الغرب في التعامل مع الأمة الإسلامية بعد إسقاط الخلافة وتمزيق وحدتها.

ولكن هل تحقّق ما يريد الغرب؟

يقول عصمت إينونو ـ الزعيم التركي وخليفة أتاتورك ـ في تصريح خطير له: «إنني لا أكاد أصدّق ما أرى، لقد بذلْنا كلَّ ما نستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الأتراك وغرْس مبادىء الحضارة الغربية مكانه، فإذا بنا نُفَاجأ بما لم نكن نتوقّعه، فقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام».

* * *

(٢)

كانت الحملة الفرنسية التي قادها نابليون إلى مصر وبلاد الشام حملة استعمارية في إبّان الصراع بين فرنسا وإنكلترا على اقتسام المناطق،

وكانت فاتحة الهجوم الاستعماري على العالم الإسلامي وبداية حملة التغريب التي قادها الغرب بعد التخلّص من نفوذ دولة الخلافة الإسلامية.

فقد حاول أن ينقل إلى مصر والمشرق مبادىء الثورة الفرنسية، هذا فضلاً عن أنَّ نابليون كان خاضعاً لنفوذ الصهيونية العالمية، كما يروي عبد الله التلّ فيقول: «استمرّ استغلال اليهود للثورة الفرنسية بعد أن حطّموا أسس الدولة من نواحيها الاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية، وغَدَوا القوّة الخفيّة التي تُرهب الشعب الفرنسي، تحت ستار الشعار المزيّف للحريّة والمساواة والإخاء، وحين انتهت السلطة العليا في فرنسا إلى نابليون انتهزوا هذه الفرصة وشرعوا في الاتصال به، والإيحاء إليه عن طريق مستشاريه من اليهود، وخاصّة رجال الدين منهم، وقد طلب اليهود من نابليون أن تمنحهم فرنسا الأرض التي يقيمون عليها وطنهم وجمهوريتهم، ومصر على وجه التحديد هي التي اتجّهت إليها آمال أنبيائهم، لتكون أرض عودتهم بعد بيتهم الثاني.

وقالوا في مذكّرتهم: «فاتجهوا بأنظاركم إلى مصر بعد خلاصها من العثمانيين».

أمّا الثمن الذي يقدّمونه لنابليون ـ بعد الأموال ـ فهو أن يكونوا في يده أداة تخريب واضطراب، كما يُقدّمون كلّ الضمانات لبثّ الفوضى وإشعال الفتن، وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة، وعندما رُفع المشروع إلى نابليون استصْوب الفكرة، واستعان بعلماء اليهود لتوجيه النداء إلى اليهود للعمل على إعادة احتلال وطنهم، وطابوا بإعطائهم قسماً من مصر يتّخذونه قاعدة للوثوب على فلسطين، وأن يكونوا في يده أداة تخريب وفوضى وتثبيت للاستعمار الفرنسي، يقول الأستاذ عدنان عبد القادر:

«كان نابليون يعلم علم اليقين أنّ العدو اللدود والخصم العنيد الذي

سيواجهه ليس جنود المماليك، وإنما الإسلام، ذلك الطود الراسخ والجبل الأشمّ الشامخ، الذي تكسّرت عليه موجات الصليبيين، وبقي الشرق شرقاً، وكذلك فإن نابليون عندما قرّر استعمار مصر بدأ بدراسة الإسلام، ووصل به الأمر إلى (ادّعاء الإسلام)، وذلك في محاولةٍ لتملّق عواطف المسلمين: «أيها المصريّون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، قولوا لأمتكم: إنّ الفرنساويّة أيضاً مسلمون مخلصون».

ووجد نابليون نفسه وجهاً لوجه أمام الأزهر ورجاله، الذين قاموا بتنظيم الثورة التي أقضّت مضاجع جيش الاحتلال الفرنسي طيلة السنوات الثلاث التي قضاها في مصر، وقد استعمل نابليون كلّ وسائل الترغيب والترهيب لجرّ شيوخ الأزهر واستعمالهم، ولما لم يفلح ثار غضبه، فأمر مدفعيّة القلعة المعزّزة بمدافع الهاوينتر والمورتار بأن تسدّد المدافع إلى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هي مركز الثورة، وبدأ ضربُ الأزهر بالقنابل، وأصدر أمراً بأن يُباد كلّ ما في الجامع.

وأخيراً حقّق نابليون حلمه، ودخل جيشُه الأزهرَ مركز القيادة المصرية، دخلوا وهم راكبون الخيول، وتفرّقوا بصحنه ومَقصورته وربطوا خيولهم بقِبْلَته، وعاثوا بالأزْوِقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، ودشّتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها (كما فعل الصهاينة عندما دخلوا المسجد الأقصى)، وأحدثوا فيه وتغوّطوا وبالوا وتمخّطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عرّوه ومن لباسه[1] أخرجوه، وهو ما فعله التتار عندما اقتحموا مساجد بغداد.

---

(١) (ودخلت الخيل الأزهر) عن الجبرتي.

هذا هو الجيش الذي فتح لنا نافذةً على العصر الحديث. . كيف عامل النساء، واغتصب الأموال، وانتهك الحرمات، ونفّذ الإعدام بالجملة، وبدون محاكمات.

وانطلقت قوّات نابليون تنهب وتذبح العرب على طول الطريق من العريش إلى عكّا، ولما استولوا على المدينة (يافا) ودخلوها أعملوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم، وراح الفرنسيون يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وفي يافا كان النهب والسلب وشَقّ البطون وهتك الأعراض؛ وتقدّم قائدان من قوّاد نابليون إلى القلعة، وأعَطوا الأمان إلى الحامية التركية التي كانت بها، فخرج الجنود وسلّموا أسلحتهم، وما أن رآهم نابليون حتى أمر بذبح كلّ الحامية المستسلمة، وكانت تبلغ ثلاثة آلاف جندي، ضارباً عرض الحائط بالأمان الذي مُنِحَ لهم باسم الشرف الفرنسي، ويبدو أنّ نابليون كان أشدّ حقداً على المغاربة الذين كانوا مع الجيش المصري.

وكان انتقام الله تبارك وتعالى أكبر من أي قوة، فقد انتشر الطاعون الذي فتك بجيشه فتكاً ذريعاً، وأرغمه على الانسحاب.

لقد فشل نابليون، وكان الإسلام هو العامل الأساسي في فشله، يقول مؤرِّخ غربي: «لم يفُقْ مستعمرٌ أوروبي نابليون في محاولاته لكسب الأهالي لصفّه، فإذا كانت جهوده قد فشلت فشلاً ذريعاً، فليس العيب في سياسته، بل عيب استحالة المهمة التي كان عليه أداؤها، كان الإسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجوّ المنشود في الثقة المتبادلة، لقد وقع ما كان محذوراً وتحطّمت الحملة الاستعمارية على جدران الأزهر، ولم يكن الأزهر إذ ذاك إلا قلعة من قلاع الإسلام الحصينة، أما قلبه النابض فكان يتمركز في استانبول عاصمة الخلافة الإسلامية وقصر عزّها وسادتها.

وهكذا أدركوا أنَّ الطريق إلى فلسطين لا ينفتح إلا بهدم أسوار الخلافة، والقضاء على الصبغة الدينية للدولة العثمانية، فقد استمرّت مؤامراتهم ودسائسهم ضدّ الخلافة العثمانية عقوداً عديدة، وبلغت ذروتها في أيام الخليفة الشهم عبد الحميد.

حاولوا في البداية استعمال سلاح المال، فعَرضوا عليه مبالغ مُغرية لقاء سماحِهِ لهم بالهجرة إلى فلسطين، لكنّه رفض، وكان ثمن رفضه هو تَنْحِيَته عن الخلافة، كما اعترف بذلك هو نفسه في وثيقة اكتُشِفَتْ حديثاً، وذلك بعد الثورة التي نظَّمتها الصهيونية بواسطة الجمعيات الماسونية، وقام بتنفيذها مصطفى كمال، الذي اختلفَتْ الروايات في أصله؛ فمن قائل: إنه من يهود الدونمة، إلى زاعم أنه تركي مَوْبُوء بأفكار تحرّريّة، وكيفما كانت حقيقته، فإنَّ الأعمال التي قام بها تدلُّ على أنّه أعدى عدوٍّ للإسلام، وأنّه لو قدّرَ لهرتسل وحلّ مكانه لما عمل أفظع وأشنع مما عمله هو، ويكفيه خزياً أنّه هَدَم الخلافة»[1].

* * *

(٣)

سقطت كل الدعاوى التي حاولت أن تجعل للحملة الفرنسية آثاراً إيجابية حقيقية في نهضة الأمّة الإسلامية، وتأكّد أنَّ هذه النهضة كانت قد وجدت فعلاً قبل الحملة الفرنسية، وأنَّ الحملة الفرنسية عملت على هدْمها؛ لقد جاءت الحملة الفرنسية على إثر الثورة الفرنسية التي حملت لواء هدم العقيدة الدينية في الغرب، وإعلاء شأن الإلحاد، وتمزيق الوحدة

(١) (ودخلت الخيل الأزهر) عن الجبرتي.

المسيحية السياسية في أوروبا، من أجل إعطاء اليهود القدْرة على السيطرة، وهدْم نفوذ الكنيسة، وإعلان شأن العنصر والقوم بدلاً من الدين.

وقد حملت معها فكرة العلمانية التي كانت تمثّل السعي إلى النهضة والتقدُّم عن غير طريق الدين، ثم اتّسع نطاق هذا المفهوم من بعد، فصار سمةً تميِّز الفكر القومي مناهضةً للدين، أيّ دين، (على حد تعبير الدكتور السيد أحمد فرج في كتابه جذور العلمانية).

وقد لاحظ الجبرتي بنظرته الثاقبة خطورة هذا التغيير الذي وضع الفرنسيون ركائزه، مما كان له أبعد الأثر في تحوّل المجتمع وتحلُّل القيم الأخلاقية، فظَهَر السفور والاختلاط، وأتبعه البغاء، وتبرَّجت المرأة المصرية المسلمة، وخرجت واختلطت.

وقد أثّر ذلك في علماء الدين الذين والى بعضهم المستعمر، فلمّا خرج الفرنسيون عاد المماليك إلى أسوأ ما كانوا، وانتشر الربا والاختلاط بالأجانب وغير المسلمين وموالاتهم، ومع هذا فقد كان الجبرتي يؤمن بضرورة الأخذ بعلوم أوروبا مع المحافظة على القيم الإسلامية، وفي نطاقها.

وغلب في هذه الفترة طابع جبريّة التصوّف السلبي الجامد، وكان أخطر ما في هذه المرحلة توقّف المجتمع عن تطبيق الشريعة، فلمّا جاء محمد علي استفاد من هذا الجوِّ فائدة كبرى فأوقع بين العلماء وكسبَهم إلى صفّه عندما حاول (عمر مكرم) المطالبة بالعدل للشعب، وظلّ يعارضه ويحجّمه حتى عزله نهائياً، وانفرد بالسلطة.

فضلاً عن ذلك فقد سار محمد علي على طريق الولاء للغرب سياسياً واجتماعياً، وكانت حروبه كلّها بسلاح فرنسي ومشورة فرنسيّة

وخبراء عسكريين فرنسيين، وكانت تحقيقاً للتخطيط الذي رسمه المستشرق الفرنسي فولني الذي حفِظَه نابليون عن ظهر قلب قبل حملته على مصر، إذ كان ينادي بأنَّ السيطرة على الشرق لا تتمّ إلا بعد الاستيلاء على مصر والشام، وتحطيم الخلافة العثمانية.

ومن هنا كان محمد علي امتداداً غربياً لنابليون والنفوذ الغربي، ومبادئ العلمانية التي أرساها نابليون وجيوشه الفرنسية، مكَّن لها محمد علي بعد أن قوّض سلطة الأزهر، وأضعف نفوذ علماء الدين.

حتى الكتب التي تُرجمت في فنون شتّى تُرجِمت برغبة الأوروبيين، الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد.

وأخطر ما هنالك أنه أقام نظاماً تعليمياً علمانياً، وحجبَ امتداد الأزهر ونفوذه، وأوجد الثنائية بين التعليم المدني والتعليم الإسلامي، كما سيطر على أوقاف الأزهر، فأصبح العلماء خاضعين منذ يومها للحكم والحاكم، وحرَمَ المشايخ من سابقِ وظائفهم التي هيمنوا بها على المجتمع، وحكم عليهم بالعزلة التامّة، وقد سيطر على هذا الاتجاه ورعاه (رفاعة الطهطاوي) تلميذ المستشرق (جومار) الذي صنَعهُ في فرنسا على وجهة التغريب.

ولم يكن رفاعة في وعي الجبرتي، الذي كان يَقِظاً إلى التفريق بين التبعية للغرب وبين الأخذ بمقدارٍ لخدمة الأمّة وترقّيها، فقد استقبح الجبرتي مُسْتحدثات الفرنسيين، والتحلّل من المثُل الأخلاقية التي انطبع بها المجتمع المصري، وتحدّي العرف الإسلامي.

أمّا رفاعة فقد أقرّ التغريب جُملةً، وقد عايش محمدَ علي وإبراهيمَ وعباساً وسعيداً وإسماعيل، وأنعم عليه بالرُّتَب والتشريفات، وألحقوها قطاعات هامة، حتى ترك لورثته ما يزيد عن ألف وستمئة فدّان.

وقد استمرّ هذا التيار قرابة أربعين عاماً، حيث دخلت إرساليات التبشير في عهد سعيد، وبدأ نشاط الأجانب، وجاء إسماعيل بعد سعيد، فألغى المحاكم الشرعية، وفَصَل بذلك بين المسلمين وبين الخيط الباقي الأخير، عندما أنجز قلم الترجمة برئاسة رفاعة ترجمة القانون الفرنسي المدني والجنائي إلى العربية (١٨٦٣م).

وقد مهَّد هذا كلّه للاحتلال البريطاني، الذي وُصف بأنّه الحملة الصليبية الثامنة التي انتصرت بعد أن باءت الحروب الصليبية السابقة لها بالفشل، كما تسمّى الحملة التي قادها اللورد اللنبي على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى بالحملة الصليبية الأخيرة، كختام لحملات الغرب المسيحي على المسلمين في إسبانيا وفي المغرب وفي الشام ومصر.

وقد كلّف الخديوي إسماعيل رفاعة الطهطاوي بترجمة القانون الفرنسي الوضعي عام (١٨٦٣م) للعمل به في المحاكم بعد إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية، ومن هنا يكون إسماعيل قد سبق مصطفى كمال أتاتورك في إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية[١].

وهكذا يمكن القول إنَّ أوّل علامات المقاومة للنفوذ الغربي الذي سيطر على الفكر الإسلامي قد بدأ من خلال الحركة التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، فقد بدأت فعلاً المواجهة من رموز الفكر الغربي على النحو الذي قام به جمال الدين في كتابه (الردّ على الدهريين) ومراجعة محمد عبده لكتابات هانوتو وفرح أنطون، وهي الكتابات التي كشفت عن معطيات الإسلام للحضارة الإنسانية، والمقارنة بين ذلك العطاء وبين موقف الأديان الأخرى.

ولا بدّ أن نسجّل هنا موقف (علي مبارك) في كتابه (علم الدين) من حيث سلامة موقفه من الإسلام، ودوره في عطاء الحضارة الغربية، ودور

---

(١) كتاب (جذور العلمانية).

المسلمين في استعادة دورهم مرّة أخرى، جامعين بين علوم الدين والدنيا بوصفهما معاً علماً إسلامياً واحداً.

* * *

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ هناك إجماعاً في كتابات المؤرِّخين الأوروبيين أنَّ هناك نهضة اجتماعية في مصر والشام، قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاماً.

ويشير إلى ذلك مؤلّف كتاب الجذور الإسلامية للرأسمالية (مونيه الأمريكي) بأنَّ هناك تيّارات إسلامية صاحبت هذا التغيّر الاجتماعي والاقتصادي، وهي تيّارات أصولها إسلامية، أنتجها مفكِّرون مسلمون، لم يكونوا قد اطّلعوا على أعمال فلاسفة العصر الأوروبي، بل لم يكونوا يعرفون لغةً غير العربية.

ويرى سيرجران أن حملة نابليون على مصر وفلسطين لم تكن ـ كما قيل في مقدمة (وصف مصر) ـ هي المحرّك الذي حَفَزَ العقلية المصرية إلى الاستنارة والبحث عن الحداثة، بل على العكس إنّ هذه الحملة الاستعمارية أجْهَضَتْ التطوّر الاقتصادي والفكري الحقيقي والأصيل والقومي في مصر، ومهَّدت السبيل إلى غرس فكرة استيراد واستعارة نماذج الثقافة والتحضُّر، ومناهجها الغربية.

وقال: «إنَّ مصادر هذا الفكر لا توجد إلا في الكتب والمخطوطات المصرية الموجودة في مكتبة الأزهر ودار الكتب.

وقد حاول الغرب أن يصوِّرها على أنها مجرّد شروح سقيمة لكتب قديمة أكثر سقماً، وبينما هي كتب في علوم دنيوية هامة للاقتصاد والحساب والزراعة والري والمواريث، وقد أُلِّفت هذه الكتب مُسْتَنِدَةً إلى مصطلحات، وإلى تراث علوم الحديث الشريف، وعلم أصول الفقه الإسلامي.

وفي ظلّ طغيان الدولة الفردية (محمد علي) والتضييق على النشاط الفردي تَدَهْوَرَ الاهتمام بعلم الحديث، وما صاحبه من علوم التاريخ والمنطق والأدب وفقه اللغة، وزاد الاهتمام بعلم الكلام الذي يُستخْدم عادة لتبرير الواقع القائم، ووضْع العقول في أقفاص المجرَّدات المطلقة . . ».

كل هذه النصوص الغربية المجرَّدة تكشف حقيقة النهضة الإسلامية التي انبعثت قبل الحملة الفرنسية، والتي جاءت الحملة الفرنسية لهدمها.

* * *

(٤)

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: «دخلت دار الإسلام سِنَة من النوم أورثتها نشوة النصر المؤزَّر بعد فتح القسطنطينية، بينما أورثتْ أوروبا عزيمة حاسمة لتردَّ عن حوضها العار، فإذا دار الإسلام محصورة في الجنوب بعد أن كانت حاصرة للمسيحية الشمالية في الشمال الأوروبي، وشيئاً فشيئاً فقدتْ دار الخلافة في القسطنطينية هَيْبتها وسيطرتها، وإنما الذين أيقظوا المسلمين قبل الحملة الفرنسية بوقت طويل خمسة:

١ ـ البغدادي (١٦٨٣م) ردَّ على الأمة قدرتها على تذوُّق اللغة والأدب وعلوم العربية.

٢ ـ الجبرتي الكبير (١٧٧٤م) ولَّى وجْهَهُ شَطر علوم الهندسة والكيمياء والفلَك، إلى جانب الصنائع الحضارية، وصار بيته زاخراً بكلّ أداة في صناعة، وحضر إليه الطلاّب من الإفرنج، وقرؤوا عليه علم الهندسة (١١٥٩هـ) وذهبوا إلى بلادهم، ونشروا العلم في ذلك الوقت، واستخرجوا منه الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجرّ الإثقال.

٣ ـ ابن عبد الوهاب (١٧٩٢م) مكافحة البدع والعقائد المخالِفة.

٤ ـ الزبيدي (١٧٩٨م) بعث التراث اللغوي والديني.

٥ ـ الشوكاني (١٨٣٤م) رفض التقليد في الدين.

أمّا القول بأنّ بداية هذه اليقظة كانت مع الحملة الفرنسية على مصر فهو أمر غير جائز، إذ كيف يصنع لقاء المصريين بالفرنسيين الذي لم يستمرّ أكثر من ثلاث سنوات تغييراً جوهرياً في بيئة المجتمع.

كذلك فإنّ دعوى بداية النهضة مع حكم محمد علي مرفوض أيضاً، إذ أنّ القائم بها ليس عربياً أو مصرياً، فضلاً عن أنه لم يتعلّم، لقد كانت جهود محمد علي ضمن مخطّط أجنبي لا يُسمح لها بالتنفيذ إلا في حدود.

ولقد كان الشمال المسيحي الأوروبي قد هبَّ هبّة الفزع لهذه اليقظة العربية، فبدؤوا يقلّبون النظر؛ فيما لو تمّت فسوف تكون خطراً عليهم، ومن هنا كان العمل السريع والمحكَم، واستغلال العقلية المحيطة بهذه اليقظة ومعالجتها في مَهْدها قبل أن يتمّ تمامها».

«ومن هنا كان تدمير الأزهر هو الهدف الأول للحملة الفرنسية، للقضاء على مصادر هذه النهضة، التي تتمثّل في ذلك الجيل الذي يربّى على مفاهيم الجبرتي والزبيدي وغيرهم، ومن هنا كان تأليب محمد علي على ضرب الحركة الوهّابية في حرب دامت ثماني سنوات، قُتل فيها الآلاف من المسلمين.

وكانت فكرة البعثات العلمية نتيجةً ثانية لتأثير هؤلاء القناصل والمستشرقين، بناءً على تخطيط وتدبير لأهداف بعيدة المدى؛ منها جعْل محمد علي قوّة لها في قلب دار الإسلام، تصرِّفه كيف تشاء، وتقضي عليه يوم تحتاج.

وقد تمَّ مشروع محمد علي في البعثات العلمية تحت إشراف المستشرق جومار، وتوالت البعثات من الشباب ليضعهم جومار تحت

أيدي المستشرقين يوجّهونهم ويعلّمونهم، وكان رفاعة الطهطاوي بمثابة صيد ثمين، ليبقى في باريس ثلاث سنوات، يعود بعدها حاملاً ريادة النهضة الحديثة».

* * *

ويجب أن يكون معروفاً أنَّ هذه النهضة جاءت عشيّة الحروب الصليبية وغزو التتار، ثمّ انحسار السلطان العثماني، وهكذا شاركت مصر والجزيرة العربية (العونبات ـ اليمن) في هذه الصحوة التي جاءت الحملة الفرنسية للقضاء عليها، وتفريغها من أهدافها.

وكانت ظاهرة تجديد التراث الإسلامي وإحيائه، وإعادة بعْثه وتجديده سنّة طبيعية بعد حملات الغزو الصليبي والتتري، وفقدان المسلمين لعدد ضخم من تراثهم خلال الحملات التي حرقَتْه وأغرقته في نهر دجلة، في مرحلة تسبق مرحلة سرقته وجمْعِه وتصديره إلى أوروبا، بعد وصول القناصل الأوروبيين وسيطرتهم على بلاد المسلمين.

وكان لويس الرابع عشر ملك فرنسا قد أرسل رسالة إلى قناصله في مختلف بلدان الإسلام عام (١٦٧١م) لشراء المخطوطات، وأنفذ مبعوثيه إلى جميع القناصل الفرنسية، ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية.

* * *

ملاحق البحث

أولاً ـ مرحلة النفوذ الأجنبي :

كان انهيار الحكم الإسلامي، بدخول النفوذ الأجنبي إلى الأمة الإسلامية عاملاً خطيراً من عوامل احتواء المسلمين في مناهج الغرب، وحَجْب الشريعة الإسلامية، على نحو يمكّن القوى الغازية من السيطرة على بلاد الإسلام، هذه المرَّة لأمدٍ أطول، وحتى تدمِّر مصادر القوة التي يقدّمها الإسلام لأهله لمواجهة الغزو الخارجي، وهذا هو ما يتمثّل في احتواء الإسلام، وتدمير معالمه الأساسية، عن طريق التبشير والاستشراق والغزو الثقافي.

ولقد أسرع النفوذ الأجنبي حين استولى على الأقطار الإسلامية بإسقاط المجاهدين الوطنيين الأُصلاء، الذين قادوا المقاومة العسكريّة ضدّه، وحملوا لواء قتاله وهزيمته.

ولقد قاومَ الاستعمار في ميدان القتال عديدٌ من أعلام المجاهدين المسلمين أمثال محمد بن عرفان في الهند، وعبد القادر الجزائري في الجزائر، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، والمهدي في السودان، وعمر المختار في طرابلس الغرب، كما قاوَمه في مناطق أخرى بالكلمة كثيرون؛ منهم مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش في مصر، وعبد العزيز الثعالبي في تونس، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

وقد كان النفوذ الأجنبي حريصاً على تكوين العاملين معه، ليقدِّمهم في مجال القيادة والسيطرة السياسية بعد أن يقضي على المجاهدين

الأحرار، وقد أفلح في ذلك واستقطب مجموعة كبيرة من أوليائه على النحو الذي فعلَه كرومر في مصر خلال فترة حكمه التي امتدّت خمسة وعشرين عاماً، قدَّم فيها لطفي السيد في مجال الصحافة، وسعد زغلول في مجال التعليم، وعبد العزيز فهمي في مجال القانون، وغيرهم كثيرون.

كما أنَّ النفوذ الأجنبي فرض النظام الديمقراطي الغربي والقانون الوضعي، ففتح في البلاد الإسلامية ثغرات تُبيح الربا والزنا والخمر، فواجَه المجتمعُ المسلم أزمة كبرى حطّمت كثيراً من الأسر وخَلْخَلَتْ نظام الزوجيّة.

وكان للنفوذ الأجنبي في كلٍّ قطر عربي وإسلامي نظام مختلف، وذلك حتى لا تتوحّد هذه الأقطار، وفُرِضَ عليها وَضْع تاريخ إقليمي ضيّق منفصل، وذلك حتى تتلاشى فكرة الوحدة الإسلامية.

وأعلى من شأن الوطنيات والإقليميات وجود الدعوات القديمة السابقة للإسلام في أغلب بلاد الإسلام؛ فظهرت الفرعونية والبابلية والفينيقية والزنجية والبربرية، وحاول أن يجعل لهذه الدعوات المنهارة لغة وتاريخاً وثقافة للقضاء على الإسلام ووحدته.

وخضعت الأقطار للقُوى التي احتلّتها وثقافتِها، فاستعلَتْ الثقافة الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب، والإنكليزية في مصر والسودان والعراق، واتّسع نطاق اللغتَين الفرنسية والإنكليزية، بحيث حجبتا اللغة العربية، في التعليم والثقافة؛ وفي كل قطر إسلامي عمد النفوذ الأجنبي إلى حجب اللغة العربية (لغة القرآن) وإعلاء لغته هو وإعلاء العاميّات، وذلك ضمن خطة الحرب على الإسلام.

ومع أنّ التجربة الغربية التي امتدّت أكثر من قرن ونصف قرن في بلاد الإسلام قد أثبتت فشلها وعجزها عن العطاء، فإنَّ قيود التعامل

الاقتصادي والسياسي مع الغرب ما زالت تفرض النظام الربوي، والسيطرة الثقافية والقانون الوضعي، في محاولة لاحتواء المجتمعات الإسلامية، وبذلك تركَّزت العلمانية في أرض الإسلام.

ولقد اقتحمت التجربة الماركسية بعض البلاد الإسلامية، وكشفت عن فشلها وعجزها، وبقيت مقدَّرات الأمّة الإسلامية كلّها في يد النفوذ الغربي، وفي مقدِّمتها البترول، فضلاً عن الفوائض المالية المودَعة الآن في مصارف الغرب.

ومن خلال هذه المرحلة ظهرت مخطّطات الانقلابات العسكرية في البلاد العربية والإسلامية، فحملَتْ معها نظام السيطرة الفردية والولاء الماركسي، وكانت في أغلبها خادمة للنفوذ الأجنبي، وعلى ولاءٍ مع الصهيونية، أو لم تكن قادرة على مواجهة النفوذ الصهيوني، بل وجّهت شعوبها للعمل الداخلي، حتى تقضي على خطّة مقاومة الاستعمار الوافد.

ولما ظهرت اليقظة الإسلامية، وعملت على تصحيح المفاهيم والعودة إلى المنابع ضربتْها الأنظمة العسكرية، ونشأت أحزاب معارضة تعاونت مع القوى الكبرى والصهيونية، وقد بدأت أعمال كثيرة في إطار الإسلام، غير أنَّ النفوذ الغربي استطاع احتواءها (فتح - تحرير الجزائر - العاشر من رمضان) وما زالت مرحلة النفوذ الأجنبي ممتدَّة.

* * *

ثانياً - الحملة الفرنسية:

١ - بعد سيطرة المسلمين على القسطنطينية بدأ الغرب يوسّع دائرة مؤامراته على أرض الإسلام في مخطَّط جديد خطير، وكان المسلمون قد بدؤوا نهضة جديدة نحو إحياء الإسلام في مفهومه الصحيح، وإحياء اللغة العربية الفصحى، باعتبارها لغة القرآن، وكانت وراء الغرب تجربة الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمتهم، فكان لا بد من مخطَّط جديد،

كان ذلك هو تطويق عالم الإسلام من خارجه، من الهند وأندونيسيا. وكان الغرب يهدف إلى عدَّة أمور:

أولاً: تحطيم هذه النهضة الجديدة باحتوائها.

ثانياً: السيطرة على التراث الفكري الإسلامي كلّه وجَلْبه إلى الغرب.

ثالثاً: ضرب مقوِّمات الإسلام بإشاعة الشبهات حول القرآن والسنة واللغة العربية والتاريخ.

ومن هنا كانت حملة نابليون أولاً على مصر، والسيطرة الفكرية عليها، ثم توجيه محمد علي إلى هدم دعوة التوحيد في قلب الجزيرة.

وكانوا قد أرسلوا أتباعهم يدرسون سواحل الجزيرة العربية الشرقية وتولَّت تركيا وتخومها في نفس الوقت؛ لتطويق اليقظة.

ولم يمرّ أكثر من أربعة قرون على فتح القسطنطينية حتى كانت رسالة التحريض التي كتبها الفيلسوف ليبنتز ـ (المتوفى ١٧١٦) ـ عام ١٦٧٢م إلى بلاط لويس الرابع عشر يحرّضه على السيطرة على مصر.

« إنكم تضمنون بذلك بسْط سلطان فرنسا وسيادتها على بلاد المشرق أي دار السلام إلى ما شاء الله، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقّون ثناءها، وهناك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم ».

ولقد ظل تقرير لينتز منبّهاً لسياسة فرنسا إلى غزو دار الإسلام في مصر حتى جاء نابليون.

٢ ـ وقد جاء نابليون بالحملة الفرنسية إلى مصر لتحقيق عدد من الأغراض:

الأول: جاء انتقاماً لهزيمة لويس التاسع في المنصورة. وكان حرصه الشديد على تصفية الشباب المسلم المثقَّف من طلبة الأزهر، إيماناً

بمبدأ القضاء على اليقظة الإسلامية، التي ابتَعَثها علماء المسلمين من أمثال الجبرتي الكبير، ومحمد بن عبد الوهاب، والشوكاني والبغدادي والزبيدي.

وقد جاء الفرنسيون لينتقموا لهزيمةٍ مرَّ عليها خمسة قرون، ولذلك كان الهدف الأساسي إدخال الخيل إلى الأزهر وتعطيله.

الثاني : إنَّ ما ادَّعاه علماء الثورة الفرنسية من دعاوى هي ملتقطات جمعوها لتؤيد وجهة نظرهم، وانتقوها من كتابات الجبرتي، بينما تجاهلوا عدداً من الحقائق التي أشار إليها وكشف بها عن حقدهم وكراهيتهم للإسلام.

فقد كتب الجبرتي عن الحملة الفرنسية ما يزيد على الألفي صفحة، حوَّلها العلماء الفرنسيون إلى مئتي صفحة بتحريف واضح، ليستنتجوا منها بعض الأكاذيب، فقد تحدّث الجبرتي عن النهب الفرنسي والسلب والحرق والاغتصاب مما أغفله الفرنسيون.

والحقيقة أن قومنا عرفوا الحرية قبل وصول الحملة الفرنسية بكثير، فقد علَّمها لهم الإسلام، وقد كتبوا مع الأمراء وثيقة حقوق الإنسان قبل أن تعرفها أوروبا، وآية ذلك أنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الغزو الفرنسي، بل قاوموه مقاومة شديدة، ورفض علماؤهم طَيْلَسَان نابليون، وداسوه بالأقدام، ولم يكن شعبُنا المسلم في حاجة إلى من يعلّمه الوطنية والحرية، التي تكشف عنها مواقفه المشرقة مع لويس التاسع والتتار والصليبيين؛ من صفحات فخار شاهدة، وقد تأكّد لنابليون منذ اليوم الأول شدة مِرَاس علماء المسلمين وثقهم بهزيمته، ثم لم يلبث أن أعلن عجزه، فهرب سراً وترك جنده يتصرَّفون.

ثالثاً : كان من أكبر أهدافهم الحصول على التراث الإسلامي، وقد حملوا معهم منه كميّات ضخمة، بل إنَّ وثيقة الصلح التي وقّعت معهم

سمحت لهم بأن يأخذوا كل ما نهبوه من التراث الإسلامي، وقد بلغ قدراً كبيراً، وكان له أثره الخطير على نهضة الغرب.

والحقيقة أنَّ بلادنا كانت على نهضة حقيقية قبل وصول الحملة الفرنسية، وقد جاءت هذه الحملة لهدمها، وهدم مصدرها الأساسي وهو الأزهر الشريف، وقد حاول نابليون أن يستميل المشايخ من رجال الأزهر كي يستجيبوا له، فلما رأى امتناعهم عجل فأطلق جنوده الغزاة، ليطفئوا ما استقر في قلوبهم من نار الأحقاد المتوارَثة على دار الإسلام، وقد سجّل الجبرتي كيف أنهم دنَّسوا الجامع الأزهر، ودخلوه راكبين الخيول، وتفرّقوا بصحْنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، ودشّتوا خزائن الطلبة، وشقّوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها وبنعالهم داسوها.

وكان أكبر همّهم السَطْو على كتب علوم الحضارة وكتب التاريخ والأدب، كلّها بدون تمييز.

وكانت النهضة قد بدأت في ركاب الجبرتي الكبير والبغدادي والزبيدي، وكان هدف الحملة سرقة الكتب النفيسة، وَوَأْدَ هذه النهضة في شخص طلاب الأزهر النوابغ الذين كانوا يُقتلون يومياً، حيث كان يُقتل في كل يوم خمسة أو ستة، ويؤمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة، وقد كان هؤلاء الطلاب الأزهريين من النابهين، وكانوا من المحرِّضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة دار الإسلام.

بل لقد كشفت الوثائق مؤامرتهم في محاولة إنشاء حزب لهم في مصر يجمع خمسمئة شاب، وبنقلهم إلى فرنسا لتدجينهم، حيث يلقّنون كيف يحتقرون بلادهم ودينهم؛ فضلاً عن دعوته إلى استقدام جوقة تمثيلية، قال بالنص: «إنها ضرورة للبدء في تغيير تقاليد البلاد»، ولقد ثبت المصريون لهذه الحملة حتى خرجَتْ تجرُّ أذيال الخزي والعار، ولم

تحقق أهدافها، فقد كان المصريون يقولون: إن الفرنسيين ليسوا إلا ورَثة الفرنجة الذين هُـزموا في المنصـورة، فلم يخلّفـوا إلا مزيداً من الكراهيـة للنفـوذ الأجنبي.

* * *

ولقد قضى نابليون بحملته الصليبية التي غزت مصر على أكبر قوة مقاتلة في دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة، وكان يطمع في أن يبقى في مصر إلى الأبد، وقد مضى يخرِّب القرى وينهبها ويبيد أهلها.

وكان قد أحضر معه جماعة من المستشرقين والمبشِّرين الفرنسيين المتعصبين الحاقدين على الإسلام، ليضعوا خطوط احتواءِ مصـرَ والسيطرة عليها وتغريبها.

وقد كشف نابليون في رسالة إلى خلفه (مينو) ما يوحي بالهدف الذي كان يطمع في تحقيقه، وهو إرسال شباب مسلم إلى فرنسا، ليكون ركيزة النفوذ الفرنسي في مصر بعد عودته، مما يغيّـر تقاليد البلاد.

وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ دعاوى خصوم الإسلام بأنَّ الحملة الفرنسية كانت عامل نهضة وتقدُّم وتجديد هو قول باطل وزائف، بل هي التي فتحت الباب واسعاً أمام الغزو الفكري، واحتواء اليقظة الإسلامية، والقضاء على نفوذ الأزهر الذي كان يحمل لواء هذه اليقظة، وهو ما حدث بعد ذلك في عصر محمد علي، الذي كان امتداداً للنفوذ الغربي والفرنسي بالذات، من حيث تحقيق كلّ الأهداف التي جاء من أجلها.

فقد عمل محمد علي على تفريق كلمة علماء الإسلام، وأوقع بينهم الخلاف، وأغراهم بالمغريات، حتى أصبحت الدنيا أكبر همّهم، وعمل على تجميد الأزهر بإنشاء المدارس المدنية المنفصلة في منهجها عن الإسلام، والتي تستمدُّ مفاهيمها من الكتب الغربية العلمانية، والتي تجري في نفس الوقت مع الاتجاه الإقليمي المنفصل عن الوحدة الإسلامية

الجامعة التي تمثّلها دولة الخلافة.

بل لقد حقّق محمد علي هدف نابليون في استقدام المصريين في بعثات إلى فرنسا، ممن لم يكونوا قد تحصّنوا بالمحاذير مخافة احتواء الاستشراق لهم في أوروبا.

٣ ـ وهكذا فقد حمل علماء نابليون معهم إلى الشرق فِكر الثورة الفرنسية، التي كانت قد انطلقت أساساً من نقطة إنكار الدين جُملة، وهو الفكر الذي بلّد عقلية أوروبا كلّها في القرنين السابع عشر والثامن عشر، القائم على تأسيس مبدأ دنيوي خالص تحت اسم (التنوير) والذي لم يكن له تفسير إلا بالإلحاد.

جاء نابليون إلى العالم الإسلامي يحمل مَبْدأ التقدُّم في صورة التبعية للمادّية الغربية، وجاء محمد علي امتداداً لنابليون، فقد احتَضن مبادئ (العلمانية) التي أرساها نابليون، ومكّن لها بعد أن قـوَّض سلطة الأزهر، وعزَلَ الشيخ (عمر مكرم) ونفاه، وأضْعَف نفوذ العلماء بعد أن سيطر عليهم بالعطايا، وكانت حروب محمد علي في مواجهة حركة التوحيد (التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب) تحقيقاً للتخطيط الذي رسمه المستشرق الفرنسي الكونت فولني، والذي كان ينادي بأنَّ السيطرة في الشرق لا تتمّ إلا بعد الاستيلاء على مصر والشام، وتحطيم الخلافة العثمانية[١].

وفي ظلّ نظام محمد علي نشأ التغريب على يد رفاعة الطهطاوي، يقول محمود محمد شاكر: «إنه كان صيداً سميناً تلقّفه المسيو جومار بخبرته وحنكته، وحين أسْلَمه لطائفة من المستشرقين على رأسهم أحد دهاقين الاستشراق الكبار، وهو سلفتر دي ساس، وقد استغلّوه أبرع استغلال وصبّوا في أذنيه وطرحوا في قرارة قلبه معاني وأفكار قد بيّتوها ودرسوها، وعرفوا عواقبها وثمراتها، فأحدث رفاعة صَدْعاً مُبِيْناً في ثقافة

---

(١) بتصرُّف عن بحث محمود محمد شاكر.

الأمّة، وقسَمها إلى شطرين؛ الأزهر في ناحية ومدرسة الألسن في ناحية، (أنشأ مدرسة الألسن التي تدرّسُ فيها آداب اللغات الأجنبية والشرائع الأجنبية، وكانت تضمّ مئة وخمسين تلميذاً، كان رفاعه يختارهم من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر).

وكذلك حقّق رفاعة للمستشرقين أهمَّ ما يتوقون إليه؛ من وَأْد اليقظة التي كان الأزهر مركزها منذ عهد البغدادي والزبيدي والجبرتي الكبير، وذلك في وقت كان محمد علي يحطّم أجنحةَ الأزهر، ويضعهُ في قفصٍ لا يستطيع الإفلات منه، ويدبّر له مكيدة لإسقاط هيبته، ويعزل أهله عن جمهور الأمّة.

ومن ثمّ تعاظم رفاعة الطهطاوي، وصار الأزهر يرسف في أصفاده، لا يدخله إلا أبناء الفقراء المساكين، ونازَعَه تعليم الأمة: المدارس الجديدة التي وضع أساسها رفاعة الطهطاوي في مدارس الألسن، وانشطر تعليم الأمة شطرين، ونَمَتْ هذه المدارس وتكاثرت، يدخلها أبناء الموسرين والمسؤولين، وجعلت الهوّة بين الأزهر والمدارس تتّسع، والمناهج تتباين.

وكان هذا هو نفس مشروع نابليون الذي عهِد به إلى خَلَفِه (مينو)، وطوّره جومار، وتمّ بذلك البلاء الساحق.

وكان الهدف واضحاً:

القضاء على الأزهر، القضاء على الوهَّابية، إرسال البعثات إلى أوروبا، تكوين حزب للفرنسيين في مصر؛ وهو ما تحقّق وما زال إلى اليوم.

٢ ـ الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية:

في اللحظة الأولى لمقدم الحملة الفرنسية إلى مصر وضح أنها استهدفت ضرب الخلافة العثمانية؛ كدولة كانت تمثّل في ذلك الوقت سدّاً

منيعاً في وجه المدّ الأوروبي، حيث امتدّت من البلقان إلى آسيا الصغرى، إلى سواحل بلاد الشام، إلى الساحل الشمالي لأفريقيا، وحتى حدود إسبانيا؛ في شبه حلقة تحيط بدول أوروبا بين الشرق والجنوب.

لقد توخّت الحملة أهدافاً لم تكن معروفة في تاريخ الحروب حتى ذلك الوقت، فهي لم تقصد تحطيم القوّة العسكرية المعادية، أو اكتساب أرض جديدة فحسب، وإنما استهدفت تغيير الواقع السياسي والاجتماعي القائم في ظلّ الخلافة العثمانية بحصر ما كان يمثّله من أعراف وتقاليد وقيَم وزعامات، وإحلال واقع سياسي واجتماعي جديد، ولذلك صحبت الحملة معها مجموعة من المستشرقين والمبشِّرين تحت اسم العلماء، وكذلك مجموعة من الفنّانين الذين بلغ عددهم (١٤٦) عضواً، مجهَّزين بأحدث آلات المطابع وغيرها، كما ضمّت طائفة كبيرة من النساء كان لها أثرها في خلْق القدوة، وتجسيد المثل وفتح باب التقليد أمام النساء في مصر، للتحوّل تجاه أسلوب الحياة الغربية.

وقد أشار الجبرتي إلى الأثر الذي أحدثته النساء المصاحبات للحملة من تغيير بعض العادات والتقاليد بصورة خطرة، وهو ما يدلُّ على طبيعة الحملة من حيث أنها غزوة فكريّة.

إنَّ الحملة قد اتجهت منذ اللحظة الأولى للغزو إلى ضرب المماليك كأفراد وكنظام، باعتبارهم يمثّلون واجهة حكم الخلافة في المجال الإداري والعسكري، ومن هنا كان منشور نابليون الذي طبعه على ظهر السفينة (أوربان) طافحاً بالحقد على المماليك، مُكِيْلاً لهم شتَّى التُّهم، متخَّذاً منهم واجهة للعداء والسبب الظاهر للحملة، ولأن المماليك كانوا القوّة المؤثِّرة الوحيدة التي استمـرَّت على الساحة طوال ثلاث سنوات ـ وهي عمر الحملة ـ تقود أعمال المقاومة لجيش الغزو، فقد استحقّوا منه الردّ على الافتراءات المنصبّة عليهم بادّعاء أنهم طبقة مكروهة

من الشعب، وكانوا قد استخدموا حرب العصابات في مقاومة الحملة، وتفتيت قوّات نابليون».

* * *

ثالثاً ـ السيطرة على العالم الإسلامي:

١ ـ يقول ولستون تشرشل في كتاب (حرب النهر):

«لقد عرفنا مدى اهتمام المسلمين بكتابهم القرآن على نحو من الصعب صرفهم عن ذلك، لذلك فإن علينا العمل على تغيير ذلك؛ باحتضان أمثال غلام الدين القادياني ودعوته إلى إلغاء الجهاد».

٢ ـ ثورة المسلمين الهنود:

لما قام المسلمين الهنود بثورتهم الكبرى ضد شركة الهند الشرقية (١٨٥٧م) انتهت الثورة باستئصال الحكم المغولي، والقضاء على الحكومة الإسلامية، واستيلاء الإنجليز على البلاد.

وكان من أوّل أعمالهم محاربة الإسلام والمسلمين، فقتلوا الألوف المؤلّفة من خيرة علماء المسلمين المجاهدين، قاومهم الشيخ (رَحْمَةُ الله الهندي) أشدَّ المقاومة، ولـمَّا انهزم المجاهدون المسلمون فرَّ الشيخ رَحْمَهُ الله إلى مكة المكرمة.

وقد عَمدَ الإنجليز في الهند إلى تسليم الأرض إلى الهنادك الذين اتجهوا بدورهم إلى الانتقام من المسلمين تحت ستار تكوين حزب المؤتمر بإشعال حميّة وطنية، حيث بدأ الهنادك في نشر مطبوعاتهم التي تحمل أفكاراً معادية للإسلام، وكانت فكرة حزب المؤتمر قائمة أصلاً على إحياء العقيدة والثقافة الهندوكية؛ ولم يتنبَّه المسلمون إلى هذه الحقيقة.

٣ ـ معاهدة سيفر بتاريخ ١٠/ ٨/ ١٩٢٠ :

التي عقدت بين الحلفاء وتركيا :

١ ـ أن يُعْهد بإدارة فلسطين عملاً بالمادة (١٢) من ميثاق عصبة الأمم إلى دولة منتدَبة .

٢ ـ أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ وعد بلفور، الذي صدر من الحكومة البريطانية في ١٢/ ١١/ ١٩١٧ وأقرّته دول الحلفاء فيما بعد .

٤ ـ الأمير عبد القادر الجزائري :

حارب الفرنسيين سبعة عشر عاماً، وخانَهُ جيرانُه، فقد أرسل باي تونس ابنَيه تحت سلطة فرنسا ولمساعدة فرنسا، أمّا السلطان عبد الرحمن سلطان المغرب الأقصى فقد كان لفرنسا المساعد الأول، إذ بعث بابنيه على رأس الجيش المغربي لمحاربة الأمير عبد القادر، وكان ذلك بمثابة الضربة القاضية التي اضطـرَّت الأمير إلى أن يستسلم لفرنسا، ويسلِّم سلاحه إذ وجَد نفسه محصوراً من جهات خمسة متواطئة عليه :

١ ـ خونة عين ماضي في الجزائر .

٢ ـ سلطان المغرب .

٣ ـ باي تونس .

٤ ـ علماء المسلمين من بلدان شتّى، الذين أرسلوا بفتاويهم ضدَّه .

٥ ـ وفرنسا نفسها .

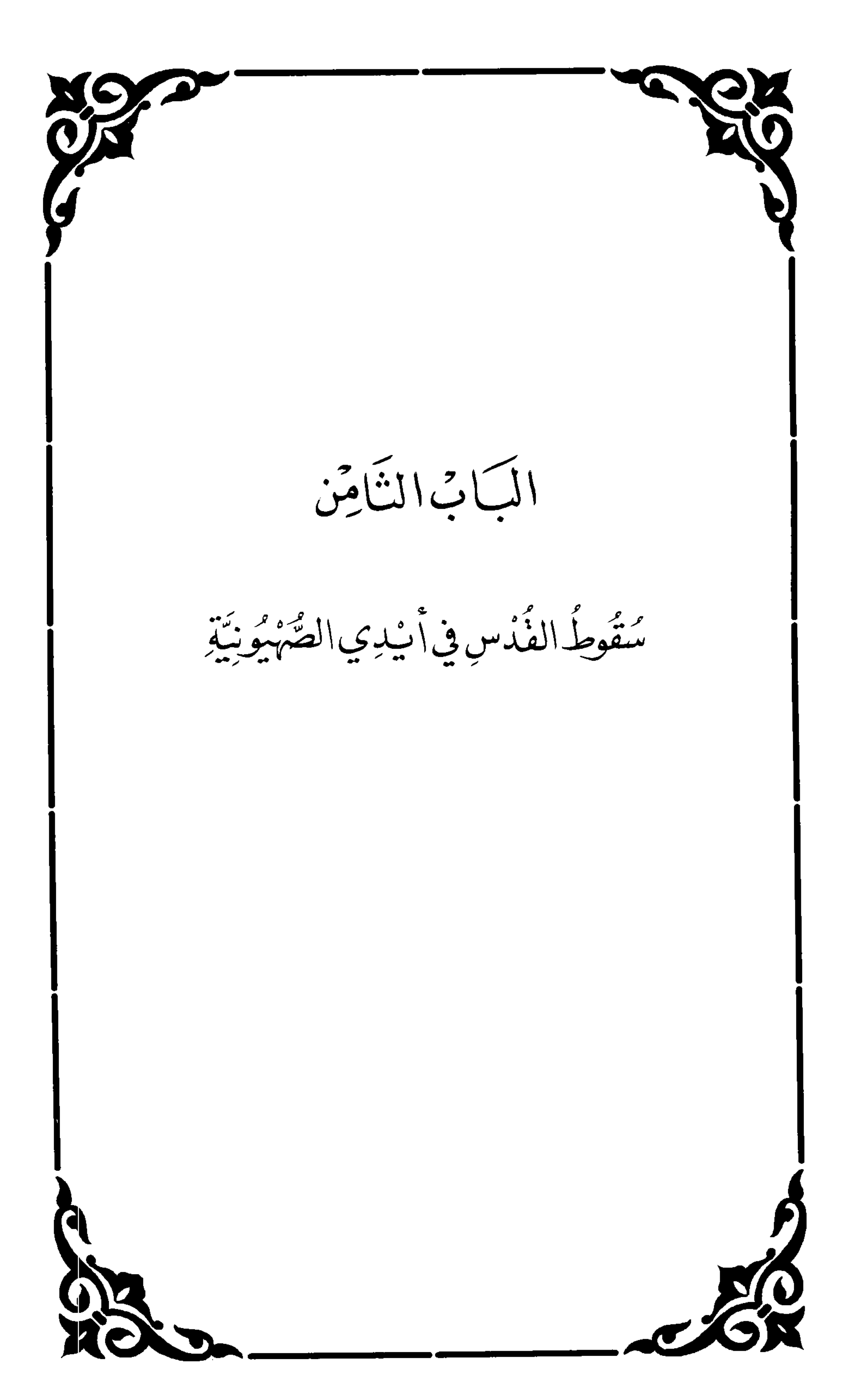
كل هذا أثَّر في نفسية الأمير عبد القادر حتى يئس وقنط .

وكان الأمر مسانداً من المغرب في الأول، ولكن عندما ضغطت فرنسا على السلطان عبد الرحمن، كلَّف ابنيه بمضايقة الأمير، وهما

اللذان طُردا من المغرب، وهكذا نجد الأمير عبد القادر الذي قاد الكفاح وهو في الواحدة والعشرين، وأقام في قيادة المعارك طيلة خمس عشرة سنة.. اضطرَّ إلى الاستسلام، فأسلم سيفه وبقي في فرنسا حتى أُرسل إلى دمشق[1].

* * *

(١) مولود قاسم.



البَابُ الثَامِنُ

سُقُوطُ القُدْسِ فِي أيْدِي الصُّهْيُونِيَّةِ



سُقُوطُ القُدْسِ في أيْدِي الصَّهْيُونِيَّةِ

(١)

كان احتلال بيت المقدس مَطْمَحاً غالياً من مطامح الصهيونية العالمية بهدف تحقيق نبوءة إعادة بناء هيكل سليمان، مكان المسجد الأقصى.

ومنذ اليوم الأول من وعد بلفور (١٩١٧م) وعندما سيطر اليهود على أجزاء من فلسطين (١٩٤٧م) كان حلم احتلال القدس قائماً، حتى تحقَّق - إلى حين - في (٥ يونيو ١٩٦٧م) وقد تشكَّلت هذه الفكرة أساساً منذ كان اليهود محاصَـرين في منفى بابل، كردٍّ فعل نفسي للهزيمة الساحقة التي دمَّرت وجودهم كلّه، نتيجةَ ظلمهم وخروجهم على الشريعة، ومنذ تطلّع اليهود إلى الانقضاض على فلسطين وإخراج أهلها بالقوّة بعد إقامتهم في وطنهم منذ آلاف السنين.

وقد تبيّـن أن الصهيونية حركة عنصرية، قامت على دعاوى وأساطير مستمدّة من تراث قديم، شهد له المؤرِّخون في مختلف القارات بالزيف والخداع.

يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه:

«إنَّ من أهمّ الأكاذيب العلمية التي أوضحتها الاكتشافات: توصل الخبراء إلى أنَّ الكثير مما أوردتْهُ التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم، وُجِدَ مثاله أو ما يشابهه في المدوَّنات الأثرية، وأنَّ شرائع

التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل، وقد اقتبسها اليهود منهم، ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدّسة».
وقال: «إنَّ التوراة الحاليّة كتبها اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، أي بعد عهد موسى بثمانية قرون.

وقال الأستاذ فارس الخوري في دفاعه عن فلسطين العربية الإسلامية في هيئة الأمم: «إنه لا بدَّ من قراءة العهد القديم، ودراسة ما أدخلَهُ اليهودُ من تزييف لمصلحتهم، إن أردنا أن يكون هناك مدخل طبيعي لمسيحيي العالم، فكلّ ما هنالك من قصص أدخلها اليهـود على مدى التاريخ».

ومن النقاط الجديرة بالبحث:

ـ دعاوى وعْد الله تبارك تعالى إبراهيم، وتَحَيُّزهم في قَصْرِهِ على ابنه إسحاق دون إسماعيل، بدعوى أن إسماعيل ابن جارية.

ـ دعوى أن إبراهيم وإسماعيل لم يذهبا إلى جزيرة العرب... إلخ.

وقد كان طموح اليهود إلى إعادة بناء الهيكل مقدمة لإقامة حكومة عالمية في القدس (أورشليم) وقد رتَّبوا في سبيل تحقيق ذلك خُططاً جريئة ترمي إلى القضاء على كل القوميات والأوطان والأديان، وإثارة الخلافات بين أهل الدين الواحد (ما عدا اليهود)، والسيطرة على الصحافة والحكم والمدرسة، والاستعانة بالأقليَّات المتناثرة في العالم، وخاصة تلك المتناثرة في العالم الإسلامي، لتحقيق الهدف وإسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق المسيحيّة، واحتواء الإسلام والمسيحية، حتى يصبح العالم لخدمة هذا الهدف؛ وهذا ما أطلق عليه بروتوكولات صهيون، وقد كانت بريطانيا هي التي أصدرت وعد بلفور، وساعدت على تقسيم فلسطين، ثم تحولت الولاية الآن للولايات المتحدة.

* * *

ويرى الباحثون أنَّ إسرائيل لم تولد في وعد بلفور (١٩١٧م) ولم تولد في المشروع الصهيوني، ولكنها ولدت قبل ذلك في المشروع الاستعماري الأوروبي الكبير الذي ظهر خلال المؤامرة على الدولة العثمانية.

فعندما انتقلت أوروبا إلى شرقي البحر الأبيض وقناة السويس، وكانت كل دولة أوروبية قويّة تبحث عن أقلّية دينية في الشرق تتزعّم حمايتها أو تفرضها لتبرير نفوذها في الشرق.

فروسيا القيصرية ادّعت أنها حامية الطائفة الأرثوذكسية، لأنها ابنة هذه الكنيسة، وفرنسا ادّعت أنها ابنة الكنيسة الكاثوليكية، وقد بحثت عن الطائفة المارونية الكاثوليكية في لبنان، ووجدت إنكلترا ضالّتها في الطائفة اليهودية.

وقد كتب لامرتين في كتابه (رحلة الشرق) : «إنَّ على الغرب قبل أن يطبع أقدامه في الشرق، أن يفكر في انتقاء أقلية تكون قريبة من أفكاره ومبادئه حتى يعتمد عليها، حتى يحين الوقت ليغادر الشرق، وحتى تبقى هذه الأقلّية مُـخْلِصَة لمبادئه، وتظل جسراً ثابتاً لأفكاره».

ومعنى هذا أن نعود إلى قبل وعد بلفور والمؤتمر الصهيوني في بال (١٨٩٧م) فقد ولد المشروع الصهيوني على يد بالمرستون ودزرائيلي من ساسة بريطانيا قبل أن يتسلّمه هرتزل أو حتى يفكر فيه، وكان مبرِّر المشروع يوم وصل محمد علي إلى أبواب الأستانة، فإذاً لو قامت دولة قوية في المشرق ماذا يكون الأمر؟.

وهناك فكرة إقامة الحائط البشري بين آسيا وأفريقيا، وهو الأصل الذي سبق الدعوة الصهيونية؛ لأن أوروبا لم تكن تسمح بظهور مُزَاحِم جديد لها في مصر بالذات.

فقد كانت فكرة حماية الأقليات الشرقية وإقامة حاجز بشري أو سدّ

بشري يمنع قيام دولة عربية قوية هي المصدر الأوّل لتلك المشاريع التي ظهرت أثناء النزاع المصري العثماني خلال أيام محمد علي، وكان مخطط السيطرة على فلسطين الذي وضعه أيدز ـ جابونسكي ـ حاييم أرلوسورون يقوم على النهب والعدوان، وتدمير أهالي فلسطين أساساً لاحتلال جنس آخر، يجري تهجيره من مختلف بلاد أوروبا تحت اسم الصهيونية، لتحقيق أغلبية في وطن عربي، مع تدمير أهله وإخراجهم، ويقول جابونسكي: «لا بد من غلبة العنصر اليهودي حتى يأتي الوقت الذي يتوافر له العدد الكافي، وأن يكون ليهود فلسطين حق حمل السلاح، ومنْع السلاح عن العرب».

فالصهيونية ترى أن الشعب الفلسطيني صاحب الأرض شعب ليس له لزوم، وشعبٌ يزيد عن الحاجة، ولابدّ من إقصائه وإبعاده وإفنائه وطرده من الأرض، وهو مفهوم فاسدٌ خطير؛ إذ كيف يصل المنطق أو المنطق الحقيقي للأمم والحضارات أن يطرد أهل وطن هم مرتبطون به من آلاف السنين، لإدخال حُثالات مهاجرة من عديد من أوطان غريبة، وفي ظلّ ظروف حمايتهم من قتلهم، كما حدث في هجرة اليهود بعد مقتل اسكندر الثاني قيصر روسيا.

وقد تخلّصَتْ أوروبا من اليهود حين قبلتْ بمشروع (وعد بلفور) لِتَهْجِيرهم إلى فلسطين، ونَفَضت يدها من صراعهم، وفتحت باب الصراع بين اليهود العرب، ودخل اليهود فلسطين بالحيلة والخداع تحت اسم الأرض المقدّسة، التي كانوا يقيمون فيها منذ آلاف السنين، وأعانتهم على ذلك بعض النصوص في الكتب المقدسة ـ اعتنقها البروتستانت الذين كانوا سكّان أمريكا، وهذا سرّ تأييدهم لإسرائيل.

لقد ادَّعى اليهود أنهم اضطُهدوا، وهم الآن يضطهِدون الفلسطينيين. وكانت المسألة في بدايتها إقامة المضطرّ، ثم أصبحت عدواناً واغتصاباً.

وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً اليوم هل تبيَّـن أنَّ إسرائيل هي الحلّ الصحيح لمسألة اليهود، أو هي الحلّ الأمثل للمشكلة اليهودية، وهل هي حقاً واجهة للديمقراطية وجنّة للإبداع؟.

وهل يمكن أن تقوم دولة على أساس تشريد شعب كامل؟.

لقد ظنّ اليهود أنّ أزمَتهم تعطيهم الحق في الاستيلاء على فلسطين، ولكن فلسطين لم تكن جزيرة مجهولة في انتظار مَن يكتشفُها، وإنما كانت وطناً آهلاً مسكوناً له أصحابه ودوره، وتكذيب الحقائق من ادّعى أنه وطن بلا شعب.

ولقد كان اليهود قد انصهروا منذ مئات السنين في البلاد التي عاشوا فيها، وليس صحيحاً أن اليهود شعب بالمعنى الحقيقي، وأنهم لا وطن لهم، فهم مواطنون في المجتمعات المختلفة التي اندمجوا فيها.

* * *

(٢)

جاء القضاء على الخلافة الإسلامية نتيجة خطَّة صليبية يهودية، بدأت عشيَّة انتهاء الحروب الصليبية (٦٩٠هـ) كما يقول أحد مؤرِّخيهم (ديجوفارا) الذي ذكر أن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوروبيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد الذي شنّتْه النصرانية على الإسلام، بدعوى أنه سيطر على بعض المناطق التي كانت في أيدي الرومان قبل الإسلام، وهي دعوى باطلة، لأن هذه المناطق من الشام إلى مصر إلى أفريقيا كانت قد وسّدت منذ مئات السنين بموجات عربية خرجَتْ من الجزيرة العربية، واستقرّت في هذه المناطق، ومن هنا كانت الخطّة التي رُسِمَت بين الكنيسة واليهود مكوَّنة من عدّة عناصر، أهمها إلغاء الخلافة، وتحويل تركيا إلى دولة علمانية، وإلغاء الشريعة الإسلامية.

وقد بدأت الخطّة بعدّة اتفاقيات:

أولاً) الاتفاق الودّي بين فرنسا وإنجلترا (١٩٠٤م).

ثانياً) اتفاقية سايكس بيكو التي أُعلنت (١٩١٧م).

وهما بمثابة اتفاق متمّم للاتفاق الرئيسي الذي تمَّ بين الدول الثلاث (إنجلترا ـ فرنسا ـ روسيا)، والذي يقضي بتقسيم الدولة العثمانية الإسلامية وتوزيع (سوريّة، ولبنان، وفلسطين، والعراق، ومصر، والمغرب العربي) فيما بينها، وقد بقيت هذه الاتفاقية سرّية لم يسمع عنها المسلمون حتى أعلنها الشيوعيون في روسيا عام (١٩١٧م).

وكان اليهود وراء المخطَّط كلِّه بهدف إقامة إمبراطورية الربا، وهكذا أُخرج اليهود من أوروبا ليكونوا قذى في عيون المسلمين.

وكان من تخطيط الصهيونية الطامعة في السيطرة على العالم العمل على وضع الأمة الإسلامية بين فكّي الكمّاشة، في معسكرين مُتَضاربين: الرأسمالية والماركسيّة، من خلال مفهوم العلمانية وإنكار الألوهية والنبوّة والغيب واليوم الآخر والجزاء الأخروي، وإغراق المجتمعات الإسلامية بأدوات الانحلال ممثَّلة في الفكر الأسطوري والإباحي والمادي، ودفْعه إلى مجتمع الاستهلاك، هذا كله جزء من خطّة فرْض النظام الربوي على العالم كلّه (كما ترسم بروتوكولات صهيون).

واليهود هم الذين حملوا لواء الفصل بين الدين والدولة، وقدَّموا عقيدتَين خطيرتين هما: الغريزة الجنسية والصراع الطبقي (فرويد وماركس) وقد تبيّن أن مَقُولة: «إنَّ مفتاح الشخصية الإنسانية هي الغريزة الجنسية» ليس أقل سذاجة من القول: «بأنَّ مفتاح حركة التاريخ هي الصراع الطبقي»، وقد حاولت الماسونية بمنهجها المسموم الذي وُضع بعد ذلك في قالب نظريات علمية هي الفرويدية والماركسية والوجوديّة والداروينية، والتركيز على مقولة واحدة: هي أنَّ الدين هو سبب تخلُّف المسلمين.

ولقد تبيّن اليوم بوضوح أنَّ هذا الحصار الشيوعي الصهيوني الغربي هو الذي استطاع أن يسيطر على فلسطين وبيت المقدس، بمؤامرة قامت بها القوى الكبرى، لفرض عنصر غريب في قلب الوطن الإسلامي، للحيلولة بينه وبين امتلاك إرادته أو قيادة الحضارة العالمية بعد أن ظهرت علائم انهيار الحضارة الغربية وقرب سقوطها، فظلّت قضية الصهيونية واليهود واحتلال فلسطين، وتسخير كل القوى في دفع الهجرة اليهودية من مختلف أنحاء العالم إلى فلسطين، في سبيل إنشاء إمبراطورية يهودية من النيل إلى الفرات؛ هي الشغل الشاغل الذي سيطر على كل قضايا الفكر والثقافة، في محاولة خطيرة استهدفت احتواء الفكر الإسلامي بالتغريب والغزو الثقافي، واحتوائه وتزييف قيمه ومفاهيمه لإخراجه من خصوصيّة الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وفرض مفاهيم الحضارة الغربية والفكر الغربي القائمة على الفلسفات المادية والإباحية والوثنية (من مُخلّفات علم الأصنام اليوناني إلى المجوسية والباطنية جميعاً) للتحلُّل من كل القيم، والاستعلاء على البعدَين الأساسيين لكل حضارة وكل مجتمع أصيل، وهما البعد الربّاني والبعد الأخلاقي قاعدة الحضارات الإنسانية، ولذلك فقد كان الشغل الشاغل لجيلنا الذي تسلّم ميراث الدعوة الإسلامية من الأبرار الذين خَطَوا بها حتى أوصلوها إلينا هو:

أولاً: دَحْض شبهات الفكر الغربي المعاصر، وكشف خفايا المؤامرة الصهيونية الغربية الممتدّة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اليوم في صُور متعدِّدة مختلفة.

ثانياً: إقامة الثوابت لبناء البدائل الإسلامية، والتأصيل الإسلامي لكل المقوِّمات والقيم، حتى يكون ذلك عاملاً أساسياً قادراً على بناء قاعدة التغيير التي تحقّق تمكين المسلمين من امتلاك إرادتهم وفرض وجودهم في مجتمعهم، والتحرُّر من التبعيّة، وتحطيم الحصار الذي تفرضه الماركسية والليبراليّة والصهيونية جميعاً، ليكون ذلك مقدمة لتبليغ

الإسلام إلى كلِّ أهل الأرض، وإدخال الناس في دين الله تبارك وتعالى مرّة أُخرى، بعد أن انصرفوا تحت تأثير مؤامرة الحضارة المنهارة.

ولا شكَّ أنه قد بات واضحاً أنّ أساس الأزمة التي يمرُّ بها العالم اليوم هو محاولة فَرض عنصر غريب على أرض الأمة الإسلامية.

ولا شك أنَّ كل ما يشهده الوطن العربي اليوم من مآسٍ وأزمات، سواء في لبنان أو أريترية أو جنوب السودان أو فلسطين المحتلَّة إنما يعود إلى شيء واحد، هو هذا العنصر الغريب الذي استطاع أن يسطير على رأس جسرٍ في قلب الأمة الإسلامية، ومعه مطامعه في التوسُّع، ومشاريعه في تفتيت وحدة الأمة، وإثارة الحزازات والصراعات بين الأديان والقوميّات، في محاولة للوصول إلى الهدف الحقيقي الذي ما زال يعمل له خلال أربعين عاماً، بالتآمر والعنف والإرهاب واحتواء العقليات والنفوس والسيطرة على المصادر القياديّة هنا وهناك، من أجل بناء هيكل سليمان وإقامة إسرائيل الكبرى، وتظهر آثار ذلك واضحة في السيطرة على المناهج التربوية والتعليمية والثقافية، بهدف إزالة روح الإسلام منها ودفعها نحو العلمانية، حتى في منهاج التعليم الإسلامي في جامعاته، وإزالة طابع العروبة والإسلام من أرض فلسطين وبلادها وقراها.

ذلك أن التاريخ يُزعج الإسرائيليين، فهم يعمدون إلى تدمير المواقع التي تحمل أثراً تاريخياً، فقد فعلوا ذلك بموقع (حطّين) الذي انتصر فيه صلاح الدين، إذ أحالوه إلى رماد.

وقد عمدوا إلى تدمير المباني ذات التاريخ وكلّ ما يدلُّ على أنَّه كانت هناك حياة عريقة قديمة وتراث (ومن ذلك بيت الدكتور قدري طوقان ـ رحمه الله وأحسن إليه ـ هذا البيت المبني من الصخر الضخم كالقلعة منذ عدَّة قرون من الزمان، ومنه مكتبة تراثيَّة نادرة، لقد دمَّر الإسرائيليّون أجزاء من هذا المنزل، وأحرقوا تلك المكتبة النادرة).

* * *

(٣)

إنَّ المحاولة كلُّها ليست حقّاً مطلوباً أو عملاً مشروعاً، ولكنّها مؤامرة ماكرة خبيثة من أَلِفها إلى يائها، تتمثَّل في جماعة حاقدة على طول التاريخ تدّعي دعوى باطلة، وتستعين لها بالقوة المسيطرة، وبالمكر والخداع والتآمر والخيانة.

لقد تأسس هذا الكيان اليهودي على أسطورة، وعلى غدر، وعلى تآمر مع الدول التي تريد استبقاء نفوذها، وكلُّها عوامل غير طبيعية لا يمكن أن تستمرّ.

ومن وراء هذا الواقع المجرم أسطورة الصهيونية، التي تقوم على بعث الماضي الميت والدعوة إلى التوسُّع وتمجيد الحرب.

إنَّ حركة الصهيونية العالمية تنبعث من الحقد القديم على الأمة الإسلامية صاحبة الأرض الغنية بالمواد الأولية، والتي أودع الله تبارك وتعالى في ثراها أكبر قدر من الطاقة والثروة.

إنَّ المجتمع الإسرائيلي مجتمع زائف متناقض، مؤلَّف من جماعات عرقيَّة ولغويّة مختلفة، لم تستطع حتى أن تصهرها بوتقة واحدة، أو أن تنتج ثقافة قومية بالمعنى الصحيح.

ولا يستطيع أحد أن يزعم وجود أُمَّة إسرائيلية، إذ أنَّ اليهود ينتمون لأصول وثقافات مختلفة، يجمعهم إحساسهم بالاستماتة في سبيل البقاء بأرضٍ ترفضهم، وهم يواجهون أصحابها ليل نهار، وأصحابها لا يتنازلون عن حقِّهم مهما بلغ بهم الضعف، ومهما ساندت القوّة باطل الصهيونية.

وإذا كانت الصهيونية قد نجحت في إنشاء الدولة اليهودية، فإنها تسبَّبت في خَلْق مشاكل تهدّد وجودها المادي والمعنوي.

إنَّ نظرية اعتبار قتل العرب أو إجلاء العربي عن مسكنه بالقوة لن تكـون أبداً قـاعدة، ولا يمكن أن تحقّق أمراً صحيحاً يستمرُّ على مدى الأجيال، إنها تمثل جريمة إبادة الجيش، وما يقوم به اليهود اليوم بالنسبة للعرب هو نحو ما جرى لهم في ألمانيا النازية؛ إنَّ اليهود اليوم في فلسطين المحتلّة شعب الشَّتات، الذي يعيش على الإعانات، وقوَّتهم قائمة على ما تقدِّمه لهم دولة حليفة، وما يجمعون من صدقات من أثرياء اليهود.

وهذا الدعم (أربعة آلاف مليون دولار) يأتي أساساً من خلال رؤوس الأموال العربية التي تتدفَّق على بنوك أمريكا؛ والشعب الذي يعيش على المعونـات والحمايـة التي تأتيـه من الخارج لا يمكنـه أن يقف على قدميه.

كذلك فإن فكرة بقاء اليهود على قاعدة امتلاك قوة عسكرية توازي قوة البلاد العربية مجتمعة أمر لا يمكن أن يستمر، ولا بدَّ أن ينهار، وأنَّ العرب الذين أُجلوا عن أرضهم لن يموتوا ولن يُستأصلوا مهما قتلهم اليهود، ولن يتراجعوا عن استعادة أرضهم وحقِّهم، كذلك فإنَّ تجمّع اليهود في فلسطين المحتلَّة ليس عامل قوّة بل هو عامل ضعْف، فسرعان ما تتغيّـر الموازين وتباد هذه العناصر، ويعود الحق إلى أصحابه.

* * *

(٤)

هذا عن الواقع، أما عن التاريخ؛ فإن الأمر يكشف عن جنسٍ لا يتوقف عن الإيذاء والتآمر على بني الإنسان.

فقد عاش في أوروبا يواجه الاضطهاد في أوروبا الشرقية، وفي فرنسا ذاتها من قبل، إن حَرْقهم أحياء على أيدي الأوروبيين في إسبانيا بعد سقوط الأندلس يعتبر من الصفحات السوداء في تاريخ الأوروبيين، الذي

كتب بأيدي مؤرِّخين أوروبيين، بعد أن عاش اليهود في الأندلس جنباً إلى جنب مع العرب تحت حكم المسلمين في سلام وأمان، والغريب أنّ هذه الصورة تكرَّرت في عصور وأماكن مختلفة.

يقول الدكتور صلاح خليل في كتاب (خروج اليهود) للكاتب الفرنسي هوليوس أوريس: «يركِّز الكاتب على ما أصاب اليهود على يدِ من العديد من القوميّات الأخرى، وفي مقدِّمتهم الأوروبيون، ويقارن الكاتب بما لاقاه اليهود في روسيا على أيدي الحكَّام الروس، وما لاقاه اليهود هناك من حسن المعاملة على أيدي الحكَّام العرب المسلمين، الذين حكموا أجزاءً من جنوب روسيا في فترة ازدهار الإمبراطورية الإسلامية».

يقول الكاتب بالحرف الواحد[1]: «وبحلول القرن العاشر الميلادي وصل الروس في الشمال إلى السلطة، وهاجموا دولة اليهود في القرم التي كانت معروفة باسم الخزر، ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق، وبدؤوا سجلاًّ دنيئاً ضد اليهود منذ ذلك الحين.

وبعد ظهور الإسلام جاء سيف الإسلام المشتعل من الجنوب، وفي خلال الحكم الإسلامي للأجزاء الجنوبية من روسيا عرف اليهود أعظم عصورهم من السلام والازدهار، وبهزيمتهم وانحسار إمبراطوريتهم آلت السيطرة إلى قياصرة روسيا، وفي تلك العهود كان اليهود يُحرقون أحياء بالمئات في العصور الوسطى».

وهذه شهادةٌ للعرب والمسلمين من كاتب يهودي صهيوني، يكره العرب، ولكنَّه لم يستطع إنكار بعض الحقائق، ربما لشدة نصاعتها وصعوبة إنكارها.

---

(١) كتاب (خروج اليهود) ص ١٩٥.

وهناك أمثلة عديدة لا يتَّسع المجال لذكرها، فقد كان العرب من أكرم شعوب العالم معاملة لليهود، وقد عاش اليهود بينهم بلا اضطهاد وعنصرية على مرِّ العصور». ا هـ.

ويلاحظ أنَّ يهود الكيان الإسرائيلي المعاصر هم من خلائف مملكة الخزر التي مُزِّقَت شرَّ مُمَزَّق، وذهب أهلها إلى بولندا وغيرها، ومن هنا فإن هؤلاء ليسوا أصلاً من نسل إبراهيم أو إسرائيل، ولا صلة لهم بأرض فلسطين وإنما هم جماعة دخلوا في اليهودية في فترة من الفترات.

ولقد كان اليهود المعاصرون حريصون على إخفاء قضيَّة مملكة الخزر حتى أنهم رفعوها من دوائر المعارف، لأنها تكشف زيف دعواهم بأنهم من يهود فلسطين.

ويقرِّر الدكتور عبد الوهاب المسري في بحثه عن الخزر أنَّ مملكة الخزر بلغت أوج عظمتها وقوَّتها ما بين القرنين الثامن والعاشر، حين اعتنق ملكها بولان (٧٨٦م ـ ٨٠٩م) ومعه أربعة آلاف من النبلاء الديانة اليهودية وجعلها الديانة الرسمية، ويقول المسعودي: إنهم تهوَّدوا في عهد هارون الرشيد.

وقد حاول المؤرِّخون تفسير ظاهرة يهود الخزر، فيقال إنهم تهوَّدوا لأسباب سياسية، فهم كانوا يقعون بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية، ولكي يحتفظوا باستقلالهم تبنَّوا عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة القوَّتين.

ويقرِّر العالم الإسرائيلي (ا. ن. يولياك) أستاذ التاريخ اليهودي الوسيط في جامعة تل أبيب وعلماء الأجناس أن يهود شرق أوروبا (الأشكناز) ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل يهود الخزر.

وفي القرن السادس عشر كان معظم يهود أوروبا في بولندا، ومع بداية القرن السابع عشر نجد أن معظم يهود العالم موجودون في بولندا،

بحيث يمكن القول إنّ يهود العالم الحديث من أصل بولندي، وقد ضُمَّت أجزاء من بولندا إلى روسيا، وهي الأجزاء التي تضمّ اليهود.

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسري: «إنَّ الدلائل المعروضة تدعم الحجَّة القوية التي قدَّمها المؤرخون المحْدَثُون (سواء النمساويون أو الإسرائيليون أو البولنديون) الذين أثبتوا ـ مع استقلالهم الواحد عن الآخر ـ أنَّ الأغلبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطيني، وإنما من أصل قوقازي، وأنَّ التيار الرئيسي للهجرات اليهودية لم ينبثق من حوض البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا متَّجهاً نحو الشرق ثم عائداً أدراجه ثانية. ولكنه تحرَّك في اتجاه ثابت دائم نحو الغرب بادئا من القوقاز عابراً أوكرانيا إلى بولندا، ومنها إلى وسط أوروبا.

إن الصهيونية في أحد أشكالها تحاول أن تؤسِّس نظرية الحقوق اليهودية في فلسطين عن منطلق عرقي، إذ تدّعي أنَّ اليهود هم شعب بالمعنى العرقي، ارتبط دائماً بفلسطين أو أرض الميعاد، وأنَّ هذا النقاء العرقي وهذا الارتباط الأوروبي بأرض الأجداد يبرِّر عملية الاستيلاء على فلسطين، ولكن تهوُّد الخزر مثل تهوّد الأدرمين من قبل يمثِّل تحدِّياً لهذه الفكرة الخاصّة بالنقاء العرقي، كما أنَّ الأصل الخزري لمعظم يهود الغرب (أي الأغلبية ليهود العالم) يفنِّد فكرة الحقوق اليهودية».

* * *

ولا شك أنَّ هذه الحقائق الدامغة تكشف زيف دعوى الصهيونية المعاصرة كليّة، وتمثّل حلقة من حلقات التآمر اليهودي الممتدّ على التاريخ.

والذي تأتي إحدى حلقاته في العصر الحديث، ممثّلة في صناعة الثورة الفرنسية والثورة الروسية، وهذا هو بدء التاريخ الحديث الذي سيصل مرحلة بعد مرحلة إلى السيطرة على القدس.

وكانت الثورة الفرنسية هي مقدِّمة للسيطرة على العالم؛ فقد استطاعوا تحت عناوين (الحرية والإخاء والمساواة) أن يقتلوا أكثر من مليوني شخص في أوروبا وحوض البحر المتوسط.

وكانت ضربة قاصمة للمسيحية، حيث وحدة العالم الغربي، ومن حيث فرض عصر التنوير بإلحاده وإباحيته، الذي رسموا خطَّته وقدَّموا لها أعلامها (فولتير وروسو وديدو وكتّاب الموسوعة) وجعلوا قاعدتها هدم المسيحية أساساً وإعلان تقديس العقل.

وهكذا انتقم اليهود من معذِّبيهم خلال القرون السابقة (وهذا ما قرَّرته دائرة المعارف اليهودية).

وثبت أن تمويل الثورة شارك فيه ستة رجال من زعماء اليهود ذُكِرت أسماؤهم، كما ذكر التاريخ أن وزير المالية للملك لويس السادس عشر كان يهوديّاً، وهو الذي أغرق النظام بالديون.

وقال حكماء صهيون في البروتوكول الثالث، يخاطبون جمهورهم: «تذكَّروا الثورة الفرنسية التي نسمِّيها الكبرى».

«إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لدينا جيداً، لأنها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم».

* * *

أما الثورة الشيوعية (١٩١٧م) فإن يهود أمريكا قاموا بتمويلها، ومن هؤلاء فبلكس واوتو وجيروم وماكس وشيبات، أما الزعماء الروس بعد كارل ماركس اليهودي فهم لينين وهو ربيب اليهود، وستالين وزوجته يهودية، وبرمونسكي وهو يهودي، وكذلك كالمنيف ومسكونو ليكوف وزينوكيف.

وكان شعار الشيوعية (لا إله، والحياة مادة)، وأسلوبها الفذّ:

القوة، ولا يعرف التاريخ شبيهاً بحمّامات الدم التي جرت في أرجاء العالم الشيوعي، لقد كان هتلر الحلقة الأخيرة في سلسلة الحكّام المسيحيين الذين نكّلوا باليهود على مدى التاريخ، وقد ثأر اليهود لأنفسهم باختراع الفلسفة المادية، ومشاركة الناقمين في ترويجها ومساندتها.

وقد انتقل اليهود الآن إلى الشرق الأوسط وظفروا بتكوين دولة لهم، والأمور تتدافع إلى مستقبل أسود تسيل فيه الدماء أنهاراً، واليهود من وراء هذا البلاء الماحق.

وقد أشار المؤرخون إلى الترابط بين الثورة الفرنسية (١٨٧٩م) والثورة الشيوعية (١٩١٧م).

لقد قدَّمت الثورةُ الفرنسية الأرضيةَ الأساسية لهدم الأديان والسيطرة على الأمة الإسلامية، بدعوتها إلى الإلحاد باسم التنوير، تحقيقاً لهدف الماسونية (حرية ـ إخاء ـ مساواة) وتحرير أوروبا من المسيحية، وإقامة الدولة العلمانية (دولة العجل الذهبي) على مبدأ الفصل بين الدين والدولة، وظهور أول نظام سياسي علماني، حتى استطاعت في خلال أقل من أربعة عقود طرح مفهوم الشيوعية بإلغاء الدين نهائياً.

* * *

وقد نما وامتد هذا المخطط في ثلاثة مواقع:

(١) في الفكر اليهودي التلمودي، الذي هو الآن مصدر الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي في النظم الديمقراطية الليبرالية.

(٢) في الفكر الماركسي الذي تحطَّم نظامه الشيوعي، ومع ذلك فما زالت فكرة الإلحاد والتنوير و(لا إله والحياة مادة) قائمة وممتدّة.

(٣) احتضان كل حركات الإباحة والفساد العالمي على النحو الذي دعت إليه الماسونية.

(٤) احتضان المراكز الأساسية للبهائية والليونز والقاديانية والأحمدية.

وقد اعترفت الحكومة الإسرائيلية بأنَّ إسرائيل هي المركز الروحي للفكر البهائي، حيث تضمُّ المركز القيادي لهذه الحركة منذ أكثر من قرن.

* * *

وفي سبيل إيقاد نار الفتنة قام اليهود بأعمال كثيرة:

١ ـ طبع أول سورة مريم وأول سورة البقرة على ورق التغليف، ويستعملها اليهود في محلاتهم بالعاصمة البلجيكية بروكسل.

٢ ـ في لندن أنتجت محلات اليهودي ماركس أند سبنسر ملابس داخلية طُبعت عليها عبارة لا إلـه إلا الله.

قد تعمّد المصمِّم على أن يكون لفظ الجلالة ملاصقاً لموضع العورة، وتباع هذه الملابس هناك.

٣ ـ في قبرص وضع يهودي اسم الجلالة: الله ـ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً ـ على نعال الأحذية الرياضيّة.

٤ ـ في أوروبا تنتشر كاسيتات لموسيقا الديسكو سجَّل عليها اليهود سوراً قرآنية.

* * *

ومن ناحية أخرى احتضنت الصهيونية الفِرَق الضالّة وفي مقدمتها الدروز والباطنية، وللدروز أثر واضح في الصراع العربي الإسرائيلي والحرب اللبنانية، كما له أثر في الخطة الهادفة إلى قيام إسرائيل الكبرى.

فقد حملت الفِرق الدرزية مشروع الباطنية المستحدثة التي تأسس على قاعدتها الحزب الاشتراكي، حيث تشكَّل الفيلق الدرزي.

ويقول أحمد رشيد في بحث له: «إن كمال جنبلاط هو أحد الأعمدة الباطنية للعمود الفقري في خطة الإسرائيليات الحديثة، وفي سيرة إسرائيل الكبرى.

وهناك أدوار أخرى باطنية، منها ما يسمى بالتعقيدات الباطنية، لأنها جزء هام من خطّة إسرائيل ـ التي جاءت في بروتوكولات صهيون ـ في تحطيم عقائد الإيمان.

وما يتصل بالدروز يتَّصل أيضاً بغيرها من الفرق المتعدِّدة التي قامت على أساس الفكر الباطني.

* * *

إن اليهود يطمعون في إنشاء دولة تصبح جزءاً من عالم الغرب، بل وترث أنظمة الغرب التي تنهار اليوم لتحل محلّها، فتكون خندقاً أماميّاً للدفاع عن الحضارة اليهودية ـ وليست الحضارة الأوروبية ـ كما حاول هرتزل أن يخدع أهل الغرب ليوافقوا على مشروعه، وقد وضح وجه الشبه بين الحركة الصهيونية وحركة النازية الألمانية (الشوفونيّة، والاستعلاء العنصري).

أما من حيث علاقة الحركة الصهيونية بالكنيسة والديانة المسيحية، فقد خَطَتْ خطوات واسعة في احتوائهما، وكانت تَبْرِئة اليهود من محاولة قتل المسيح هي أهم هذه الخطوات.

فقد أُلغيت صلاة «اللعنة على اليهودي الخؤون» من الطقوس الدينية المسيحية، وحلّت محلها صلاة تمتدح اليهود باعتبارهم هم أول من سمع كلمة الربّ.

وقد جرى دعم الحواريين اليهود في المسيحية على أساس التراث الروحي المشترك بين الفريقين.

وما زال اليهود يرون أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خلال (١٨٠٠) سنة هي سبب الاضطهادات الدامية التي تعرَّض لها اليهود في القرون الوسطى، وخاصّة محاكم التفتيش ومذابح اليهود في الحروب الصليبية والحكم النازي.

* * *

ولقد تردَّدت محاولات متعدِّدة للطعن في مخطط الاستيلاء على العالم وتدمير الخلافة، الذي أُطلق عليه (بروتوكولات حكماء صهيون) وقد اعترف هنري كيلين في جريدته صوت المرأة في شيكاغو (١٩٤٥م) بصحّة البروتوكولات، فقال: «إنها هي الخطّة التي وُضِعَتْ للسيطرة على العالم، وإنّ زعماء الصهيونية يكوِّنون مجلس سانهدرين الأعلى الذي يرمي إلى السيطرة على حكومات العالم».

وقال: «وقد طردني اليهود من صفوفهم، لأني أنكرت عليهم خططهم الشريرة».

والمعروف أنَّ الفكر الماركسي والفكر الرأسمالي الربوي هو نتاج يهودي أساساً، ضمن مخطّط السيطرة التامّة على الفكر البشري في العصور الحديثة، هذا فضلاً عن أنَّ تجارة البغاء والجنس تدرُّ عليهم ملايين، وهم المسيطرون على تجارة الخمور والمخدِّرات.

والمعروف أنَّ إسرائيل لا تحارب المسلمين فقط بقوّاتها المسلحة وعمليّاتها الإرهابية، ولكن من خلال تسميم أفكار العامة، مستخدمة في ذلك كلّ وسيلة.. حتى كُتب المدارس؛ ولا ريب أنَّ اعتماد وسائل الإعلام التركيز في بلاد المسلمين على مغامرات ميكي وتان تان هي جزء من الخطة، وأنه يجب أن تُكشف هذه الحقائق للطفل المسلم، وتثبّت عقيدته حتى يستطيع أن يكبر وهو فاهم لكلِّ ماحوله.

* * *

وقد كشف كتّاب الغرب ومؤرِّخوه المنصفون فساد مؤامرة الغرب، حتى يقول آرنولد توينبي ما يلي: «إنه من المستحيل أن تقوم دولة في مكان ما، لمجرَّد أنَّ هيئة ما ذات سلطان في السياسة العالمية في وقت ما تريد أن تصنع بقوة المال والسلطان السياسي فحسب: كياناً سياسياً له شرعية وجذور، فالذي تصنعه الصهيونية اليوم هو ما يصنعه رجل موسر ذو سلطة، إذ يشتري قطعة أرض في بلد ما، ويطرد أهلها منها، ويقرّر إنشاء دولة لنفسه فيها، زاعماً أنَّ شراءه الأرض يُخرجها من سيادة الدولة، لأن الدُّوَل لا تُصنع هكذا بالقوة والمال، والشرعية لا تكون من فوهة المدافع، ولا من اعتراف مجلس الأمن، لأنّ مجلس الأمن نفسه هيئة مصطنعة تسير حسب ما يريد لها الذين صنعوها؛ وكما اعترف مجلس الأمن بإسرائيل دون أن يكون اعترافه بها وثيقة شرعية، فكذلك ظلَّ ينكر شرعية الصين عشرين سنة، لأن الولايات المتحدة أرادت ذلك».

* * *

إن الحملة الصهيونية في العصر الحديث تكاد تكون متشابهة، بل متطابقة مع الحملة الصليبية في العصور الوسطى، وأوجُه الشبه كثيرة، غير أنَّ الدين قد اتُّخِذَ ستاراً وشعاراً في الحملتين.

ففي الأولى كانت الصليبية هي الشعار، وفي الثانية كان الشعار نجمة داود؛ وكان الهدف الظاهر في الأولى هو إنقاذ بيت المقدس، وكان الهدف في الثانية هو إعادة بناء هيكل سليمان.

وقد جاءت هذه الحملة لتفتح صفحات التاريخ القديم لليهود، وتدفع إلى مراجعة ما سجّله القرآن الكريم عنهم، وما حذَّر المسلمين من خيانتهم.

فكم مرَّة دُمِّرت مملكة إسرائيل؟ يوم أن دمرها الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١ ق.م)، وعندما دمّرها ملك بابل (نبوخذ نصّر) حين قضى على أورشليم عام (٥٨٥ ق.م) وساق الشعب أسرى إلى بابل،

فعاش اليهود في المنفى عيش العبيد، ففي كلِّ مرّة دمِّرت أورشليم وقتل اليهود؛ ولما جاء عصر الروم (٥٨ ق.م) ردّاً على ثوراتهم، حين حوصرت أورشليم في عهد نيرون (٧٠م) وتعهّد اليهود بإبادة أنفسهم حيث حُرق المعبد الذي بناه هيرودس، وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود، وأصبح اليهود منذ ذلك التاريخ شعباً بدون وطن.

حدث هذا كلّه في الوقت الذي استمرّ وجود الشعب الفلسطيني في أرض فلسطين، حيث بقي العرب بصفة عامة من قبل الميلاد على أرض فلسطين، وهذه حقيقة تاريخية، بينما كان وجود العبرانيين مُتَذَبْذِباً بين هجرة ونكوص عن الجهاد، ثم تشريد دولَتي آشور وبابل.

أما بالنسبة للتوراة فقد أكّد ظهور الكشوف الأثرية في مناطق كثيرة أنَّ هناك هوَّة واسعة بين الحقيقة التاريخية وبين ما تخيّله الذين عملوا في نقل التوراة وتحوير نصوصها لغايات أساسية، كان الغرض الرئيسي منها الحطّ من شأن الشعوب المعادية لإسرائيل، وتزوير الأحداث لصالح الشعب الإسرائيلي، وادِّعاء دعاوى باطلة بشأن وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم مما صحَّحه القرآن الكريم.

وتكشف الدراسات الحرّة أن اليهود كانوا وراء محاولة قتل المسيح عليه السلام، وهم الذين قتلوا القيصر نقولا الثاني الذي كان يعمل على صَهْرِهم في المجتمع الروسي، وهم الذين أشعلوا الثورة الفرنسية بهدف وضع يدهم على مقدَّرات الغرب، وهم الذين نظّموا مذابح ستالين والبولشفيك من أمثال ليون بروتسكي وباكوف وسيفرولوف وغيرهم، وهم الذين قاموا بخداع الفلاحين ونشْرِ الرعب في البلاد.

وهناك ما كشفت عنه محاكمة بعض اليهود من أن الصهيونيّة نفسها كانت وراء مذابح هتلر لليهود، لدفعهم إلى النزوح عن ألمانيا الشرقية إلى فلسطين، وهم يَنْفخون في الرماد لتأجيج نيران معاداة الساميّة في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، توطئة للخروج الثاني في القرن العشرين؛

كذلك فإنه يجب أن يُدرس باهتمام بالغ دور اليهود في ديون مصر وقناة السويس، ومن قَبلُ دور اليهود في الحروب الصليبية، ودورهم في أوروبا في الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، وفي الحرب العالمية الأولى والثانية التي قتل فيها عشرات الملايين.

وقد تبيَّن أن الحروب الدينية الطاحنة التي دارت بين الكاثوليك والبروتستانت، كان يشعل نارها اليهود، فقد اندسُّوا بين الفريقين يحرِّضون كلاًّ منهم على الآخر، ويزيِّنون للمسيحي قتل أخيه المسيحي، مما تَسبَّب عنه موت ملايين النصارى الأبرياء.

* * *

والآن تتمّ مؤامرة هجرة اليهود إلى فلسطين لأول مرّة في التاريخ بتواطؤ دولي على يد الأقوياء، واغتصاباً لأرض الآخرين، وعدواناً على حقوق الإنسان في مأمنه.

وكان اليهود قد أعدّوا عُدّتهم لإقامة طويلة ولسيطرة كاملة، ومن هنا كان إعدادهم لبرامج تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وتدمير مقوِّماتها من الداخل، وكان اهتمامهم بالأقليّات وإثارتها من أهم هذه البرامج.

ولا يدفع اليهود لذلك كلّه إلا كلمة واحدة هي الحقد على الإسلام والبغضاء لأهله.

وقد تكشّفت مشروعات تمزيق الأمة الإسلامية والوطن العربي إلى كانتونات على النحو الذي عُرف في السنوات الأخيرة، ففي الجزيرة العربية: دولة الأحساء، ودولة نجد، ودولة الحجاز. وفي العراق: دولة سنَّة، ودولة شيعة، ودولة كردستان. وفي سورية: دولة علوية، ودولة درزية. وفي إيران: دولة كردستان، ودولة أذربيجان، ودولة تركستان، ودولة بلوخستان... إلخ[1].

* * *

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٨٧/٨/٧ م.

كيف واجه المسلمون الحملة الصهيونية:

لقد استطاع النفوذ الغربي المؤازر للصهيونية أن يخدع العرب طويلاً عن الطريق الصحيح لمقاومة الخطر الزاحف، فانطلقوا لمواجهته عن طريق الأسلوب السياسي الغربي، الذي كان قد فرض نفسه على الوطن العربي بما يسمُّونه النظام الديمقراطي، بعد أن حُجبَتْ مفاهيمهم الإسلامية الأساسية القائمة على الاحتشاد للمقاومة، وقبلوا المضيّ في خطّة التحاكم في الهيئات الدولية فلم تُجْدِهِم نفعاً، واستطاع العدو أن يسيطر ويتوسَّع، وأيَّدته الدول الغربية، بينما خدعت العرب في أكثر من موقع، ومضى النفوذ الصهيوني معتمداً على الحكومة البريطانية التي تحميه في اضطهاد أصحاب الأرض، فهجروها إلى الأقطار المجاورة، واسْتَقدم العدوُّ دفعات جديدة من المهاجرين اليهود.

ولما دخل العرب الحرب مع اليهود هُزموا، وقدَّموا مزيداً من الضحايا، واستطاع اليهود في معركة فاصلة السيطرة على الجولان وسيناء والضفة الغربية والقدس عام (١٩٦٧م).

وقامت منظمة فتح على مفهوم الجهاد الإسلامي، ثمّ اتسع نطاقها فشملت منظمات أخرى، وخضعت لمفهوم الحوار السياسي الغربي، وتلاشى مفهوم المقاومة الإسلامية.

بل لقد عمل الغرب على أن يفرض مفهوماً علمانيّاً من خلال مفاهيم القومية الوافدة، وهو أن قضية فلسطين قضيّة عربية، تخصُّ العرب وحدهم، وليس لها أيَّ صلة بالدولة الإسلامية، وعندما تدخَّل المجاهدون المسلمون لتحرير فلسطين بمفهوم الإسلام حُطِّم مشروعهم ودمِّرت جماعتهم، وكان ذلك قمَّة التبعيّة للمفاهيم والأفكار الغربية التي سيطرت على المنطقة واحتوت حكّامها وقادتها، بينما ظلَّ اليهود يتصرفون ويتحرَّكون من خلال مفاهيمهم التي استمدوها من تراثهم القديم، والتي تقوم على ادِّعاء حقٍّ في العودة إلى فلسطين.

وتطوَّر الموقف تطوُّراً خطيراً، فقد كانت فكرة الوطن القومي لليهود تحمل مفهوم حماية اليهود المهاجرين من الاضطهاد، فإذا بها تتحوَّل إلى مفهوم إقامة كيان يهودي في قلب العالم الإسلامي، وفي فلسطين بالذات، بدعوى العودة إلى الأرض الموعودة التي أُخرجوا منها منذ أكثر من ألفَي سنة.

غير أنَّ هذا المفهوم قد تغيَّـر الآن بالنسبة للعرب والمسلمين، فقد تبيّـن خداع هذا المخطط وفساده، وبدأ الفلسطينيون يلتمسون مفهوم الجهاد الإسلامي منطلقاً لهم لتحرير وطنهم، وقامت جماعة حماس لقيادة هذه الحركة، وسط خضمٍّ زاخرٍ من القوى، وفي جوٍّ مدلهمٍّ بالإبادة والقتل والتعذيب والترويع.

* * *

إسلامية معركة فلسطين علامة على الطريق الصحيح:

١) المؤامرة على القدس:

بدأت المؤامرة على بيت المقدس منذ وقت بعيد، وأُنجزت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: الحروب الصليبية وقد استمرّت قرنين كاملين، ثمّ استؤنفت بدخول بريطانيا القدس (١٩١٧م) حيث أخذت تسلّمها للصهيونية.

قال اللورد اللنبي (١٩١٧م): «الآن انتهت الحروب الصليبية».

وقال غورو في دمشق: «ها نحن قد عُدنا يا صلاح الدين».

المخطَّط في جملته كما رسمته الماسونية، ونفَّذته الصهيونية بالاشتراك مع القوى الاستعمارية المسيحية الأوروبية.

وقد كان هدف الماسونية منذ إنشائها هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان، وكان هذا الهدف سرّاً محفوظاً حتى يبلغ العضُو درجة ٣٣ فيُكشف له عنه.

وجاء لورنس على خُطا هرتزل، وجاس خلال الديار، وأعدَّ العدَّة لمعركة تتمزَّق فيها الوحدة الإسلامية، ويتصارع فيها العرب والترك، ويتقاتلون لحساب الصهيونية العالمية.

* * *

ولقد حفلت وقائع التاريخ الإسلامي بالمؤامرات التي وجِّهت إلى الأمة الإسلامية، وكان الغرب هو المعتدي دائماً، الذي يدفع قوَّاته إلى الانقضاض، وكان الانقضاض الأول بالاشتراك مع التتار، وإسقاط الخلافة العباسية، وجاء الانقضاض الثاني بحملات صليبية على فلسطين ومصر، امتدَّت قرنين من الزمان، وجاء الانقضاض الثالث من الفرنجة على الجزائر والمغرب، وانطلقت قوات البرتغال وإسبانيا إلى الخليج العربي، وجاء الانقضاض الرابع ممثَّلاً في الحملة الاستعمارية بقيادة فرنسا، ثمّ إنجلترا، ثمّ جاء الانقضاض الخامس ممثلاً في الحملة الصهيونية على أرض فلسطين، بمطمع السيطرة من النيل إلى الفرات، وهو الذي نعيشه اليوم (العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري).

ومنذ أربعين عاماً وهناك تآمر مشترك بين الدول الكبرى العالميّة، وجاء مخطط الاستعمار ليقطع أوصال الإسلام وأمة الإسلام، ومحاولة تقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ينتمي كلٌّ منها إلى أرض وجنسية وقوميّة وإقليم وطائفة، وإثارة روح الصراع بينها حتى لا تلتقي على وحدة جامعة.

وأخطر ما في ذلك كلِّه ما يجري اليوم من محاولة تمزيق الدول العربية إلى (دويلات وكانتونات) حيث لا تزال إسرائيل ووجودها في قلب الأمة الإسلامية هو الخطر الأكبر، والمعوِّق لحركة الأمة الإسلامية نحو

وحدتها؛ ونحو تطبيق منهجها وتبليغ رسالتها، مما يتطلّب تعبئة القوة وبناء المقاتلين والمجاهدين، وتحويل حركة التحرير من حركة قومية ضيّقة إلى حركة إسلامية عامة، تستمدُّ منهجها من منطلق القرآن الكريم الذي رسم للمسلمين قوانين الجهاد والمرابطة والإعداد والنصر.

ولا ريب أنَّ (إسلامية معركة فلسطين) التي تبدو اليوم في الأفق عن طريق جماعة حماس، التي تجدِّد مشروع الجهاد الذي بدأ عام (١٩٤٧م) بقيادة الدعوة الإسلامية، ثمَّ اختفى بعد ذلك ـ هي علامة على الطريق الصحيح بعد أربعين عاماً من اصطناع أساليب الغرب في مقاومته، ولا ريب أنَّ التحدّي الصهيوني هو عامل أساسي في بناء وحدة الأمة الإسلامية.

ومن هنا فقد كان علينا أنْ نقرِّر أنَّ الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً، بل هي مرحلة نحو الوحدة الإسلامية، ويجب أن تكون كذلك بعد التجربة المريرة التي مرَّت بها بعض أقطار العرب، وكيف فشل مفهوم القومية في تحقيق الوحدة العربية، لأنه لم يبدأ من طريق الأصالة، فلقد ظنَّ كثيرون أنَّ الوحدة العربية هي غاية في حدِّ ذاتها، بينما هي في حقيقة الأمر مرحلة على الطريق؛ طريق وحدة الأمة الإسلامية، ومن ثمَّ فقد كانت كلُّ المحاولات التي قادها دعاة القومية بمفهوم الغرب العلماني وبمضمونها الماركسي معوِّقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح.

ولقد دلَّ تاريخ الشرق الأدنى الحديث ـ كما جاء في كتابات بعض المراقبين وفي مقدِّمتهم (ألفريد كانتول سميث) ـ على أن القومية المجرّدة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء في عالم الإسلام، وأنه ما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجهٍ من الوجوه فلن تثمر الجهود ألبتة.

ولقد رسم دعاة اليقظة الإسلامية تكامل المراحل بين الحلقات الثلاث: (الوطنية ـ والعروبة ـ والإسلام) وتدافعها لتسلِّم نفسها إلى الوحدة

الجامعة، ولقد كان العرب قبل الإسلام قبائل متصارعة، ولم يجمعهم إلا الإسلام، وهم اليوم يمرُّون بالتجربة نفسها، ولقد دفعتهم القومية والإقليمية إلى الصراع، وألحقت بعضهم بالغرب وبعضهم بالشرق، ولن يردَّهم إلى الوحدة الجامعة إلا الإسلام؛ الذي جمع المسلمين تحت لواء واحد في كلِّ أزمة تمرُّ بهم أو محنة تحتويهم.

وفلسطين لن تعود إلا بأيدي متوضئة ترفع القرآن مع السلاح، وتؤمن بوحدة الأمة الإسلامية، وتحطم كل القيود والسدود التي وضعها النفوذ الأجنبي كي لا يُمكِّن المسلمين من الالتقاء الحقيقي حول (لا إله إلا الله).. والله غالب على أمره ولو كره الكارهون.

* * *

البَابُ التَاسِعِ

عِـبْرَةُ الأحْـدَاثِ



عِبرَةُ الأحداث

ماهو مجال الاعتبار أمام المسلمين اليوم، وهم في العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري باستعراض تاريخهم، والتعرُّف إلى هذه الضربات التي وجِّهت للانقضاض على وجودهم وكيانهم وعقيدتهم؟ وهي ضربات تواصلت خلال هذه القرون الأربعة عشر ولم تتوقّف، وقد قاومها المسلمون في مواقع فاصلة، قدّموا فيها أرواحهم خالصة في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، ولكنهم سرعان ما يغلبهم حبُّ الدنيا وكراهية الموت، فيُصابُون بالضعف والفتور عن الاستمساك بالأمانة التي حملوا لواءها، وينصرفون إلى البحث عن المطامع والأهواء، ويغلبهم الترف والانحلال، فلا يلبثون أن يواجههم الخطر مرّة أخرة وبصورة أخرى، ذلك لأن أعداء الإسلام والمتربّصين به لا يغفلون أبداً، وهم ما يلبثون حين يرون المسلمين وقد ضعفوا أو تخاذلوا وغلَبتهم الدنيا أن يتجمَّعوا ليوجِّهوا إليهم ضربة جديدة.

وهكذا عاش المسلمون هذه الأحداث ونسوها، وأصبحوا في حاجة إلى تذكُّرها وتدبُّرها، والتعرُّف على مصدر الخطر الكامن أولاً في أنفسهم، فلو أنهم عاشوا على التعبئة، وعرفوا أن دورهم هو المرابطة في الثغور، والإعداد ﴿وأعدّوا﴾ في سبيل امتلاك القدرة على الردع ـ لما انتاشتْهم هذه الأزمات؛ ولو ذكروا كيف وصفهم رسول الله ﷺ: «بأنهم خير أجناد الأرض، وأنهم في رباط إلى يوم القيامة»؛ لعرفوا حقيقة مهمَّتهم، ولو أنهم نظروا إلى عوامل النصر كما رسمها القرآن الكريم لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

هذه وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية التي نبَّهت المسلمين إلى مصادر الخطر، وإلى عوامل الثبات والنصر.

وإذا كنا نحن الجيل الذي يشهد الآن مطالع القرن الخامس عشر الهجري قد وجدنا أنفسنا وأمتنا في هذا المعترك الخطير وهذه الأزمة الشديدة، ورأينا مِن حولنا هذه الأخطار، حيث تتجمَّع القوى المعادية للإسلام لتضرب الإسلام والمسلمين عن قوس واحد، فإن علينا أن نعتبر بتجربة التاريخ، وأن نُعِدَّ أنفسنا لنكون قادرين على التضحية والجهاد، والثبات في المواقع في وجه العدو الذي ستزلزله قوة إيماننا؛ فينهار كما انهارت قوى الصليبيين والتتار والفرنجة من قبل.

ليس أمامنا إلا طريقٌ واحدة هي التضحية وإحياء روح المقاومة والجهاد والتحرُّر من التبعية والوسائل الموصلة إلى الانحلال والتراخي؛ هذه التي يفرضها النفوذ الأجنبي على مجتمع المسلمين، حتى لا يكونوا قادرين على حماية أرضهم وعقيدتهم.

وعلى المسلمين أن يلتمسوا الوسيلة إلى وحدة جامعة، ينسون فيها كل خلافاتهم في الفروع ويتجمَّعوا حول (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وأن لا يجعلوا للفوارق الإقليمية والقومية والجغرافية أي أثر في بقاء الخلاف، فإنهم إنما يواجهون عدوّاً واحداً تجمَّع لإبادتهم وإزالتهم، فعليهم أن يواجهوه مجتمعين، فليس من الغرابة في شيء أن يكون الإسلام هو المبدأ المحدَّد لوحدة الشعوب الإسلامية ومُعينها على التجمُّع في

إرادة واحدة للنضال ضدّ القوى الخارجيّة.

ولا شكَّ أن ما يُعينُها على ذلك هو تكشُّفُ خُطَط التآمر، والمشروعات التي يجري إعدادُها لتدمير المفاهيم الإسلامية الأصيلة، عن طريق التعليم والصحافة والمحكمة والمصرف الربوي.

وإذا كان المسلمون جميعاً موقنون اليوم بفشل التجربة الغربية في العالم الإسلامي (بما فيها القومية والصهيونية والليبرالية) فإن التجربة الأخرى (الماركسية) قد فشلَتْ تماماً، فلم يعد أمام المسلمين منطلق إلا القرآن، فهو وحده القادرعلى تمكينهم من إقامة المشروع الحضاري الإسلامي وبناء المجتمع الربّاني.

* * *

الضربات التي وجِّهت إلى الأمة الإسلامية

والآن: ما هي أبعاد الضربة الجديدة التي توجَّه اليوم إلى الأمة الإسلامية، والتي تأتي على نحوٍ خطير تتجمَّع فيه كل القوى المعادية في محاولة جديدة للقضاء على كل المكاسب التي حقَّقتها الدعوة الإسلامية خلال خمسين عاماً، حيث تلتقي الشيوعية والصهيونية والغرب المسيحي الليبرالي في تحالف خطير.

تأتي هذه الضربة بعد محاصرة شديدة امتدت أكثرمن أربعين عاماً، وكانت الحملة الصهيونية هي الحلقة الثانية بعد الاحتلال الغربي، الذي بدأ في محاصرة العالم الإسلامي (أرخبيل الملايو ـ هولندا ـ الهند ـ بريطانيا) منذ القرن السابع عشر.

ثم جاء حصار الوطن العربي بدْأً من الحملة الفرنسية (١٧٩٨م) حتى أوائل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ـ ١٩١٨م)، حيث سيطر النفوذ الأجنبي على المنطقة كلّها، وأُعطي لليهود وعد بلفور كمقدِّمة لسيطرة اليهود على فلسطين، حيث بدأت الحلقة الثانية: استعمار واستيطان يهودي لفلسطين، تحت اسم دعاوى لم تثبْتها الوثائق الحقيقية، وفي محاولة توسُّع كبرى من النِّيل إلى الفرات.

وتتقاسم العملَ على تدمير الوحدة الإسلامية القوى الغربية المسيحية، والقوى اليهودية الصهيونية، والقوى الماركسية الشيوعية.

وتأتي الضربات الجديدة اليوم موجَّهة إلى الصحوة الإسلامية، وفي محاولة لاحتوائها وتدميرها، من حيث هي عامل الخطورة الشديد على

الكيان الصهيوني، وعلى النفوذ الأجنبي بصفة عامة؛ من خلال استعلان مفهوم الجهاد الإسلامي، والإيمان العميق بالاستشهاد والتضحية في سبيل تحرير الأرض، وإقامة منهج الله تبارك وتعالى.

* * *

وكان القديس لويس ـ بعد هزيمته في مصر في الحملة الصليبية السابعة ـ أول من فكَّر في اقتحام الإسلام بما أسماه (حرب الكلمة) بديلاً من حرب السِّنان، وكان ذلك منطلقاً للعمل الذي بدأتْه أوروبا مع المسلمين:

أولاً: أخذت مناهج التجريب والعلوم الإسلامية من طليطلة إلى قرطبة، ثم ادَّعت أنها لم تأخذ من المسلمين شيئاً.

ثانياً: استقْطَبَتْ تُراث الإسلام، ووجَّهت الدعوة إلى القناصل في كل بلاد العرب والإسلام لجمْع كل تراث الإسلام، واستطاعت أوروبا أن تحصل على مئات الألوف من كتب المسلمين، ثم حرَمت المسلمين من الانتفاع بها.

ثالثاً: وجَّهت الجهود إلى الجانب المضطرب من التراث، وكلَّفت العاملين معها في حقل التعريب بإحيائه، ودفْع المبعوثين المسلمين إلى جامعات الغرب بالكتابة عنه، وتجاهُل الجوانب الإيجابية تماماً.

رابعاً: تدافعت قوى التبشير بالمسيحية إلى اقتحام مجتمعات المسلمين، وركَّزت أساساً على استنبول والقاهرة وبيروت، وأقامت فيها جميعاً مراكز أساسية للغزو، واستقبلت إرساليّات كاثوليكية وبروتستانتية.

خامساً: أعلنَتْ في مؤتمرات التبشير المتصلة[1] الخطط التي أعدَّتها لتنصير المسلمين في مدينة جاوه وأرخبيل الملايو خلال عشرين سنة، وأن تنتهي من تنصير أندونيسيا كلّها في الخمسين سنة القادمة،

---

(١) اقرأ كتاب: (الغارة على العالم الإسلامي).

واستَغَلّت مؤسَّسات التبشير أحداث المجاعات والأوبئة والتصحُّر لإغراء المسلمين بالردّة نظير الطعام.

سادساً: قام الاستشراق بالدور الأكبر في تحريف مفاهيم الإسلام وقِيَمه، وكلّ ما يتصل بتاريخه ولغته.

وكانت الخطوة الثانية أن طُرحتْ في مجتمعات المسلمين تحت تأثير النفوذ الاستعماري فكرة (العلمانية) وأنَّ الإسلام دين لاهوتي، وكانت تجربة تركيا الكمالية هي السائدة، حيث جُعلت بمثابة نموذج تطبيقي للتجربة العلمانية، ونُشر كتاب عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ـ بوصْفه أزهريّاً ـ يقرُّ أنَّ الإسلام دين روحي لا دين حكم، وفرضت على مجتمعات المسلمين القوانين الوضعية، التي تقبل بالربا والدعوة إلى تحرير المرأة، وقبول مفاهيم فرويد وماركس ودوركايم ودارون؛ من خلال التعليم العلماني.

* * *

وفي الأخير فرض التصوّر الغربي على مختلف القضايا وإعلاء شأن البطولات والقيم الغربية، والغضّ من شأن الإسلام وقيمه وتاريخه. يقول جارودي: «إن الغرب خلال ألف سنة يُعتبر أكبر مجرم في التاريخ، وهو اليوم ـ بسيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية بلا مزاحم ـ يفرض على العالم كلّه نموذجه في التنمية، الذي يؤدي في الوقت ذاته إلى انتحار عالمي، وفي سبيل إعادة التوازن إلى التعايش العالمي، ونشر ظلال السلام والوئام في هذا المجتمع البشري!.

إن غزوات الغرب البربرية (كغزوات روما لليونان والهون والمغول والتتار) التي هدَّدت الحضارات آنذاك، فإن المؤرخين يبدلون هذه التسمية عندما تكون هذه الغزوات من صنع الأوروبيين، فيصبح اسمها (الاكتشافات الكبرى).

يقول ستندال: «نحن الذين كنا برابرة تجاه الشرق عندما عكَّرناه بحروبنا الصليبية، ونحن مدينون بالدنيا بل في أخلاقنا إلى هذه الحروب وعرب إسبانيا».

ويقول أناتول فرانس: «اليوم الأشأم في التاريخ إنه يوم معركة بواتيه عندما تراجع الفن والحضارة العربية (الإسلامية) عام (٧٣٢م) أمام البربرية الفرنجية».

وقد تضاعفت تهديدات الغرب للعالم الإسلامي (٧٥٠ م) على طرفي الإمبراطورية العربية (الأتراك في إيران وبغداد والنصارى في فلسطين وإسبانيا)، وقد بلغت الحضارة العربية الإسلامية خلال ذلك الذروة، وحَمَلتْ إلى الحضارة العالمية أول مساهمة رئيسية في جميع مجالات الثقافة.

* * *

(٢)

وقد كان للنفوذ الاستعماري الزاحف على الأمة الإسلامية ظاهرتان جديدتان في المجتمع العالمي تلقي بظلالها على المجتمع الإسلامي:

الأولى: ظاهرة العدوان على أراضي الغير بالقوة واقتحامها بدعاوى زائفة؛ باسم استخلاص قبر المسيح تارة، وباسم إعادة بناء هيكل سليمان تارة أخرى.

الثانية: إعطاء الباطل صورة الحق، واستعمال سلاح التزييف والتمويه والتلفيق والخداع ببراعة في سبيل السيطرة.

والاستعمار الغربي بمراحله الثلاثة (غربياً وماركسياً وصهيونياً) هو الذي صنع هذا الأسلوب في السطو على أراضي الأمم المستضعَفة ونهب ثرواتها من خلال نظريات تبريرية باطلة قوامها:

(١) الفروق الذهنية والعقلية بين الأمم البيضاء والأمم الملوّنة (وهي نظرية إعلاء الجنس الأبيض، التي كذّبتها الدراسات العلمية الجادّة وكَشَفَتْ زيْفها).

(٢) اجتياح الاستعمار للهنود الحمر في أمريكا، وتهجير أهالي أفريقيا إلى أمريكا، وشراء الذمم، والإبادة والنهب لمقدَّرات الأمم خلال أكثر من أربعمئة عام.

كل هذا دفع اليهود تحت الاضطهاد الذي واجهته جموعه في شرق أوروبا ـ في روسيا بالذات ـ إلى العمل على السيطرة على وطنٍ عربي إسلامي، تحت خداع العناوين، وإطلاق دعوى باطلة مضللة عن ميراث تاريخي قديم.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف:

(أولاً) ـ جرى تغيير منطق التاريخ، والتأثير على دوائر المعارف العالمية بالإخفاء والإظهار ـ إخفاء دولة الخزر، وإظهار حقٍّ كاذب في فلسطين ليهود ليسوا من بني إسرائيل ـ وتجنيد القوى في سبيل هذه الغاية، وقد تضافر على هذه الدعاوى الحكّام الأوروبيون والباباوات والحاخامات، وقد عملوا جميعاً على إسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق وحدة الأمة.

وكان أخطر مخطَّطات الكيد والتآمر على الأمة الإسلامية هو التواطؤ على الخلافة الإسلامية بين القوى النصرانية واليهودية. وقد جاء القضاء على الخلافة الإسلامية نتيجة لخطة صليبية يهودية عشية انتهاء الحروب الصليبية (٦٩٠هـ) ـ كما يقول أحد مُؤَرِّخِيهم (ديجوفارا) الذي ذكر أن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوروبيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد بين النصرانية والإسلام ـ ومن هنا كان العمل الخطير الذي حوَّل تركيا العثمانية الإسلامية إلى دولة علمانية، تلغي الخلافة واللغة العربية

والشريعة الإسلامية والمحاكم الشرعية، وتمنع حجاب المرأة، وتعدم مئات العلماء.

وفي الوقت الذي تم الاتفاق الودّي بين فرنسا وإنكلترا عام (١٩٠٤م) أن تُطْلِق إحداهما يد الأخرى في مصر، والثانية في تونس؛ تمّ اعتماد اتفاقية خطيرة هي اتفاقية سايكس بيكو، وهي اتفاق متمّم للاتفاق الرئيسي الذي تمّ بين الدول الثلاث (إنكلترا ـ فرنسا ـ روسيا) والذي قضى بتقسيم الدولة العثمانية الإسلامية، وتوزيع سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر والمغرب فيما بينها، وقد بقيت هذه الاتفاقية سريّة لم يسمعْ بها المسلمون إلا عام (١٩١٧م) عندما استولى الشيوعيون على السلطة في روسيا، ونشروا نصَّ الاتفاقية.

وجاء وعد بلفور عام (١٩١٧م) مُتمِّماً للمؤامرة التي بدأت أوّلاً بقتل اليهود لقيصر روسيا، الذي كان يعمل على صهرهم في المجتمع الروسي، وقد وعدتْ بريطانيا (اللورد بلفوْر) اليهودَ بالعمل على إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

وكان لا بدّ من إعلاء النزعة القومية بإحياء الطورانية في الدولة العثمانية، وإقامة الدول على أُسُس علمانية، وذلك في سبيل إدخال القومية اليهودية، وكان لا بدّ من إسقاط الخلافة لإقامة إسرائيل، ومن ثم برزت الدعوات العنصرية والإقليمية: العربية والكردية والفينيقية والآشورية والبابلية والزنجية والبربرية... إلخ.

ثم كان ظهور المدّ الشيوعي لكي يشكِّل مع التواطُؤ النصراني اليهودي حلقة كاملة، تلتفّ حول عُنُق المجتمع الإسلامي، مجدّداً دور اليهود في التاريخ الإسلامي، من سقوط بغداد وحروب التتار إلى الحروب الصليبية، ومضت التيارات الثلاثة (الشيوعية ـ النصرانية ـ اليهودية) تعمل عملها، وبرز عامل الصراعات القبلية والعرقية، وعملت إسرائيل على احتضان

الأقليات الدرزية والبهائية والقاديانية، وغيرها من الأقليات الباطنية.

وجاءت حركة الاستشراق، لتلقي بالمفتريات والأباطيل في محيط الفكر الإسلامي ومصادره وتاريخه، وكان أغلب المستشرقين سفراء للنصرانية العالمية في المعاهد والجامعات ومعاهد البحث العلمي، وقال ليسيوس أحد كبار مؤسّسي الإرساليات التبشرية: «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب الإسلامية ليست مجرّد خلافات بين دول وشعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع مُحْتَدِماً بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمرٌّ حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة».

* * *

كان المخطّط الذي أجمعت عليه القوى المعادية للإسلام هو تقطيع أوصال الإسلام وأمة الإسلام، وتقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ينتمي كل منها إلى أرضه وجنسه، ويكون ولاؤه لقوميته الجديدة، وإخضاع مناهج التربية والتعليم لهذه التجربة، وإنشاء أجيال جديدة لا تعرف الوحدة الإسلامية الجامعة، والعمل على سحق الأقليّات الإسلامية حيث كانت وإهالة التراب عليها، وتذليل الأقليات الأخرى لها وتضخيمها. وكان المخطط كالآتي:

أولاً: أثاروا القومية ليضربوا الشعور الإسلامي، وأثاروا الإقليمية الوطنية ليصرفوا الشعور العربي، وليضمنوا بقاء إسرائيل في ظلّ التناقض الذي أوجدوه بين أجزاء الوطن الواحد.

ثانياً: عملوا على استدراج المسلمين إلى حروب غير متكافئة، لإنهاك قواهم وعدم إعطائهم الفرصة لاسترداد الأنفاس.

ثالثاً: إحياء مؤامرات القرامطة والزنج والمزدكية والمانوية، ووصْفها بأنها حركات عدل وحريّة.

رابعاً: إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامي والوحدة الإسلامية.

خامساً: مهاجمة المماليك والأيوبيين والعثمانيين؛ لأنهم هم الذين حطَّموا أحلام القوى الغازية.

سادساً: محاولة الادّعاء بأنَّ الحملة الفرنسية هي مبدأ اليقظة الإسلامية.

سابعاً: تمجيد أعداء الإسلام القدامى والمعاصرين (أتاتورك وأكبرشاه).

ثامناً: إثارة الشبهات حول بطولات صلاح الدين، وبيبرس، ومحمد الفاتح.

* * *

كذلك عمدوا إلى وصف الإسلام بأنه ثورة ضمن الثورات العديدة التي قام بها الإنسان على مرّ التاريخ، من حيث أن الثورة ترتبط بعصر وبيئة، وتمرُّ بمراحل عديدة تتجدَّد وتتبدَّل. وليس كذلك الإسلام الذي لم يجئ نتيجة ظروف اجتماعية معيَّنة، ولكنه كان منهجاً ربَّانياً قادراً على العطاء في مختلف البيئات والعصور، ولذلك لم يكن الإسلام نظرية ولا ثورة.

وإذا كان من أكبر مطامع النفوذ الأجنبي في غزواته المتوالية وحصاره وضرباته هو احتواء الإسلام، وتفريغ العقل المسلم من قيمه الأساسية ومفاهيمه، وتزييف عقيدته، فإن هذا الهدف قد تحطّم تماماً، ذلك أن ظهور الحركة الإسلامية بعد سقوط الخلافة بأعوام قليلة (١٩٢٤م ـ ١٩٢٨م) كان علامةً فارقة على صدق عطاء الإسلام في قانونه الخالد، وهو قدرة الإسلام على تصحيح مسيرة أهله، وإعادتهم إلى الطريق

الصحيح، فقد كان سقوط الخلافة يعني حجْب الشريعة الإسلامية عن المجتمع الإسلامي كلّه، بعد أن حُجِبت قبل ذلك بسنوات في أندونيسيا (١٦٥٥م)، والهند (١٨٥٦م)، ثم في الجزائر (١٨٣٠م)، ومصر والسودان وتونس فيما بعد، وكانت صيحة الحركة الإسلامية ممثَّلة في كلمة واحدة هي:

تصحيح المفهوم الإسلامي، وهو أن الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة، وقد ترتَّب على اعتناق هذا المفهوم تغييرات كثيرة.

وقد انتقل هذا المعنى إلى أقصى المشرق الإسلامي، ثم إلى أقصى المغرب الإسلامي كالنار في الهشيم، يصحِّح وضعاً حاول النفوذ الأجنبي فرْضه وإرساءه بمختلف طرق الترهيب والترغيب ، فلما تبيَّن فساده وانهياره أزعج ذلك أعوانه، الذين ظنوا أنهم قد حطّموا قاعدة الإسلام الأساسية وأنّ تغريب الأمة الإسلامية بدا أمراً محتَّماً، وجاءت هزيمة التجربة الغربية، ثم التجربة الماركسية في البلاد الإسلامية تجرُّ أذيال الفشل، ولم يستطع الفكر القومي أو الفكر الماركسي أو الفكر العلماني أن يحقِّق نجاحاً يذكر، وأنفق في سبيل دعم هذه المخططات ما أُنفق دون أن يجني أصحابها إلا حصاد الهشيم وقبض الريح، واستطاعت الحركة الإسلامية أن تقدِّم في مرحلة أولى كثيراً من مدافعات السموم التي نشرها الاستعمار والاستشراق، ثم أخذت منذ وقت في بناء المناهج الإسلامية الأصيلة في مجال الاقتصاد والأدب والاجتماع والتربية.

ولكن الطريق ما زال طويلاً، وما تزال المؤامرة قابضة على ناصية الأمة الإسلامية.

وبعد أربعة عشر قرناً من نزول الرسالة الخاتمة (الإسلام) نجد أنّ المسلمين الآن يزيد تعدادهم على ألف ومئتي مليون مسلم، وهم منتشرون في مختلف أرجاء الدنيا من أقصاها إلى أقصاها.

وقد أُعطي المسلمون ـ من أجل أنهم يحملون الأمانة في العالمين اليوم ـ أُعطوا الموقع الجغرافي الاستراتيجي والثروة والطاقة، والتفوّق البشري، غير أنّ توجُّهات هذه القوى الثلاث ما تزال محتواة من النفوذ الغربي، بحيث لم يعد أهلها قادرون على الاستقلال بها، أو جعلها على طريق دعوة الحق.

وما يزال المسلمون في صراع وحروب وقتال وجهاد مع أعدائهم، الذين يحاولون السيطرة عليهم وعلى مقدَّراتهم.

ولقد تكشَّفت اليوم أبعاد المؤامرة التي رسمها النفوذ الأجنبي بقواه الثلاث (الغربية والصهيونية والماركسية) وأصبح من واجب المسلمين أن يستثمروا قواتهم وثرواتهم في إحباط مخططات أعداء الإسلام، فأعداء الإسلام لا يتوقفون اليوم عن المؤامرة، ولا بدَّ من حشدٍ تحت اسم فريضة الجهاد والرباط في الثغور، لمواجهة العدو والقدرة على ردْعه وعدم تمكينه.

وأخطر ما يواجهه المسلمون اليوم هذا التوسع الصهيوني الطامح إلى إقامة دولة عنصرية من النيل إلى الفرات، وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

إن أخطر ما يتمثل فيه هذا الموقف اليوم: هو التقاء النظامين اللذين يحكمان العالم ويتقاسمان دُوَلَهُ على عقد حلف ضد الإسلام، للحيلولة دون تمكينه من أن يكون له وجود سياسي حقيقي على الأرض، بحيث يستطيع أن يقيم دولته التي تمثل نظامه ومنهجه؛ وضربه في أرضه، بحيث تكون إسرائيل هي أداة قَمْعِهِ والإدالة منه، وذلك بدفْعِها إلى تنفيذ برنامج إسرائيل الكبرى؛ والحيلولة دون وحدته وامتلاكه إرادته، والاستفادة من الجوّ الذي هيّأته السنوات العشر الماضية ـ بعد معاهدة كامب ديفيد ـ من تقبُّل أسلوب التراجع، في الوقت الذي يصرُّ فيه اليهود على تنفيذ

مخططهم التوسعي والاستيطاني، باستجلاب ملايين جديدة من شأنها أن تطرد أصحاب البلاد الأصليين.

ومن أجل إخضاع المسلمين والعرب لهذه السيطرة الصهيونية الغربية، واستبقاء مقدَّرات الأمّة الإسلامية في أيدي الغرب، يجري فرض مفاهيم زائفة في تحليل الوقائع وعرض المسائل، سواء في مجال الاقتصاد أو السياسة أو الحكم، على نحوٍ يحجب تماماً المقومات الحقيقية للتصوّر الإسلامي، وبحيث يَنْخَدِع المسلمون والعرب ويتعاملون مع الغرب بأساليبه ومفاهيمه التي احتوَتْهم؛ وأبرز من هذا كلّه تفريغ التصوُّر العربي من مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة من ناحية، والجامع بين إعداد القوة والقدرة على الردْع والمرابطة، وبناء الشباب على روح النضال والكفاح والاخشيْشان. حيث تفرض الصحافة ووسائل الترفيه والإعلام برامج ومفاهيم ومسرحيات ومسلسلات وقصص كلّها تحمل صُوَر الانْحِلال والعبث والجنس، وأدب الفراش، واستعلاء الترف الكاذب والأمن الخادع؛ بهدف إدخال أبناء الوطن العربي في حالة من الخدر الشديد، بحيث لا يستيقظون إلا على الضربة القاضية التي تُعَدُّ الآن لتوجَّه إليهم.

وليس هناك خطر أشد من السيطرة على اقتصاد الوطن العربي وتدميره وتحويله إلى هدف الاستهلاك، بحيث تنفد كل هذه الثروات الضخمة، دون أن تحقق ثوابت حقيقية تمكّن العرب والمسلمين من بناء حضارتهم من جديد.

إن أخطر المحاذير التي تواجه المسلمين والعرب اليوم هو الخوف من أن يستسلموا إزاء ما يسمّى بالسلام الخادع الذي يُبَيت لخطوات واسعة من السيطرة.

ولذلك يجب أن تحشد الجهود في البلاد العربية والإسلامية كلّها

لفهم حقيقة المرابطة، والحفاظ على الأرض من غارات الأعداء، والاستعداد النفسي لهذا بوصفه جهاداً في سبيل الله؛ الفريضة القائمة إلى يوم القيامة، فإن لم يفعل المسلمون ذلك فإنهم سيُجْتاحون تماماً.

إن محاولة تصفية مناهج الدراسة من حقيقة الغزو الاستعماري والصليبي والصهيوني سيُخرج أجيالاً تقبل بالفكر المعادي الذي سيُدمِّر مفهوم الإسلام الأصيل.

إن محاولة حذف معركتنا مع الصهيونية من المقرَّرات التاريخية، وإحلال خرائط توضع فيها كلمة إسرائيل بدلاً من فلسطين، وحجب الجانب التاريخي من معركة الرسول ﷺ مع اليهود في يثرب بعد الهجرة؛ كل هذا من الأمور الخطيرة بالغة الخطر.

* * *

إننا في ضوء هذه الحقائق التي قدَّمناها ندعو إلى يقظة واعية وأصالة قادرة على حماية الصحوة من إجهاضها أو تدميرها.

إنَّ هناك وثائق بريطانية وغربية تؤكد قلق الغرب من أي تكتُّل إسلامي، فالقوى الغربية والصهيونية تخشى وحدة المسلمين.

وقد كشفت الوثائق البريطانية عن تخوُّف القوى الكبرى في العالم من وجود أيّ تكتُّل إسلامي محايد لا يرتبط بالقوة الغربية، لقد حققت الثورة الإيرانية مثلاً دوياً هائلاً فاق كل التقديرات التي توقّعتها القوى العالمية.

إن معنى نجاح الثورة الإيرانية هو أن الإسلام يعود من جديد، ولذلك تآمرت كل القوى عليها.

يقول الدكتور فردنان بردويل:

«إن العالم الإسلامي يقف بين كتلتين من النار، هما العالم الرأسمالي

والعالم الشيوعي، وإنّ الصحوة الإسلامية الراهنة تَصْطَدِم بمجموعة من المشكلات العصيبة الاقتصادية والاجتماعية، وهذه المشكلات تتداخل في بعضهـا البعض، حيث يبدو من المستحيل تناولها واحدة واحدة، ولكن أخطر المشكلات التي تواجه الحضارة الإسلامية في صحوتها هي أنّ التقَنيّة سواء أُسندت إلى الماركسية أو إلى الرأسمالية تقدم نفسها على شكل دائرة نار، وعلى المسلمين اجتيازها في قفزة واحدة».

* * *

ولكن الواضح اليوم أنَّ الغرب قد أقفل الباب في وجه المسلمين دون الحصول على التكنولوجيا التي تمكِّنهم من الصناعة الثقيلة ومن بناء حضارتهم، وذلك في محاولة مستميتة لصهرهم في بَوْتَقته، وفي نفس الوقت يمتصُّ فوائض أموالهم وثرواتهم ويدَّخرها في خزائنه، ثم يقرضها لمن في حاجة إليها بأعلى أرقام المراباة، فضلاً عن شروط السيطرة والتبعية.

ولكن الموقف اليوم غيره بالأمس، فقد وعى المسلمون أبعاد المؤامرة التي تُدَبَّر لهم منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، والتي تتوالى في حلقات متتالية، فما أن يغفل المسلمون عن منهجهم وتشغلهم متارف الدنيا وأهواؤها حتى يسلِّط الله عليهم من يَنْتَزِع منهم ملكهم، فيدوروا في حلقة مفرغة من التبعية، حتى ينبَّهوا إلى الحقائق الأصيلة التي بها تقوم الأمم وتنهض، وهي العودة إلى المنابع.

ونرجو أن يكونوا قد وصلوا اليوم إلى هذه المرحلة، وأنهم قد أخذوا أُهبتهم لتطبيق نظامهم ومفاهيمهم الأصيلة.

* * *

أبعاد المؤامرة على الإسلام

هذه الأمة الإسلامية بالرغم من كل ما وجِّه إليها خلال أربعة عشر قرناً فإنها لم تمت ولن تموت، وما من أزمة ألَّمت بها إلا تجمعت وانتفضتْ وتجاوزت التحدِّي، وأعادت تشكيل حياتها من جديد.

واليوم تتجمع حولها التحدِّيات وتتشكل المؤامرة هذه المرة في صورة ماكرة معقدة، تعقد الحضارة الحديثة ومعطياتها في تسديد الضربات، وفي أساليب التمويه والخداع، حيث تتجمَّع اليوم القوى الغربية والمسيحية والصهيونية والماركسية لضرب الإسلام ضربةً واحدة قاتلة، ولكنها عجزت عن ذلك وما زالت عاجزة، وسوف لا تستطيع مهما حاولت، لأنَّ الأمة عرفت خُطاها، وبدأت رحلة العودة إلى الله من جديد.

وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على وعي لما حذَّرهم منه القرآن الكريم حين دعاهم إلى التوقّي من خطر الأعداء في آيات كثيرة وأحاديث نبوية عديدة:

﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢]

ولقد آن للمسلمين أن يعلموا من أين يُؤْتَوْن، إنهم كل مرة يؤتون من ثغرة واحدة هي: التوهين في الاستمساك بالقيم الإسلامية والحدود التي رسمها وأقامها الله لهم، ولم يبقَ بعد العلم بما يراد بهم إلا أن يعملوا وأن يتحرّكوا في اتجاه تصحيح طريقهم والتماس منهج ربِّهم.

لقد حاول المسلمون التماس منهج النهضة عن طريق العلمانية ففشلوا، وعن طريق القومية فذُلُّوا، وعن طريق الاشتراكية فهُزموا، ولم يعد أمامهم إلا طريق واحد هو طريق الإسلام بمفهومه الجامع الأصيل، وذلك حتى يستطيعوا ردع خصومهم واسترداد أرضهم وإزاحة عدوهم.

إن الإسلام دين سلام ورحمة، ولكنه في الوقت نفسه دين قوة، أمر أهله بإعداد القوة لا ليعتدوا على الآخرين، بل ليدافعوا بها عن أنفسهم ويرغموا أعداءهم أن يلزموا حدودهم.

إن السلام الذي يدعو إليه الإسلام هو السلام الذي تحميه القوة؛ لأن القوة هي أكبر ضمان لتحقيق ذلك السلام والمحافظة عليه، فإعداد القوة التي ترهب العدو واجب مستمرٌّ في السلم والحرب على حدٍّ سواء.

إن على المسلمين دائماً أن يمتلكوا زمام المبادرة، فالذي يملك المبادرة يحرم خصمه من حرية العمل، ويجعل أعماله محصورة في نطاق ردِّ الفعل، ولا ريب أنَّ إحراز المبادأة هي من أهم عوامل النجاح والنصر في السلم والحرب على حدٍّ سواء.

ولا ريب أنَّ اندفاعة الدعوة الإسلامية بقوَّة قد جاءت كردٍّ فعل لسقوط الخلافة أساساً، ولذلك فقد كان مَطْمَحُها الأكبر هو إعادتها، وإذا كان سقوط الخلافة نتيجةً للعلمانية في مصر وتركيا التي حجبت الشريعة الإسلامية، فإن سقوط الخلافة كان مقدمة لسقوط فلسطين والقدس.

ومن هنا كان هناك ترابطٌ تاريخيٌّ خطيرٌ بين الخلافة والقدس والشريعة.

لقد فتحنا أبصارنا في أوائل الشباب على هذه القضية الخطيرة التي ما تزال تتسع دوائرها، وتمتدّ حتى شملت وجود الأمة الإسلامية كقضية أساسية، تتعرض للخطر من عدة جوانب في محاولة لاحتوائها، ثم

صهرها في بَوْتَقَة الأمميّة العالميّة؛ ومن هنا فإذا كان هناك مَطْمَحٌ لباحث مسلم ـ بعد خمسين عاماً من العمل في مجال الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي ـ فهو: تحقيق استعادة المجتمع الإسلامي للشريعة، والأمة الإسلامية للقدس، والإسلام للخلافة.

واليوم وبين كل خمسة من أهل الكرة الأرضية مسلم، حيث يشكِّلُ المسلمون ثمانين في المئة مما يسمَّى بالعالم الثالث.

وتبقى الأمة واحدة ما بقيت رسالتها رغم حالات الانحطاط العارضة، ورسالتُنا مكفولة بحفظ الله.

وإذا كانت الماركسية قد سقطت اليوم، فإن الفرويديّة والوجوديّة ومفاهيم علم الاجتماع (دوركايم) وغيرها قد سقطت جميعها، وقد تكشَّف مدى خطئها وفسادها واضطرابها، وإنما جاء سقوط الماركسية اليوم ليؤكّد أن الفكر البشري الذي صبغته عقول وأهواء مفكّري الغرب السُّكارى بخمرة الاستعلاء والاندفاع وراء الشهوات والأهواء والمطامع قد سقط تماماً، ولم يعد يستطيع أن يحقِّق أي سعادة للنفس الإنسانية، ولا طمأنينة لها ولا إيمان، وقد تأكد أنَّ هذه المفاهيم جميعاً مصدرها التلمود والتوراة التي كتبها الأحبار، والتي صدرت عن حقد اليهود على البشرية كلّها، وطمعهم في السيطرة عليها وإذلالها، وفرض إمبراطورية الربا على العالمين.

* * *

إن أساس الأزمة التي يمرّ بها العالم اليوم هو محاولة فرض عنصر غريب على منطقة الشرق الأوسط، ولا شكَّ أنَّ كل ما يشهده الوطن العربي اليوم من مآس وأزمات، سواء في لبنان أو أريتيرية أو جنوب السودان أو فلسطين المحتلَّة؛ إنما يعود كلّه إلى شيء واحد هو هذا العنصر الغريب الذي غَرَسَه الاستعمار، واستطاع أن يسيطر على رأس جسر في قلب الأمة الإسلامية، ومعه مطامعه في التوسع، ومشاريعه في

تفتيت وحدة الوطن العربي، وإثارة الحزازات والصراعات بين الأديان والقوميات، وإحياء الفرق الضالّة في محاولة للوصول إلى الهدف الحقيقي، الذي ما يزال يعمل خلال أربعين عاماً بالتآمر، والعنف والإرهاب، واحتواء العقليّات والنفوس والسيطرة على المصادر القياديّة هنا وهناك من أجل إقامة إسرائيل الكبرى.

وتظهر آثار ذلك كلّه واضحة في محاولة تغريب التعليم والتربية والثقافة، وتزييف وقائع التاريخ، وحجب مواقف المقاومة الإسلامية على مدى العصور في وجه الزحف الصليبي والتتري والاستعماري والصهيوني والماركسي، من أجل تنشئة أجيال جديدة خالية من الإيمان بوطنها ودينها وأرضها وعقيدتها وقيمها، يمكن احتواؤها وصهرها في بوتقة الحضارة المادية ومجتمع الأمميّة، وإزالة روح الإسلام، ودفع المجتمعات كلّها نحو العلمانية والتفكّك الاجتماعي والانهيار الأخلاقي.

* * *

نحن الآن نعيش عصر الحصار الصهيوني والشيوعي الغربي.. إنه الحصار الذي استطاع أن يسيطر على فلسطين وبيت المقدس بمؤامرة قامت بها القوى الكبرى لفرْض عنصر غريب في قلب الوطن الإسلامي (في مَسْـرَى رسول اللهِ والقبلة الأولى، وعلى بُعْدِ مرمى حجر من المدينة المنورة والكعبة المشرفة) وذلك للحيلولة بينه وبين امتلاك إرادته أو قيادة الحضارة العالمية، بعد أن ظهرت علامات انهيار الحضارة الغربية وسقوطها، وتولّـي الصهيونية واليهود السيطرة على العالم من خلال بروتوكولات صهيون بمقدِّمة كيان ممتدّ من النيل إلى الفرات، وقد مضَتْ الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى أعلى ذُرْوَتِها في سبيل إنشاء هذه الإمبراطورية، ومن ورائها النفوذ الغربي كلّه والأمريكي بالذات، والوسيلة إلى ذلك فرض السيطرة الاقتصادية على الوطن العربي، وفَرْض النفوذ الفكري والثقافي واحتواء

الفكر الإسلامي، وتزييف قِيَمه، لإخراجه من خصُوصيّة الإسلام بوصْفه منهج حياة ونظام مجتمع، وفَرْض مناهج الغرب الليبرالية الماركسية العلمانية القائمة على المادية والإباحية والوثنية والتحلُّل من كل القيم والاستعلاء على البُعْد الربَّاني والبُعْد الأخلاقي للحضارات الإنسانيّة.

ولذلك فقد كان الشغل الشاغل لجيلنا الذي تسلّم ميراث الدعوة الإسلاميّة ـ من الأبرار الذين خَطَوا بها حتى أوصلوها إلينا ـ هو بالدرجة الأولى إقامة الثوابت وبناء البدائل الإسلامية والتأصيل الإسلامي لكل القيم والمقوِّمات؛ حتى يكون ذلك عاملاً أساسياً قادراً على بناء قاعدة التغيير التي تحقِّق تمكين المسلمين من امتلاك إرادتهم وفرض وجودهم في مجتمعهم، والتحرُّر من التبعية والحصار الذي تفرضه الليبرالية والماركسية والصهيونية، ليكون ذلك مقدمة لإرساء قواعد المجتمع الإسلامي الأصيل، القادر على تبليغ الإسلام لكل أهل الأرض، وتقديم دين الله تبارك وتعالى للعالمين.

إنَّ السرَّ الإلهي الذي أعطاه الله تبارك وتعالى للمسلمين، والذي يفتح لهم أبواب الدنيا هو: الترابُط بين تكامل العقل والوحي، وجَعْل العقل تحت سلطان الوحي، وعدم تعارضهما. إنّ مهمّة الإسلام الحقيقية هي إخراج البشرية من عالم التجسيم إلى عالم التجريد القائم على الإيمان بالغيب، وتكامل عالم الروح وعالم المادة.

* * *

إنّ حاجتنا اليوم إلى تفهّم أبعاد المؤامرة على الإسلام تتطلّب منا تعمّق الأحداث، والنظر إلى ما وراء النصوص، والحذر من العبارات البرّاقة الخادعة؛ يقول زعيم الحزب الإسلامي في بريطانيا (السيد داود موسى بندكوك): «إنَّ الإسلام هو العدو الجديد للكتلتين المستجدّتين، وهم في الحقيقة كتلة واحدة، وما يهمّهم هو صناعة السلام، وإنّ النظام

والبنك العالمي هو نظام ماسوني شيطاني يتحكّم في جميع الشعوب حالياً، ومعظم البنوك في أوروبا وأمريكا وألمانيا هي بنوك خاصة لا تتبع الدولة، بل تتبع عائلات هؤلاء الذين يتحكمون جيداً في مصائر الشعوب والحكومـات، ويتحكم الصهيونيـون من خلال الماسـونية العالميـة في مصائر تلك الشعوب.

إن مشكلتنا في الشرق أننا لم نعرف عدونا جيداً، وحتى الآن لا أعتقد أننا نفهم أبعاد المؤامرة الدولية».

إن التحالُف الصليبي التتري اليهودي الذي قام قبل إسقاط بغداد عام (٦٥٦هـ) ما زال يتجدّد الآن ـ وبعد سبعة قرون ـ في صُوَر جديدة، وما زال قوامُهُ الغرب واليهود، وما زال مسْـرَحه العالم الإسلامي والأمة الإسلامية.

واليوم تسقط الشيوعية كقوة دولية، وتنفرد أمريكا بالزعامة العالمية إلى حين، وهي تؤيد إسرائيل وتضمن لها تفوّقها على العرب مجتمعين، وتَحُول دون اتّخاذ قرار ضدّها، أو عدم تمكين العرب من امتلاك القوة القادرة على تحجيمها أو إزالتها.. ولكن ذلك كلّه إلى حين.

* * *

إنّ أخطر ما ينمّيه النفوذ الغربي وينفخ فيه هو إعلاء القومية الضيّقة على نحو غريب يكاد يشبه القداسة، وذلك حتى تنسى الأقطار العربية والإسلامية رابطتها الإسلامية الجامعة التي هي وحدها منطلق قوّتها.

وفي مصر نحن نعلي من شأن كلمة مصر والمصرية إلى درجةٍ تشبه الوثنية أو العبادة، وكأنما نحن مطالبون بأن نعبد مصر من دون الله! ونحن ننسى في ضوء هذا التوجّه الكاذب أننا نهْدم رابطة طولها أربعة عشر قرناً، وعُمْقها الإسلام ومنهجه وعقيدته الذي هو ضوء حياتها ومَعْلَمُ طريقها، إيماناً بأنَّ مشروع النهضة لا يقوم إلا بتطبيق المنهج الإسلامي، فهو وحده القادر على تجميع المسلمين تحت لواء الوحدة.

هذا الإيمان يتطلّب بناء الأجيال الجديدة على منهج التربية الإسلامية وبروح الجهاد والنضال وحماية الثغور والتحرر من كل عوامل الانحلال والتّرف والمطامع والأهواء.

ويجب أن تكون الأمة الإسلامية عارفة بالمخاطر والمحاذير التي تحيط بها، والمؤامرة الخطيرة التي تدبّر لاحتوائها وصهرها في بوْتَقَة التبعيّة للغرب، من خلال التعليم والثقافة والصحافة وأدوات الإعلام، في ملاحقة شديدة لإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم وأخلاقهم وصهرهم في فكر مدمّر.

ومن هنا فنحن يجب أن نكون على تعبئة دائمة، وألَّا نغفل لحظة واحدة عن الخطر الذي يواجهنا ويتحدَّانا.

ولقد كانت الأمة الإسلامية دائماً عُرْضَة لهذا التحدي، الذي لم يتوقّف يوماً منذ بزغ فجر الإسلام، وكان في الأخير تهاوننا في التمسّك بمنهج الله، وانتقالنا من العزائم إلى الرُّخص، واستسلامنا إلى الدّعة والترف، وتجميد قوَّتنا العلمية في مواجهة الخطر، وتناسي بأس العدو وخطره الذي يفتح الباب دائماً أمام تعرية ضعف الأمة والذي يمكّن خصومها من ضربها في مواقع الضعْف، وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا الخطر: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، فنحن مطالبون باليقظة والمرابطة والقدرة على الردع وامتلاك السلاح وتنمية الموارد، حتى نكون قادرين على بناء اقتصادٍ إسلامي حرّ.

* * *

إن الإسلام اليوم يتحرَّك في قوّة وثقة، سواء في المحيط الداخلي للأمة الإسلامية، أم في المحيط الخارجي، حيث تتجه إليه الأنظار بين الذين يَـخْشَـون تناميه وارتفاع مدّه، وبين الذين يتطلّعون إليه كمنقذ للبشرية.

إن سرّ هذه الصيحات العصبية هي أنَّ المسلمين فهموا حقيقة الإسلام ورسالته ومهمّته، وأزاحوا ذلك المفهوم المغلوط المضلّل الذي أمضى المستشرقون أكثر من قرن من الزمان يخدعون المسلمين به عن الحقّ، سواء بقدرتهم في مجال السيطرة السياسية، بحْجبه عن المدرسة والمصرف والمحكمة (التعليم والاقتصاد والقانون) أو بمغالطاتهم ومؤامراتهم عن طريق المناهج التعليمية والثقافة والصحافة وأدوات الترفيه والإعلام، ومن هنا فإننا لا نعجب حين نرى جريدة الصنداي تلغراف البريطانية تنشر هذا العنوان المثير: (الإسلام قادر على تغيير أي نظام ديكتاتوري مهما بلَغَتْ قوّته، وإنه لأوّل مرّة تتّجه الدول الإسلامية إلى الشريعة بعد فشل الاشتراكية والديمقراطية والقومية أيضاً).

ويقول بشير العوف: «إنه بعد انهيار الشيوعية الدولية فإن الحقد الصليبي التاريخي سيتفرّغ لمحاربة الإسلام، فكيف سنجابه حرب عدل وأمن وسلام ومحبة»!.

إن هناك كتابات غربية متعدّدة تقول: إن الخطر القادم سيأتي من الإسلام، إنّ خوفهم من مستقبل الإسلام على نفوذهم في العالم يدفعهم الآن إلى خطوات عصبية، وفي مقدّمتها السيطرة على منابع النفط، وإقامة قواعد عسكرية في الجزيرة العربية والخليج.

إن الغرب الآن يدبّر مؤامرات جديدة لتقف في وجه الإسلام الزاحف، ولكنّ المسلمين الذين حاول الغرب صَهْرهم في بوتقته وتدمير قدراتهم على المقاومة والردع يعودون من جديد إلى استخلاص عبرة التاريخ، ويلتمسون منهج الله تبارك وتعالى ليجدوا فيه الملاذ والمنطلق.

العودة إلى الوحدة الإسلامية الجامعة، والعودة إلى الشريعة، وإعداد المجتمع الإسلامي ليكون قادراً على حسم الموقف مع الصهيونية والاستعمار والشيوعية.

وإنّ الجسم الغريب سيلْفظُه الكيان الإسلامي مهما طال الزمن، ولا تستطيع أي قوة على الأرض أن تتجاوز حتميّة انتصار الحق.

لقد استغرقت الحروب الصليبية مئتين من السنين، دون أن يبدو ولو لحظة واحدة على رجال المقاومة المجاهدين أي لمحة من اليأس أو التشاؤم أو إلقاء السلاح، بل ظلّوا يقارعون العدو التتري والصليبي في آن واحد، بالنَّفَس القوي ذاته، وتسلّمَتْ الأجيال الراية جيلاً بعد جيل، حتى أذن الله تبارك وتعالى بزوال العدوان وجلاء آخر غازٍ صليبي عن أرض الإسلام.

إنّ بناء صناعة الموت وعقيدة الجهاد في سبيل الله في الأجيال الجديدة هو مفتاح النصر على مقاييس الإسلام نفسه.

يقول الشيخ محمد الغزالي:

«لنكنْ على يقين من أنّ ربّ العالمين لا يَسُوق النصر جزافاً، ولا يجعل النتائج السليمة تخرج من مقدّمات مُختَلِفة، بل لا بدّ من تنظيم المقدّمات حتى تعطي نتائج صحيحة.

والدين هنا واضح في أنّ لله ـ تبارك وتعالى ـ سنناً في الكون وسنناً في المجتمعات، فإذا كانت السنن الكونية لا تتخلّف، وإذا كان علماء الهندسة مثلاً يقولون: إنّ مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين، ولا يمكن إلا تحقيق ذلك. فهذه حقيقة رياضية أيضاً من الحقائق الاجتماعية أنّ الأمة التي تجمع بين التقوى والصبر لا بدّ أن تنتصر، فإن فقدت التقوى وسادها الجَزَع والشرّ وطلب اللهو فإنه لا بدّ أن تنهزم، وهذه القوانين تساوي في قوتها القوانين الرياضية، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]».

ويقول الشيخ محمد الغزالي: «يجب أن ندرس التاريخ الإسلامي على أننا ما هَزَمَنا أعداؤنا، وإنما هو تاريخ أمة فرّطت في أمر الله فعوقبت،

وقد بذل أعداء الإسلام جهودهم لينسى المسلمون تاريخهم، ومن هنا فلِكي يكون التاريخ صحيحاً لا بدّ من استيعاب الحقائق. أمر ثالث خطير هو محاكمة وقائع التاريخ للتوجيهات الإلـهية، ولا يُدرّس تاريخ المسلمين غير المسلمين».

وعلى المسلمين أن يتحرّروا من خطر الانحلال والترف، فقد كان هو مصدر الهزيمة في تاريخ المسلمين كلّه، ولا بدّ من قيام الأمة في مرحلة الخطر بالعزائم والاخشيشان، والحذر من خطر الغزو، والمرابطة في الثغور، والقدرة على الردع، وتقديم النفوس والأرواح والأموال رخيصة في سبيل الدفاع عن وجود الأمة الإسلامية وحماية عقيدتها.

* * *

ملاحق البحث

أولاً ـ بين الإمبراطورية الرومانية والإسلام:

١) سلخت الإمبراطورية الرومانية ألف عام من الزمان حتى نمت واتّسعت، وبلغت نضجها السياسي، في حين أنّ الإمبراطورية الإسلامية تكوّنت في ثمانين عاماً، وقد تمّ سقوط الإمبراطورية الرومانية وانهيارها بصورة تامة على يد الهون والقوط خلال قرن واحد، ولم يبقَ منها سوى بضْعة معالم من الأدب والبناء.

٢) أمّا الإمبراطورية الإسلامية فقد استشرى فيها الانحلال البطيء، الذي استغرق أكثر من ألف عام، ولم يتم الانهيار السياسي نهائياً الذي يتمثّل في إلغاء الخلافة العثمانية والتفكّك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الإسلامي إلا بعد سلسلة طويلة من المؤامرات الدولية. إن التماسك الاجتماعي، في العالم الإسلامي أرقى من أيّ شيء عرفه الناس عن طريق التنظيم الاجتماعي ويرجع ذلك دون ريب إلى تعاليم القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه، وإلى سُنَّة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

٣) الفكرة التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية هي: استغلال الشعوب المغلوبة لمصلحة روما، والترفيه عن الأباطرة ولم يرَ الرومان ـ في بطشهم ـ الناسَ سواء، ولم يكن العدل الروماني الذي يتغنَّون به إلا إنصاف الرومان وحدهم.

أما في حالة الإمبراطورية الإسلامية فقد كان الهدف هو ضمان حرية

الاختيار في ظلّ المبدأ الإسلامي ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ ولم يكن هناك استغلال شعب من أجل الترفيه عن شعب آخر، وإنما كان الشعار السائد «لكم ما لنا وعليكم ما علينا».

والتاريخ الصادق شاهد على أمثلة عديدة لتأديب أمير المؤمنين للولاة الذين تحوْل حولهم شبهة الكسب غير المشروع، أو إيذاء غير المسلمين، وكان المسلمون يتذكّرون جيداً قول نبيّهم عليه الصلاة والسلام «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة»[1].

ثانياً ـ ما تزال المؤامرة على الإسلام وبيت المقدس مستمرة:

إن المؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية مؤامرة قديمة، ترى علاماتها الأولى في موقعتَي مؤتة وتبوك في عهد الرسول ﷺ، الذي اختار الرفيق الأعلى وهو يعدّ جيش أسامة لغزو أرض الروم، وكان هذا إشارة إلى مُنْطَلَق الخطر.

وقد امتدّت المعارك بين الدولة الإسلامية في الشام وبين بيزنطة فترة طويلة، كان فيها أهل طرابلس يعيشون في لباس المرابطين المجاهدين الذين لا يغفلون عن الثغور لحظة من ليل أو نهار.

وعندما فتح المسلمون أفريقيا وامتدَّ الإسلام إلى القيروان وطنجة أصبح البحر الأبيض المتوسط كلّه بمثابة خط دفاع قوي، حيث أقيمت الرباطات وامتدت على طول الساحل في أكثر من ألف موقع من طرابلس الشام إلى رباط الفتح إلى آسفي وما بعدها على المحيط الأطلسي، وفيها رجال نذروا أنفسهم لله، يَرْقبون كل حركة على الشاطئ المقابل، حتى إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة وبعض ليلة، وذلك في

---

(١) محمد أسد (ليوبولدفايس).

مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين، وفي كل هُجِرس منها رجال مَرْئِيّون نظّار وطلاّع يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا دعى بها كل من كان في المَحارِس.

وظلّ الموقف يشتّد ويلين على حدود الدولة الإسلامية مع الروم حتى جاء محمد الفاتح، الذي استولى على القسطنطينية وغيَّر تاريخ أوروبا كلّها، بل غيَّر تاريخ العالم كلّه، قال عمرو بن العاص: بينما نحن عند رسول الله نكتب إذْ سُئِل: أيّ المدينتَين تُفتح أولاً: القسطنطينية أم روما؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «مدينة هرقل تفتح أولاً» (يعني القسطنطينية).

* * *

ولكنَّ الإسلام لم يُضرب من جبهة الروم وحدها، بل إنّه ضُرِب من قوتين كبيرتين هما: التتار والصليبيون.

أمّا التتار فقد انطلقوا حتى دخلوا عاصمة الخلافة في بغداد (٦٥٦هـ) وخربوها، وتعاونوا مع الصليبيين في حِلْف غير مقدّس لحصار الإسلام بين فكّي كماشة.

ولكن المسلمين استطاعوا دَحْر قوّة التتار في عين جالوت، حيث هُزِموا لأوّل مرة في تاريخهم، وارتدُّوا على أعقابهم، ولمّا يمضِ على دخولهم بغداد أكثر من عامين، وذلك بقيادة قائد المسلمين الظاهر بيبرس.

وامتدّت الحروب الصليبية قرنين من الزمان، وأُبرزَت كفاءات وبطولات إسلامية غيَّرت وجه التاريخ، وكان في مقدِّمة أبطالها عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين، وبيبرس، وقلاون.

لقد أرسى نور الدين معالم العودة إلى منهج الله تبارك وتعالى،

فتكوّنت المدرسة الإسلامية التي وَهَبتْ نفسها للجهاد، وباعت نفسها لله تبارك وتعالى، فكُتب لها النصر على يد صلاح الدين في مواقع كثيرة، وفي مقّدمتها حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).

فتح عماد الدين زنكي الرَّها، وأمضى نور الدين ثلاثون عاماً من الجهاد في ميادين الموصل والشام ومصر، وعندما انتقلت راية الجهاد إلى صلاح الدين عرفتْ أوروبا كلّها كيف تمثَّل الإسلام خلُقاً في رجل محارب مؤمن بالله صادق الوعد، حتى أحنى القادة الثلاثة للحرب الصليبية التالية هاماتهم تقديراً للرجل الذين أقبلوا ليقاتلوه، وكانت موقعة (حطِّين) حاسمة في وجه الصليبيين، كما كانت معركة (عين جالوت) حاسمة في وجه التتار.

ولما قاد لويس التاسع الحملة الصليبية السابعة إلى مصر هُزِم هزيمة منكرة، وسُجن في المنصورة حتى افتداه الفرنسيون، حين أذنت سماحة الإسلام بإخراجه حيّاً دون قتله، ولكنّ لويس غَدَرَ بالمسلمين بعد خروجه من مصر، فقد ذهب إلى عكّا، وظلَّ بها يحيك المؤامرات بين أمراء المسلمين للقضاء على وحدتهم وتفريق كلمتهم، واتّصل بالمغول لمفاوضتهم لتطويق العالم الإسلامي، ولم يتوقّف لويس عن المؤامرة حين قاد الحملة الصليبية إلى تونس بعد ذلك بسنوات حيث لقي مصرعه.

وانتهت الحروب الصليبية بعد قرنين بالهزيمة الكاملة للغرب، الذي انسحَب بينما كان يبيّت غَدْراً بالمسلمين، ويعدُّ نفسه لجولات جديدة، لولا قيام الدولة العثمانية.

ثالثاً ـ الدولة العثمانية قذى في عيون خصوم الإسلام:

وكانت الدولة العثمانية منذ اليوم الأول قذى في عيون خصوم الإسلام، فقد حَمَتْ الوجود الإسلامي كلّه من المغرب إلى المشرق من

مؤامرات الغرب، بعد أن استطاعت أن تقتحم أوروبا من البلقان، وأن تصل إلى أسوار فينّا، وأن تسيطر أكثر من ثلاثة قرون على قلب أوروبا.

ومن ثم توالت المؤامرات على الدولة العثمانية بعد أن استطاع محمد الفاتح اقتحام القسطنطينية وتحويل كنيسة أياصوفيا إلى منارة إسلامية. وقد كشفت الأبحاث أنّ مئة مشروع مؤامرة أعدَّتها أوروبا، وحاولت إنفاذها من أجل تمزيق الدولة العثمانية، في الفترة التي تلت ظهور هذه الدولة وتوسُّعها في أوروبا.

ولقد كان دخول العرب في الدولة العثمانية ضرورة تاريخية من أجل حماية الوجود الإسلامي، وكان برضاء العرب وتقديرهم لدور الدولة العثمانية، والوقوف في وجه الخطر الصليبي الذي صاحَبَه نهضة الإفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح، وبدء عصر الكشْف الاستعماري، وقد دخلت الجزائر باختيارها، وكذلك أجزاء لبنان، وشريف مكّة، ولم يكن هذا عملاً استعمارياً، كما حاول الغرب تصويره، بل كان من أجْل التآزر على صدّ الخطر عن العالم الإسلامي، مما أخّر احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون.

فقد بدأت المؤامرة الغربية مرة أخرى بعد سقوط الأندلس، حيث اندفعت إسبانيا والبرتغال لمحاصرة العالم الإسلامي من ناحية أفريقيا، والسيطرة على المغرب والجزائر، ثم ورثَتْهما فرنسا وإنكلترا، بينما انطلقت بريطانيا للسيطرة على الهند، وانطلقت هولندا للسيطرة على أرخبيل الملايو وأندونيسيا، وذلك في خطة ماكرة لمحاولة وضع الأمة الإسلامية بين فكَّي الكماشة مرة أخرى، وجاءت المرحلة التالية تحمل نُذُرَها الخطيرة التي مازلنا نعيش فيها إلى اليوم.

فقد جرت المحاولات لتمزيق الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة الإسلامية، وكان الغرب يعلم أن حضارته سوف تنهار يوماً كما انهارت

الإمبرطورية الرومانية، ومن هنا حاولت بريطانيا التي كانت لا تغيب عن مُسْتعمراتها الشمس دراسة الوسائل والغايات التي تمكِّن الغرب من استمرار سيطرته، وكانت خطة كامبل ينرمان (١٩٠٧م) التي قرر علماء التاريخ فيها ما يلي:

أولاً: أهمية السيطرة على البحر المتوسط، لأنه الشريان الحيوي للاستعمار، فهو الجسر بين الشرق والغرب، وملتقى المواصلات وطُرُقها في العالم، وأنَّ من يسيطر على شواطئه الجنوبية والشرقية يستطيع التحكّم في العالم.

ثانياً: أكَّد التقرير أنَّ الخطر على الاستعمار يكمن في البحر المتوسط: صلة الوصل بين الشرق والغرب، وفي حوضه حيث شهد نشوء كل الديانات والحضارات، وأنه يسكن في هذه المنطقة شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ واللغة والدين، وكل مقوّمات التجمّع والترابط، هذا فضلاً عن ثرواته الطبيعية ونزعة أهله للتحرّر، فلو أُخذت هذه المنطقة بكل الوسائل الحديثة وإمكانيات الصناعة الأوروبية، وانتشر التعليم فيها، فإنّه ستحلُّ الضربة القاضية حتماً بالإمبراطورية الاستعمارية، وعندها ستتبخَّر أحلام الاستعمار الغربي، فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار (تجزئة) هذه المنطقة، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكُّك وتأخُّر، وأن تعمل على وضع هذه المنطقة المجزَّأة المتأخِّرة مع بقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل، وهذا يستلزم فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي.

وكإجراء سريع لدرء الخطر أوصى التقرير بضرورة إقامة حاجز بشري قوي وغريب في منطقة الجسر الذي يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معاً بالبحر المتوسط، بحيث يشكّل في هذه المنطقة ـ وعلى مقربة من قناة السويس ـ قوة صديقة للاستعمار وعدوّة لسكان المنطقة.

والمعروف أنّ الاستعمار كان قد التقى في هذه الفترة مع الصهيونية في مخطّطاته الاستعمارية، وفرض النظم الربوية على البلاد التي احتلتها الدول الكبرى تمهيداً للخطة الجديدة.

تلك الخطة التي طبّقت حين حاصرت الحملة الفرنسية مصر، في خطَّة للسيطرة على فلسطين والشام، في صراع مع بريطانيا على طريق الهند، وكانت فرنسا قد سيطرت على لبنان، وفتحت أبوابه أمام الإرساليات التبشيرية التي تركَّزت بعدُ في القسطنطينية ومصر والشام.

ومضت الخطّة إلى غايتها في تمزيق الدولة العثمانية، بعد أن تمَّ التآمر على السلطان عبد الحميد الذي قاوم مؤامرة سيطرة اليهود على القدس، فقد وقف السلطان عبد الحميد موقفاً مشرفاً حاسماً إزاء مؤامرة الصهيونية، ورفض إغراء هرتزل له، الذي عرض عليه خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية، من أجل السماح لليهود بدخول القدس زائرين أو مقيمين، ووقف بصلابة في وجه هذا الخطر، وكان قد دعى إلى الوحدة الإسلامية الجامعة، وسعى إليها في مرحلة ضعف الدولة العثمانية، وظلَّ صامداً حتى أُطيح به، وكانت الإطاحة به بمثابة الخطوة الأولى نحو إسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق الدولة العثمانية.

وكانت الماسونية والاتحاديين في تركيا واليهود بمطامعهم في فلسطين وراء سقوط السلطان، وكان الاتحاديون قد مهَّدوا لإدخال الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى لتمزيقها وتوزيع أملاكها على الدولتَين: فرنسا وبريطانيا، ومن أجل ذلك انعقد مؤتمر برلين، الذي أنفذ هذه المؤامرة؛ وفي الوقت نفسه ظهر (وَعْد بلفور) الذي فتح فلسطين أمام اليهود في مؤامرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، ما زالت تخطو منذ (١٩١٨م) إلى اليوم تحت شعارَيْن:

« من النيل إلى الفرات»، و« إعادة بناء هيكل سليمان ».

ويرى كثير من المؤرِّخين أنَّ الحرب الصليبية التاسعة التي جاءت بعد أكثر من ثمانين عاماً من انتهاء الحرب الصليبية الثامنة كانت هي دخول بريطانيا إلى القدس عام (١٩١٧م) وحين أعلن اللورد اللنبي:

«الآن انتهت الحروب الصليبية».

وعندما وقف غورو الفرنسي عند قبر صلاح الدين في دمشق وقال:

«ها نحن قد عُدْنا يا صلاح الدين».

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى مُزِّقت الدولة العثمانية ووزِّعت أسلابها، وأُقيم فيها نظام علماني يرفض الإسلام، ويكتب من الشمال إلى اليمين، بقيادة أتاتورك، في محاولة لإغراء المسلمين والعرب بهذا النظام الجديد، ووقعت الأمة الإسلامية كلّها في قبضة النفوذ الاستعماري، وفتح الباب أمام تحقيق وصية (بترمان كامبل) التي صدرت (١٩٠٧م) بإقامة عنصر غريب في المنطقة الفاصلة بين آسيا وأفريقيا.

ودخلت الأمة الإسلامية في مرحلة الخطر، حيث حاصرتها القوى الغربية والشيوعية والصهيونية جميعاً.

وكانت أول خطوات العلمانية التركية إسقاط الخلافة الإسلامية تمهيداً لإقامة إسرائيل.

وكان إسقاط الخلافة الإسلامية هدفاً حيويّاً خطيراً في نظر النفوذ الغربي، حتى لا تقوم للمسلمين قائمة من بعد، وهو هدف تآزرت عليه كلّ القوى غير الإسلامية لتحقيقه.

ويوم أن وقف (غلادستون) رئيس وزراء بريطانيا، وقد أمسك المصحف الشريف بيده من فوق منبر مجلس العموم البريطاني وقال: «ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض، فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين،

بل نحن على خطر منه في وجودنا نفسه».

يـوم وقف هذا الموقف كان واضحـاً للغرب ولأوروبـا، وللنفوذ العالمي المسيحي واليهودي مدى الخطر الذي يحيط بالإسلام والمسلمين، ومن هنا كانت يقظة الإسلام في مواجهة الحملة الصليبية التاسعة عن طريق القرآن نفسه.

واليوم نجدنا وجهاً لوجه أمام المؤامرة، فقد وقع حادث محاولة إحراق المسجد الأقصى (أغسطس ١٩٦٩م) وتوالت المحاولات حتى جاء اليوم الذي حاول فيه بعض المتطرِّفين اليهود وضع حجر الأساس لهيكل سليمان في قلب المسجد الأقصى، وذلك بالرغم من أن كل الدلائل تؤكِّد أنَّ بني إسرائيل لم يتركوا في تاريخهم القديم أيّ أثر للهيكل الذي حُرق مرتين، الأولى على يد بختنصر ملك الكلدان الذي هاجم أورشليم ـ فلسطين ـ (٥٨٦ق.م)، وكذلك الهيكل الذي حطَّمه الإمبراطور الروماني تيتوس عام (٧٠م) عندما أُحرقت أورشليم ـ فلسطين ـ بسبب ثورة اليهود على حكم الرومان، فلما ثاروا مرة أُخرى في عهد الإمبرطور أوريانوس عام (١٣٥م) دُمِّرت أورشليم تماماً، وأزيل الهيكل من أساسه، وحُرثت أرض المدينة حرثاً، وأقيم مكان هيكل سليمان معبد وثني باسم جوبيتر ـ ربّ الأرباب عند الرومان.

ولما اعتنق الرومان المسيحية في عهد قسطنطين في القرن الرابع لم يكن لهيكل سليمان أي أثر، وفي (سنة ٦٣٦م) فتح المسلمون فلسطين، فأصبحت عربية لحماً ودماً، أي: عادت إليها عروبتها، فقد كانت عربية منذ فجر التاريخ.

ولكن الصهيونيـة لا تعترف بحقائق التاريخ، وتعمل على إقامة نموذج لهيكل سليمان، ويزعمون أن الجدار الغربي للمسجد هو آخر ما بقي من هيكل سليمان القديم، ويسمّونه حائط المبكى، وهي تسمية سياسية لم تكن معروفة من قبل وعد بلفور ودخول الإنكليز القدس عام

(١٩١٧م)، وإنما يسمّيه المسلمون حائط البراق نسبة إلى البراق الشريف.

ولقد قامت لجنة محايدة عام (١٩٣٢م) من قِبَل عُصْبة الأمم للفصل في هذه القضية، وأثبتت في حكمٍ صادر لها بأنه لا حقَّ مطلقاً لليهود في هذه المنطقة، وقد اشترك في هذه القضية محمد علي علوبة، وأحمد زكي باشا شيخ العروبة، ولكن المناورة ما تزال مستمرة.

والذي يعنينا اليوم أن نعرف وجه المقارنة بين الحروب الصليبية وبين الاحتلال الاستيطاني اليهودي القائم اليوم، فإنه يحاول الاستفادة من تجربة المسلمين خلال معركة حطّين وغيرها. وعلى المسلمين أن يصمدوا في وجه الخطر، كما صمد المسلمون إبّان الحروب الصليبية، وعليهم أن يستعينوا في مقاومتهم بأسلوب القرآن، وليس هنالك طريق غير الجهاد وتعبئة القوى والصمود والصبر والمرابطة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وسيظلّ المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، هو قلب القضية كلها، كما كان في الحروب الصليبية هدف نصارى أوروبا الذين أرسلوا سبع حملات صليبية، واحتشدوا خلال قرنين كاملَين من الزمان في سبيل السيطرة عليه؛ ثم كانت الجولة الثانية التي يقودها اليهود تحت اسم إعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى، والذي كان رمز الماسونية خلال أكثر من ثلاثمئة عام. وسوف يقدِّم المسلمون في سبيل الأقصى دماءهم رخيصة، ولن يتحققْ لإسرائيل هذا المطمع مهما احتشدَتْ له القوى الغادرة.

رابعاً ـ قضايا مطروحة من وجهة نظر الإسلام (شبهات تاريخية):

هناك دعاوى مُثارة في محاولة لأن تكون من المسلّمات بالتزويد المتَّصل، مُسْتشرقاً عن مستشرق، ثم يتولاها متغرِّب أو شعوبي.

ومن ذلك دَعْوى أنَّ الشام ومصر والمغرب كانت جزءاً من العالم المسيحي، وجاء الإسلام فأخرجهم منه، وهذا القول ليس له أي سند من الصحَّة التاريخيّة، وذلك أنّ الوجود الروماني في هذه المناطق كان وجوداً دخيلاً، وكان احتلالاً عارضاً، جاء بعد موجات متعدّدة خرجت من الجزيرة العربية وانداحت في هذه المناطق موجة بعد موجة، خلال عشرات الآلاف من السنين.

هذه الموجات التي تركَّزت واستقبلت أهلها الذين جاؤوا بعد الفتح الإسلامي.

فالوجود الروماني في هذه المناطق كان احتلالاً، وكان احتلالاً ظالماً، سرعان ما تكشَّف بقدوم التوسع الإسلامي الذي أزال الظلم؛ ولم يفرض عقيدته، وإنما اكتفى بإقامة العدل الذي دفع أهالي تلك الأقطار إلى الدخول في دين الله أفواجاً، إيماناً بما حقَّقه من عدل، وما قدمه من مفهوم التوحيد الخالص، وهذا سرّ ترحيب أهل هذه المناطق بالفتح الإسلامي وتعاونهم في إتمام هذا الانحسار، فلا يجوز اعتبار هذه المناطق انتزاعاً من العالم المسيحي، فيسمح لكتَّاب متعصّبين أن يقولوا: على الهلال أن يردّ ما أخذه من الصليب. إذ الحقيقة أن الهلال لم يأخذ، وأنَّ الصليب هو الغاصب، وأن موجاتٍ سابقة للفتح الإسلامي ـ خلال خمسة آلاف سنة أو أكثر ـ التقت بموجات جديدة، الأولى وَسَّدت للإسلام، وجاء المسلمون الفاتحون ليلقوا المقيمين من ذوي القربى والنسب.

كذلك فإنه من أخطار التزييف التاريخي الادّعاء بأنَّ مؤامرات القرامطة أو الزنج هي بمثابة حركات إصلاح أو تغيير حقيقية، بقدر ما كانت انحرافات عن العقيدة الإسلامية وخروجاً على مبادئها وأخلاقها، واستباحةً لجميع المحرَّمات، نكايةً في الإسلام وأهله؛ بل كانت حقداً جليّاً من عصابات ومتعصّبين على الإسلام والعرب، الذين أصبحوا

يملكون بالإسلام أعظم حضارة في التاريخ، وقد أصبحوا الشعب المعلم، كذلك فإن المتغرِّبين الذين يُغْلُون من شأن هذه المؤامرات، ويعطونها صفة الثورات والحركات التي تدعو إلى العدل، إنما يأتمرون مع الأهواء في سبيل إفساد حقائق التاريخ، فهم يمتدحون كل الخارجين على الإسلام، ولو كانوا قطَّاع طرق أو لصوصاً أو قتلة.

ولا شك أنَّ ما فعله القرامطة والزنج من أمور أساءت إلى الإسلام إساءات بالغة فهم لم يثوروا على العرب لتصحيح مسيرتهم الإسلامية، وإنما ثاروا من أجل ضرب الإسلام ككلّ، وكان الأولى أن ينادوا بتطبيق الإسلام، ولكنهم حاولوا إفساد العقيدة الإسلامية بالدسّ عليها، واستخدموا الأساطير والخرافات، وكانوا ينكرون أصول الإسلام، ومنها البعث والجزاء والثواب والعقاب.

أنور الجندي

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

من جبهة بيزنطة إلى نهاية الحروب الصليبية

الباب الثاني

الزحف المغولي التتري على أرض الإسلام

من سقوط بغداد إلى نصر (عين جالوت)

إلى إسلام (بركة خان)

الموضوع الصفحة

الباب الثالث

جهاد المماليك في مواجهة خطر الصليبيين والتتار

الباب الرابع

من الأندلس إلى قلب أوروبا

الباب الخامس

تطويق عالم الإسلام

الباب السادس

من فتح القسطنطينية إلى سقوط الخلافة الإسلامية

الموضوع	الصفحة